ثلاثة أجزاء في مجلد واحد

إسماعيل

أو

في ظلال الأهرام

IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS

شرح وتعريب

محمد موسى إبراهيم

بوزارة الأوقاف

« حقوق الطبع محفوظة للمعرب »

Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ملتزم طبعها وبيعها محمد محمود بسوق خضار باب اللوق

صاحب مكتبة [illegible]



المغفور له اسماعيل باشا خديوى مصر الاسبق

هديتي

الى مليكي ومولاى جلالة الملك احمد فؤاد بن اسماعيل

ثم الى أمنا العزيزة ، مصر البائسة ، التى نالها من كيد بنيها أكثر مما نالها من عسف الدخيل الغاصب

واخيرا الى ابنتى الطفلة « نعمات » ، التى من أجلها سأعيش ولخيرها سأعمل ؟

مارس سنة ١٩٢٥ محمد موسى ابراهيم

كلمتى للناقد

عفوا أيها الناقد الكريم !! فما حسبت - يوم اخترت هـذا السفر - حسابا لنقدك سواءعن حسن الاختيار أو متانة الاسلوب أو وضوح العبارة

فلقد اخترت ماراق لنفسى ورأيت فيه مغمزا المتربع الغافل ومطعنا فى صميم المستكين النائم

وعربته فى ساعات دقيقة ضيقة لم تترك لى أمـلا فى تنميق العبارة أو انتقاء اللفظ أو احكام الاسلوب ، ولـكنى اصارحك بأنى عملت جهدى

غير أنى أسر اليك كلمة خاصة ، فلاتفصح عنها لغير عشيرتك ومواطنيك ، وهي أنى مع شدة محافظتي على أمانة النقل والتعريب لم أجد مندوحة من أن اخفف من حدة قلم الـكاتب ، والطف من تقريعه وجلته ، فطاعنه وحملاته تؤلمنى كما تؤلمك ، وتستفزنى كما تستفزك

فرجائى أن تقصر عليك نقدك ، وأن تشفق علي نفسى - وعلى نفسك - من لومك ، فالحقيقة مهما كانت حسنة مشكورة فهى قاسية جارحة

وهذه قصة مصرية ، لاشرقية ولا غربية ، ومأساة مفجعة ،
شيقة ممتعة ، تغضبك وتسليك ، ، وتضحك وتبكيك

فتعال سويا نتصفحها علي مهل ، ونستخرج العظة البالغة
من ثناياها ، والعبرة القاسية من سطورها ، فنعلم منها مالا نعلم
ونقف على مافاتنا فيها ونتعلم !!!

ثم نلقي حجابا كثيفا على الماضي وسوءاته ، ونستقبل الحياة
الجديدة ، تستفزنا الحزامة والامل ويحدونا العزم والرجاء

"The old must fall, and time itself must change,
And thus new life shall blossom from the ruins."

Schiller

المخلص

مقدمة

لما رغب جلالة مولانا الملك الى الكتاب وضع سفر شامل في تاريخ حياة والده المغفور له (اسماعيل باشا) خديوى مصر الاول قام بنفسى أن ادلى دلوى فى الدلاء وان أدخل فى زمرة المتنافسين . ولكن حال دون عزمي وقتئذ ظروف قهرية وطوارئ عارضة

غير انى عندما طالعت ماكتبه الكتاب فى ذلك وجدت أن هناك نقصا عظيما فى صوغ الحوادث وربطها بنفسية جمهور الشعب والمؤثرات الاخرى المختلفة سواء كانت خارجية أو داخليه . وقد راجعت ذاكرتى فى ذلك فرأيت أن سبق لى قراءة قصة بقلم سياسى أمريكى كبير تكاد تجمع بين سطورها حقائق جمة عن نفسية مصر فى ذاك العهد والعوامل التى زادت فى شقائها وحنتها وعجلت فى سقوط اسماعيل

ولما كانت الوقائع التاريخية بذاتها جافة بكماء وسردها بأسلوب تاريخى محض مما يفوت معه الغرض وتأتى عارية عن ذكر العوامل الدقيقة والبواعث الهامة ومجردة من شرح العواطف البشرية والمؤاثرات الطبيعية التى ساعدت على وقوعها وأثرت فى تكييفها مهما أسرف الكاتب فى الوصف وامعن فى الاسهاب فان صوغها فى أسلوب قصصى مشوق Historical Novel مما يعوض هذا النقص ويدفع عن النفس السآمة والملل اللذين يعترضان كل ميل لاستقراء الحقائق التاريخية واستيعابها .

ولكن الظروف وقتئذ ـ والكل يعرفونها ـ لم تكن لتشجعنى على اخراج هذه القصة السياسية . أما وقد تبدلت الظروف . وزالت

الموانع فقد بادرت بتعريبها لجريدة الافكار - . ونشرت تباعابها من ٦ اغسطس سنة ١٩٢٤ . وبما أن بين أشخاص القصة قوم لم يتقادم عليهم العهد ، ومنهم (ومن سلالتهم) من لا يزال ينعم بين ظهرانينا . فقد أتيت على تاريخ كل منهم حتى يقف القارئ على حقيقته وحتي لا يتأثر بما يكون قد كتبه المؤلف عنه خلاف الواقع . ومع انه لم يسلم واحد منهم من مطاعن الكاتب ونكيره . فقد انصف اسماعيل بما ذكره على لسانه فى ختام القصة من المعاذير والعوامل التى جعلت منه رجلا مسرفا ومتطرفا فى الاصلاح

ولكي نزيد فى انصاف اسماعيل فانا نأتى على نبذة صغيرة من تاريخ حكمه . حتى يقف الكل على حقيقة حياة ذلك المصلح العظيم. وماكان يرجوه لمصر على يديه من الخير وما يتوخاه من الاصلاح.

« هو اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) بن ابراهيم بن محمد على باشا الكبير تولى الحكم والمدارس مغلقة ومشروعات جده مهملة فجدد كل شئ وخطا بعصر خطوات واسعة فى سبيل المدنية والاصلاح. ومع أنه لم ينل فى حداثته قسطا وافرا من التعليم فقد كان على جانب عظيم من الذكاء وعلو الهمة . يشهد له بذلك ماتم على يديه من الاعمال الجليلة والاصلاحات الخالدة . والتى كان يريد بها أن تتبوأ مصر مكانتها بين الامم الغربية الراقية . ارسل للدراسة بفرنسا وهو لم يبلغ السادسة عشر من سنيه فأجاد الفرنسيه وطاف فى اكثر الممالك الغربية ووقف على الكثير من أسباب حضارتها واسرار رقيها

وتولى الملك في ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ - ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ وهو فى الثانية والثلاثين فسار مهطعا فى الاصلاح مما اضطره الي

استدانة تلك الديون الهائلة التى كانت سببا فى تدخل الدول الاجنبية فى شئون بلاده ثم سقوطه

ومن اعظم اصلاحاته الهامة وأعماله الخالدة التى نذكرها له بمزيد الفخر والاعجاب

(١) ـ الفصل فى امر وراثة العرش (٢) ـ اتمام مشروع القنال (٣) ـ اصلاح القضاء وانشاء المحاكم المختلطة (٤) ـ تعميم التعليم (٥) ـ الضرب على ايدى تجار الرقيق (٦) ـ تشكيل مجلس الشورى ومسئولية النظار (٧) ـ زيادة الزراعة والتجارة والمشروعات العامة النافعة (٨) ـ العمل على توسيع المملكة المصرية وزيادة ممتلكاتها (٩) ـ المواصلات كالاسلاك البرقية والبريد والسكك الحديدية والاسطول التجارى

ولكن لو نظرنا الى ما كانت عليه قصوره من الأبهة والبذخ وما كان يصرف فى سبيل حفلاته وأعياده وما قام به من المشروعات الهامة فى طول البلاد وعرضها فانا ندرك بلاعناء مبلغ ما اثقل به كاهل مصر من الديون والتى كانت تضاعف فوائدها ويذهب أكثرها الى ايدى الاجانب اصحاب المشروعات الجوفاء

وكان يستعين على ذلك بانجاز بعض اعماله من غير أن يدفع أجرها نقدا فيبقى دينا عليه (وهو مايسمى بالدين السائر) . ويقترض ديونا اخرى من الدول الاوربية لتسديد نفقات بعضها الآخر (وهذه تسمى ديون ثابتة) وكانت هذه لا تعطى الا بضمان مايسددها مثل تخصيص دخل بعد مصالح الحكومة لذلك والاموال الجبية من بعض المديريات فاذا ما تعذر عليه الحصول على بغيته لجأ الى أهل البلاد يجمع منهم طلبته سواء كان ذلك عن طريق زيادة الضرائب ام با قتراض ديون أهلية اخرى

ومما جمعه بهذه الطريقة المبالغ التى جباها بمقتضى قانون (المقابلة) اعد هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير (اسمـاعيل باشا صديق المفتش » الذي يعرفه كل فلاح عاش فى هذا الوقت . والذى كانت له المقدرة في جباية الضرائب من الفلاحين . ولما كثرت الديون الاوربية على مصر وأوشكت موارد الضمان التى يمكن تقديمها عنها أن تنفذ أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة . وما امكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة تفوق التصور . من ذلك أن اسماعيل باشا استقرض فى يونيو سنة ١٨٧٣ دينا قدره ٣٢ مليونا جنيها ليسدد به جميع الديون السائرة فلم يتمكن من عقد القرض الا فى مايو سنة ١٨٧٤ . وكان جميع ماوصل الى يد الحكومة من هذا الدين بالفعل بعد طرح جميع انواع النفقات والخصم والسمسرة يبلغ (٠٠٠ر٠٦٢ر٢٠) جنيها فقط . فضلا عن أن هذا المبلغ لم يدفع كله نقدا بل كان منه ٩ مليون جنيه من سندات الخزانة المصرية . فتكون الحكومة المصرية نظير حصولها على ١١ مليون جنيه نقدا قد زادت دينها بقدر ٢١ مليون حيث الفرق بين ٣٢ ، ١١ مليون جنيه .. ومع انه تعهد بعدم اقتراض شئ آخـر مدة سنتين فقد اشتدت به الحاجة الى المال فلجأ الي الاقتراض من الاهالى وهو مايعرف بدين الرزنامـة .

وفى سنة ١٨٧٥ ازدادت أزمة الخديوى المالية وصار يصدر سندات على خزائن الحكومة تقل كثيرا عن قيمتها الاسمية ثم عرض ماللحكومة المصرية من اسهم القناة للبيع وكان عددها (٦٠٢ر١٧٦) اشترتها الحكومة الانجليزيه بثمن بخس يقل عن ٤ مليون جنيه . وفى رمضان سنة ١٨٧٥ م حدث مايصح عده مبدأ التدخل الاجنبى فى

مصر . لان الخديوي طلب من الحكومة الانكليزيه أن تبعث اليه موظفا ذا المام بالشئون المالية ليساعده على اصلاح مالية مصر . فأرسلت (المستر كيف) وقدرت وقتها الديون المصرية جميعها بنحو (٩٠ مليون جنيه) وفي سنة ١٨٧٦ توقف الخديوى عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية فكان ذلك اليوم المبدأ الحقيقى للمشكلة المصرية ولتدخل أوروبا في شئون مصر . ولما زعرت دول أوروبا اهتم الخديوى بتأمينها على اموال رعاياها وأصدر أمرا فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ م بأنشاء لجنة تسمى (صندوق الدين)

واستمر الاضطراب المالى والفزع والفوضى الحكومية فى مصر كما ستقرأه في القصه الي أن عزل اسماعيل وخرج من مصر فى ٣٠ يونيوسنة ١٨٧٩ وأبحر من الاسكندرية على باخرته (المحروسة) الى إيطاليا

المعرب

الجزء الاول الفصل الاول

محادثات مالية

(تورط خبير مالى فى مشكلة غرامية)

كانت الساعه الخامسة ونصف من احد أيام شهر ينايرسنة ١٨٧٩ الماطرة.

وكان أظرف عضو بنادى السياح بلندن سابحا بفكره فى بحر خضم من الاحلام الهنيئة الشائقة متأملا فى حال ذلك الخلق المتدفق فى أرجاء «بال مال» Pall Mall

ولقد علت وجهه عبوسة مفزعة حينما اضطربت حلقات الدخان المتصاعدة بانتظام من سيكارته بدخول خادم النادى يحمل خطابا طالبا الاجابة عليه توا

ورغما مما أبداه السيد تشارلس جروسفنر Charles grosveor من قلة الاهتمام

فقد أتى بحركة عنيفة سقطت على أثرها بعض زجاجات الشمبانيا فبللت رسالة موضوعة أمامه على المنضدة

ولما قرأ الكتاب الذى بيده صاح

«وايمن الله ان ميلى Milly تلازمنى كالظل» ثم ابتسم

٢

ابتسامة يأس وتهم

«أرجو أن لاتخاطبني ميللي بعد الآن في أمر ذلك الضال»

ولكنه عاد فأذعن للواجب وعزم على اجابة دعوة شقيقته ميللي جروسفنر

لقد أتى على هـذا الرياضي المحنك حين من الدهر لم يرتبط فيه بأي رباط حتى ولا رابطة الزوجية

والآن وهو في الثامنة والثلاثين من عمره فهو لا يزال على عهده الاول يتمتع بقوة عضله وفرط ذكائه وصدق نظره وكان يشعر باحترام عظيم لذلك السياسي القدير «لورد ريكسهام» Wrexham والده المحترم المتغيب الآن في مهمة سياسية تختص بالقيصر. وكانت ذكرى المرحومة والدته مطبوعة على صفحات صـدره. أما تلك العواطف الشريفة السامية التي كان يشعر بها نحو معبودته فتاة «ريكنسهام هول» فلا تحتاج الي تبيان.

هذا كل ما يرتبط به في حياته الاجتماعية والعائلية

تنهد «جروسفنر» تنهداً عميقا وقال

«وحق السماء اني لحيوان أحمق! ربما كانت ميللي في حاجـة ماسة الي. أما كينيث فمسكين. ولقد شغلني كتاب أختي عن رسالته. خير لي أن أترك له مكتوبا لينتظرني في هذا الكلوب

«ان حدة الآلام والفزع صيرته في آخر أمره رجلا مغرما

مدلها . حقا انها لورطـة شاقة لخبير مالى . انه من المخجـل أن يقضى مثله زهرة شبابه مجهدا نفسه بين ملايين المرابين البريطانيين ولا يصيبه من ذلك الا العناء والنصب وذلك الأجر الضئيل ولو كان يملك مثقال ذرة من الحظ لكان هناك بعض الأمل فى غرامه الجديد . حقا ان الحب الصادق والخبرة المالية صنوان »

ثم أخـذ يستجمع شـتات أفكاره ويوفق بين الظروف المحيطة بكتاب أختـه ورسالة كينيث فكلاهما يطلب نجدته ومشورته . فركب عربته وقصد ملاقاة أخته . فقد أدرك بثاقب رأيه وحدة ذهنه أن الصلة بين الكتابين تنذر بالفضيحة اذا ظهر سر تلك المأساة الغرامية التى تركت أثرا خالدا بضفاف بحيرات سويسرا فى الصيف المنصرم

وبينما كانت المركبة تشق طريقها بين تلك الجموع المحتشدة قال فى نفسه

« وهاك أيضا ذلك العجوز المالى ذو القلب الصخرى البارد فهو يتعقب سرا « كينيث جريفث Kennith Gryffyth » وأخـذ يتردد على « بيت بنيامين وأولاده » منذ أسبوع

لربمـا كان جل غرضه اكتشاف أمر صـديقه فى الصيف الماضى على ضفاف البحيرات السويسرية

« فلو كشف هذا القزم الماكر أمرنا فلن يحجم عن نفى ابنته

الوحيدة كاثلين لورى Kathleen Lawrie » الى احدي معاقله الموحشة و بذا تنتهي هذه المأساة الغرامية وتقبر ذكراها الي الابد

« ولكن هل من الكرامة أن نترك كاثلين وحيدة دون معونتنا ؟ أن أباها يستدرجها ويستوضحها كل يوم أمر كينيث ومع علمنا بمبلغ تكتمها وحرصها فهى فى حاجة الى مساعدتنا السرية لانها لاتدرك الى أى حد بلغت معرفة أبيها بأمر غرامها

« ولكن هل البارونة على استعداد لمعونتنا ؟ »

وهنا لم يتمالك « شارلى جروسفنر » من أن يضحك من بلادته . لان « ايثيل هاركورت » التى كانت فى وقت ما مثالا للجمال البريطانى أصبحت الآن « مدام لابارون دى سانت نزير » « والآن فهى فخر بيت « لورد ريكسهام » . لقد كانت حياتها الاولى الزاهرة مثال الهدوء والطمأنينة حتى بعد وفاة زوجها الفارس الجميل الذى لقى حتفه في ميدان الشرف عند جرافلوت « أما وقد أصبحت ربة بيت ريكسهام فهى تقضى البقية من حياتها كالعروس الالمانية المتحجرة القلب التى لاتحتفظ بغير جمالها ولا تعنى بشيء فى الوجود بغير ملبسها وهندامها »

نزل شارلى من المركبة أمام قصر ريكسهام الفخم فاستقبلته شقيقته ميللى والدمع ينهمر من مآقيها وقالت

« آه ياشارلي ! أنت الوحيد الذى فى مقدوره نجدة « كاثلين »

فهل لك أن تساعدها ؟ فأجابها بعطف »

« سنتدبر الأمر . غير أني أخشى أن تكون هناك حادثة مشئومة لان كينيث فى حالة يأس وسيلاقيني بالنادى هذا المساء. فلنتعاهد على نجدة هذين المخلوقين البائسين »

جلس الاثنان فى ظل مظلة أنيقة وأخذت تقص عليه آلام تلك الروح المجهدة . روح كاثلين لورى الوريثة الوحيدة لجيمس لورى صاحب « بنك لورى المتيد» وصاحب الملايين العديدة والمصارف والمشاريع المالية العظيمة فى العالم

فأجابها شارلى

« عزيزتي ميللى أن من الرشد ان نواجه الحقائق مهما كان مبلغ قسوتها وتأثير صدمتها وكلنا نرجو من المولى أن يتم قران كينيث جريفث بكاثلين لورى . ولكنى أخشى أن يقع شيء من الغواية قبل بلوغ هذه الأمنية السامية . ولكن خبرينى عما أصاب كينيث المسكين فقد أصبح فى قبضة لورى ذلك العجوز الماكر

فأجابته ميللى

«أخشى أن يستعمل لورى نفوذه ويقصى كنيث من انجلترا . اذ من العجيب أن لورى كان يتجاهل وجود ابن عمه الوحيد كينيث فى لندن هذه الأعوام الطويلة والآن يتعقبه كما

يتعقب الصياد الفريسة

« لقد تركتني ميللى الان بعد أن أفضت الى بأن أباها يعطرها بالاسئلة من عدة أيام ويستعلم منها عن مبلغ معرفتها الشخصية لاخلاق كينيث وأحواله وكل مايختص بشئونه الاجتماعية الامر الذي لا يعن لفتاة مثلها مالم تكن هناك صلات وثيقة بينهما . ومن يدر ؟

« فربما كانت هناك ثارات عائلية قديمة لان كنيث رجل ذو حيثية ولوري لايزال يذكر محاسن «مارجورى لورى» والدة كنيث حيث قبرت من زمن بعيد فى كنيسة حقيرة فى مجاهل جبال ويلز الارجوانية

وكل ماأخافه اليوم أن يقف جيمس لوري على ماخفى من أمر ابنته كاثلين . وهو لن يتأخر وقتئذ من أقصائها الى أقصى مجاهل المعمورة . فجيمس لورى كان لا يود ذلك اليوم الذى رأى فيه ابن رجل كانت مزاياه العالية سببا فى حرمانه من معبودته الذهبية التى كان يقدسها »

وبينما كانت ميللى تكشف لاخيها عما يخالجها من الخوف والالم كان الآخر تجول بخاطره هواجس الريبة والشك فاجابها بحدة

«يجب أن نقف بجانب مدفعيتنا مستعدين مستبسلين .

والآن فاني سأذهب حيث كنيث بانتظارى فى النادي لكي أقف على رأيه أيضا . وحينئذ نتدبر الامر اذ ربما كانت المسألة ليست من الخطورة كما تتوهمين ولكن عليك بالحذر . فالبارونة كالحية الرقطاء جسم أملس ولسان مسموم أما الآن فهيا بنا للغذاء»

وهناك فى غرفة المائدة التقيا بالبارونه وجلس ثلاثتهم الى المائدة فاخذت تستعرض لهما البارونه شؤونها اليومية العادية بينما كان شارلس يحدق بها متمطشا الى تلك القامة الممتلئة والساعدين البلورين اللذين طالما خاباليه حينما كانا يجذفان فى مياه جراناتنا الهادئة . حقا ان هذا السيد مختلف الشؤون فكثيرا ما تخدعه الملاذ فيميل الى اللهو والمرح أما أخلاقه ونفسيته فورثها عن أسلافه النورمانديين الذين نظموا اسمى أغانى الحب ومثلوا رواياتهم تحت سماء هاستنج Hsting بعد انتهاء العشاء انصرف شارلس مذكرا شقيقته بان لا تفضي بشيء الى البارونه وذهب الى النادى حيث ينتظره كنيث جريفث ذلك الحبيب المدله . . . . دخل الغرفة فوجده بانتظاره وسيجارته فى فمه وعلى شفتيه ابتسامة الغبطة والجذل . فوقف مبهوتا مغتاظا فهو لم ير أمامه ذلك الفتى المعنى البائس بل الفى أمامه فتى تبدو عليه سيما بشائر الهناء والانشراح . ثم ضحك ضحكة شيطانية زادته حيرة وقال فى نفسه

« حقا إن هذا الاحمق قد فقد صوابه ووعيه »

ثم سقط الى مقعد كئيبا حزينا أكثر منه مغتاظا وصاح

« الان قل لى أيها الصديق الاحمق ماذا دهاك؟ »

فتمادى الشاب فى قهقهته وقدم لصاحبه رسالة وقال

« انظر ياصاح هذه الرسالة فقد سلمها الى رسول حال خروجي من بيت بنيامين والاولاده »

مر شارلس على الرسالة بسرعة البرق فوجدها باسم كنيث جريفث فصاح متلعثما « حقاأن التنين الداهية نهج منهجا سديدا ولكن حذار ياكنيث من الجريكيين الذين يحملون الهدايا الذهبية غير انى لن أحدثك بما عندى من الانباء حتى تجد حلا لهذا اللغز فاقرأ الرسالة ثانية »

فاجاب كنيث

« نحن كلانا فى ديجور من الظلام . فلقد كنت اتعقب ذلك الداهية من أيام عند ماحذرنى شريكنا الصغير « جلد شميد » منه وأخبرنى أن جيمس لورى ينقب عن ماضيّ من أسابيع حتى أنه أستخدم فى ذلك طريقة الاستعلام الخاصة ولقد علمت من « شركة التسجيل والتأمين » بأن استعلامات هامة أجريت عن كل علاقاتى . وكذلك وكلت « شركة التسجيل بكمبردج » بأمر هذه الاستعلامات »

لقد اصطبغ وجه شارلس بحمرة العجب والاستغراب حينما

اعاد له صديقه فحوى الرسالة وهذا نصها

« غرة ١٢ شارع بلجراف

لندن فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٩

«يقدم اليكم مستر جيمس لورى Games Laurie تحياته الخالصة ويرجوكم تشريفه بتناول الغذاء معه باكر الساعة السابعه وأن مستر كينيث جريفث ليولينا عظيم الشرف اذا بكر فى الحضور الساعة السادسة للمفاوضة تمهيديا وبصفة خاصة فى موضوع عملى ذى أهمية عظمى ارجو الرد حالا

الى كنييث جريفث ـ بنيامين وأولاده »

لم ينبث شارلس ببنت شفة حتى صفت أمامهما زجاجات الخمر والصودا وحينئذ قال

« ولدى كين !. الان فانى مطمئن عليك فان المكان الذى ستذهب اليه محترم ولست فى حاجة لأن تحمل سلاحا غير هذه العصى

«حقا لقد أزعجتني رسالتك حتى انى أسرعت الى ميللى لتدبر الامر . أمامس كاثلين فبها مابك من الحيرة والفزع . فوالدها من عدة أسابيع يحاول حملها على الاباحة بما تعلمه عن اخلاقك وأعمالك وعاداتك . فما هو شكل ذلك الرجل الجهنمي ؟ حدثنى فاني لم أره قط »

فطوى الشاب الكتاب وأجاب

« من الغريب أن جيمس لورى أقرب الناس الى . ولكنى لم أكلمه طول حياتى . غير أنى رأيت مئات من المرات هيكله الشامخ ووجهه الشاحب وعينيه الحادتين الزرقاويتين ولحيته المشعثة الناصعة البياض وحاجبيه العريضين الاحمرين . وغير ساعته وسلسلتها الذهبية لم أره يحمل أثرا من آثار النعيم والعزة والجاه. فهو ثعلب بشرى ينقب صامتا غير مؤمل من دنياه غير رواج تجارته المالية الرابحة . وهو محترم ومخيف معا ومحل اعجاب الكثيرين . ولكنه ليس محبوبا الا من ذوى المدالة القاسية الصارمة

«وهذا المد وذلك التيار اللذان يدفعان بجميع الاعمال الي شباكه يتحرى كان تحت تأثير منطق الحوادث البليغ فهذا المالى يرجع في أموره الى الماضي ويزن الحاضر ويتكهن بالمستقبل

«وأنى لا أعلم عنه شيئا سوى أنه يناهز السبعين وانه ظل اعزبا حتى وفاة والدى

« وأعلم أن أمى لم تقابله بعد ذلك . ولكن » وهنا ارخى الشاب بصره « أعرف أنه وصلها منه خطاب واحد فى لوزان ثم لم يتقابلا طول حياتهما »

فتنهد شارلس وقال

« أن فى الامر سرا يفوق العجب . اذ لابد من ثأر قديم هنالك (يا كين) . ولكن ربما وجدنا فى النهاية أن هذا البنكير لا يعلم من امرك مع ابنته شيئا فالطبيعة البشرية ملأى بالعجائب »

فاجاب كنيث « محالا »

فرد عليه جروسنفر بهدوء

« كلا ياولدى فالحياة مفعمة بالمفاجآت كما يقول الفلاسفة غير أنى سأحذر كاثلين بواسطة شقيقتى ميللى حتى تتجاهل أمرك كل الجهل . ولكن عاهدنى بأن لا ترى جمال كاثلين الرائع فى ذلك المساء الذهبى

« أن البنكير سيستخدمك فى بعض العابه المالية كفارس الميدان . فاذكر بانه لو كان فى غنى عن معونتك لما لجأ اليك فى فى أخريات أيامه . لان وجهك يذكره دائما بأبيك ذلك الرجل الذي سلبه معبودته الاولي . فجيمس لورى لم ينس ولن يعفو . فخيوط القدر معقدة وهو لن يفضى اليك بشىء من أمر الماضى

« ولكن أذكر بان سيكون هناك غيرك فمن وجودهم يمكنك الوقوف على السر فى أمر استدعائك . واذكر بان الذى دفعه الى طلبك ليست عاطفة الحب بل عاطفة المنفعة . فهى وحدها التى

جملته يشرك ألد أعدائه فى أسراره . فاذهب اليه وكن حكيما رزينا ومستعدا للطوارىء »

بينما كان شارلس يحدثه كان هذا يذرع الغرفة جيئة وذهابا وكل أفكاره متجهة نحو معبودته كاثلين ـ ومن الاغراق فى الوصف أن نذهب بعيدا فى وصف هذا الشاب . فلقد جمع بين أشرف السجايا البشرية وتربى فى أرقى الجامعات وخبر الحياة على صغر سنه بجولاته العديدة فى انحاء المعمورة كخبير مالى . ولم يكتف بدرس حالة العالم المالية بل درس كذلك الاقتصادية والاخلاقية والاجتماعية والدينية . وأن أكبر عامل دفع به الى ارتياد البلاد وتجشم الصعاب هو ذلك الحب الطاهر الذى تبادله مع كاثلين لورى على ضفاف بحيرة لوزان . فمن ذاك الحين بدأ يدب فى عروقه دبيب النشاط والعمل والحياة المعنوية ـ تابع جزوسفنر حديثه وسأل

« دع من مخيلتك صورة كاثلين الآن واجبنى بماذا رددت على ذلك العجوز الماكر ؟ » فتردد كينيث قليلا وأجاب

« طبعا أجبته بالقبول »

فأجاب شارلس « حسنا فعلت . ولكنى أراهنك بأنك لن ترى شبح امرأة فى قصر ذلك البنكير . وجوابك اليه سيجعله يخفى ذكر ابنته من الحديث . ولقد تيسر لى أن أستنتج من

حديث أختى ميللى بان الذى يرجوه منك ذلك المخادع هو رحلة طويلة خارج انجلترا وجل غرضه أن تبدى اليه معلوماتك الاجتماعية وخبرتك المالية . فأمامك الان ميدان فسيح لاظهار براعتك ومقدرتك المالية » فهز كينيث كتفيه وقال

« أخشى أن تكون هناك مكيدة مدبرة فهذا الداهية ممن يذكرون الماضى دائما »

فأجاب جروسفنر

« ألا يمكنك أن تتحرى الحقيقة من بيت بنيامين وولده؟»

فتنهد كينيث

« واه ياشارلس . لا يمكنك تقدير تلك العروة الوثقى التي توثق أدمغة كبار ذلك البيت . المالى العظيم . فقاعدتهم الثابتة أن يلقوا على عاتقي تبعة كل عمل يكلون أمره الى . وكبار هذا البيت المالى مرتبطون مع بعضهم برابطة القرابة والثقة المتبادلة وليس فى بيت بنيامين من يولى ثقته ويجرأ على الافضاء بكلمة واحدة لأحد موظفى البنك

« ومن تقاليد هذا البيت استخدام أكبر مساهميه في برلين وفرنكفورت وباريس وامستردام ولندن ونيويورك فى انجاز أموره الدقيقة الهامة حتى لا يمكن اذاعة أسراره . ومن هذا يمكنك أن تدرك مبلغ حرص القوم ومبلغ تكتمهم

« ومع أنهم يدفعون لي أجرا عاليا ويضاعفونه كل حين فهم لا يعهدون الى بأية مسألة اجتماعية أو يذكرون لى أية كلمة ليست ضرورية فى مهنتى المالية . ولذا لا تمكنى المخاطرة بسؤال ما . فلست الا آلة صماء تتحرك وتؤدى وظيفتها بجد وانتظام دون أن تتكلم . آلة ثمينة تكلفهم غاليا »

فاستفهم جروسفنر

« تقول بأن جيمس لوري كان يتردد كثيرا على بيت بنيامين وولده فهلا يوجد من بين رءوس هذا البيت ممن كان يفضى اليه بأسراره من تربطك به مودة خاصة ؟ »

فأجاب

« كلا . ولكن كثرة تردده جعلت ميللي تكتب لى مستعلمة عن سر ذلك . اذ من القواعد الثابتة المألوفة أن لورى لا يتجول الا فى المراعى المالية الخصيبة . فهناك يجتمع بمن على شاكلته حيث توجد القروض الكبيرة والمبادلات الهائلة والمبالغ الطائلة فيقبضون على ناصية الاسواق المالية ويصيبون ربحا زهيدا ولكنه محققا

« فكل المسائل المالية التى حققتها وفحصتها لهم عادت عليهم بأعظم الارباح . وكثير من البيوت المالية تؤسس فترتبك ثم تتدهور الى وهدة الافلاس فيقوم آل بنيامين ومعهم رءوس

أموالهم وخزائنهم المالية العظيمة ويبنون على انقاض هذه البيوتات والمشروعات هياكل عتيدة ثابتة على قواعد مطمئنة راسخة »

فألقي جروسفنر سيجارته وقال

« أدركت الآن السر . اذ لابد من أن هناك أمراً هاما جمل هذين البيتين يتحدان من أجله . وجيمس لورى عزم على أن يتأكد بنفسه من صفاتك ومقدرتك ومواهبك . وربما استعارك لهذا الامر من رؤسائك ذوى الادمغه الرزينة الحكيمة وبما أنك خبير مالى فستكون كالكاهن الاعظم للعجل الذهبي فى ديانة الحسابات والارقام

« وجيمس لورى يعرف بأنك شاب أعزب قدير جد الخبيرة بأحوال العالم . وأؤكد لك أنه اذا تجاهل كل صلاتك الآن فانما ليدفع بك في مهمة مادية عويصة ثم يفضى اليك بالحقيقة فى النهاية

« أما مهمتي فهى السهر على ميللي وكاثلين وحراستهما . وباكر بعد الغذاء سأطلب من ميللى أن تأتى بكاثلين ونذهب جميعا الى مكان منفرد حيث تمتع طرفك منها المرة الاخيرة »

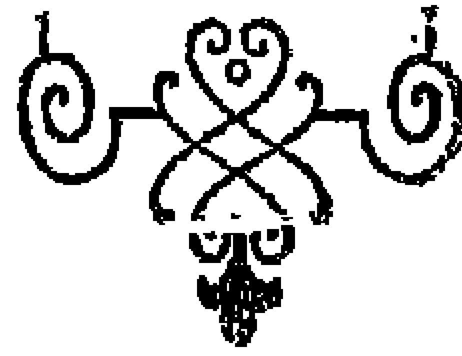
فرد الشاب بتلهف

« واذا كانت كاثلين موجودة اليوم مع ابيها وقت الغذاء؟ »

فاجاب جروسفتر

« اذن يتعين عليك أن تكون حكيما وان يتجاهل كلا منكما الآخر »

...... ثم أخذ الصديقان يعيدان ذكري الماضي الهنيئة بين البحيرات السويسرية الجميلة



الفصل الثاني

«صاحب السعادة مصطفى باشا فهمى (١) — مفاوضات مالية خطيرة — قروض الخديوى اسماعيل»

كان جيمس لورى ذلك المالى المظيم جالسا الى مكتبه يدخن سيجارته وغارقا فى بحر من تأملاته المالية العويصة حينما دقت الساعة السادسة ونصف

(١) مصطفى باشا فهمى هو والد صاحبة العصمة حرم صاحب الدولة زغلول باشا وكان المفوض الخارجي للقروض المالية التى اقترضها الخديوي اسماعيل وكانمربى البرنس فؤاد «جلالة الملك فؤاد الاول» في عهد صباه بلندن وكان يصحبه أثناء هذه الحوادث بلندن وأتى يوم كان فيه وزير لمصر ولعب دورا خطيرا فى مأساتها وسياستها وقد كان رئيس النظار حتى وفاة الخديوى توفيق باشا سنة ١٨٩٢ وكذلك فى مبدأ تولية الخديوى عباس حلمى الثانى وأقيل من الرئاسة فى ١٥ يناير سنة ٩٣ وعين نخرى باشا مكانه

ولقد كان المصريون يعتبرونه انكليزيا أكثر منه مصريا لشدة تعلقه بالانكليز وعطفه على الموظفين البريطانيين

وفى أثناء تغيب لورد كرومر عن مصر فى سنة ١٨٩٢ كتب اليه السر أرثور هاردنج الذى حل مقامه أثناء تغيبه

« لقد شكا لى الخديوى من مصطفى فهمى باشا وقال أن المصريين يعتبرونه انكليزيا فوق اللازم أكثر منه وطنيا »

هنالك استدار بكرسيه وواجه ضيفه الذى كان يرتقى درج السلم وقال ببرود وتؤدة

« كنت واثقا من حضورك . والآن فانى محدثك بأمر هام فلقد كنت اليوم فى مباحثة طويلة مع بيتكم بشأنه . لان أمامنا فرصة على جانب عظيم من الخطورة ربما أدت الى اتحاد البيتين وأقدامهما على عمل مالى خطير مشترك

« وسيأتى الآن ضيف غيرك . وما قصدت بهذه المقابلة الا لتسمع بأذنيك آراءه وأغراضه يسردها شخصيا أمامك . وحقا فانى استعرتك لهذا الامر من بيت بنيامين وولده . فلقد سمعت كثيرا عن أخلاقك ومواهبك . وعلمت الكثير عن عاداتك

وجاء فى كتاب Abbas II عباس الثانى بقلم السير ايفلين بيرنج (لورد كرومر)

« لقد اختار المتعنتون من الوطنيين مصطفى فهمى باشا هدفا لسهام انتقاداتهم . فلم يكد يرجع من أوروبا فى أوائل اكتوبر حتى انهالت الاشاعات بأنه سيحدث تغييرا فى الوزارة المصرية لصالح الانكليز »

وفى أواخر ديسمبر سنة ٩٢ أصيب فهمى باشا باحتقان في الرئتين فأرسل اللورد كرومر فى ٢٩ منه الي اللورد روزبري يستشيره فى تعيين رياض باشا خلفا له . ولكن شدة كره الخديوى لهذا عين فخرى باشا خلفا لفهمي باشا الذي أقيل فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ كما اسلفنا

ولقد أشيع عن فهمى باشا أنه قال وقتئذ حينما الح عليه بالاستقالة رسول الخديوي عباس

الشخصية وانك لم ترتبط برباط عائلى بعد

« وكل مايجب عليك الآن ان تذكر كل حديث يدور بينى وبين هذا الضيف العظيم . فسأستدرجه أمامك حتى تقف على مبلغ أغراضه ونهاية مراميه

« ورجائي الوحيد أن يكون هذا الامر بيننا موضع التكتم وأن تكون أهلا لثقتى اذ ربما عادت عليك هذه المسألة بأعظم النعم وأطيب الثمرات

« واما واجبك الآن فهو أن لاتذكر شيئاً مما ستسمعه لأى مخلوق حى . فأموريتك ربما أثرت على مصالح أوروبا جمعاء. وربما

« خير للخديوى أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يقرر أمراً فاصلا » فقامت على أثر ذلك ضجة الوطنيين الحانقين الساخطين ولم يجد المصريون فى قاموس اللغة ألفاظا تفى بتشديد النكير على فهمى باشا وأخذوا يرمونه بخيانة مولاه الخديوى ووطنه ووهن عزيمته وتراءى لهم أن عقاب العزل أقل ما يستحقه وزير خائن مثله

ولقد قال اللورد كرومر أيضا

« وعلى أثر هذه الحملة صدر الامر بعزل فهمى باشا وعزل معه وزيرا المالية والحقانية وكان ذنبهما الوحيد أنهما على وفاق قلبى مع الموظفين البريطانيين الملحقين بنظارتيهما (؟؟!) »

وفى ربيع سنة ٩٤ عين فهمى باشا وزيرا للحربية ثم أسند اليه منصب رئاسة النظار فى خريف سنة ١٨٩٥ (المعرب)

كان تأثيرها على مصالح الحكومة البريطانية أعظم . فهل لك ان تعاهدني على الكتمان ؟ »

فأجاب الشاب بسكينة وتؤدة بينما كان البنكير يرمقه بحدة حتى يستطلع خفايا ضميره ونواياه

« أراني لست متأكدا مما اذا كان قد حان الوقت الذى يحق لك فيه أن تسألني عهدا أجهل عقباه »

فصوب اليه البنكير نظره الحاد البراق وسأله

« هل زرت مصر ؟ »

فتبسم كينيث وأجاب

«كلا ولكنى قضيت ثلاث سنوات فى تركيا والاناضول وكنت على اتصال بعاليات السكك الحديدية ومناجم الحديد وشركات التأمين الانكليزية كما أنى جد الخبيرة بجميع العادات الاسلامية »

فأجاب جيمس لورى

« مرحى ! هذا جل ما أطلبه منك . والآن فسنبدأ أول مناوشة مع العدو تحت لواء السلم . وقبل ان تترك هذا المكان سأفضى اليك بدقائق سرنا . أما ضيفنا العظيم فسيبرح البيت قبلك ووقتئذ فلك الخيار والحرية المطلقة فى ان ترتبط معنا بعهد أم لا . على أنى أرجوا أن يكون هذا سرا بيننا »

فصمت كينيث وأتى بحركة تدل على رغبة اعفائه من هذا العهد . اما المالى فتابع حديثه

« حسنا . انى أحب منك هذا العناد ـ اما شركتكم فستلاحظ عليك سلوكك فيها بعد. وانى أرى فى وجهك علامات البشر مما يدل على انك ذو مواهب نادرة »

وفى هذه اللحظة ظهر الخادم من الباب المزدوج وانحنى وقال

« صاحب السعاده مصطفى باشا فهمى ! »

فابتسم كينيث جريفث لانه تخلص باعجوبة من عهد سرى كان له ان يقطعه على نفسه سلفاً دون أن يعلم عن حقيقته شيئا وذهب الى الحائط يتأمل فى صورة من عمل «جون لو»

وفى ذلك الوقت دخل القادم الانيق بشكل مهيب وحيا برفع يده الى جبينه بكل وقار واحتشام

كان سعادة الباشا يرتدى (فراك) ويزين جبينه ذلك الطربوش الارجواني الذى يزيده مهابة وجلالا ويظهر تقاطيع وجهه الشرقى فى أجلى مظهر

اما الشاب فرغما من تظاهره بمشاهدة الصورة فكان يفكر فى محبوبته كاثلين وقال في نفسه « لقد صدق شارلس . فالمنفعة الشخصية لا العاطفة القلبية هى التى حدت بهذا البنكير الى التقرب منى »

أما جيمس لورى فهمس فى أذن الباشا عندما أدرك انه لمح الشاب معهما فى الغرفة « نسيت أن أقول لك بانا سنتحادث بالالمانيه أو الفرنسية أو الطليانية وهذا الشاب يجيدها كما اعلم انك تجيدها ايضا لانى أخاف أن يسمع الخدم حديثنا وان كنت فى مأمن من خيانتهم »

.... كانت المائدة معدة لثلاثة اشخاص فقط. فانسل الشاب الى مقعده وتنهد تنهد الاطمئنان لخلاصه من ورطته الغرامية. واذا كان لم يربح شيئا فهو لم يخسر شيئا. وقد لحظ اشارة خفية من البنكير بأن يعى فى ذاكرته كل مايدور بينه وبين الباشا من الحديث مع تظاهره بالصمت وعدم الاكتراث اما ذلك الضيف فلم يلتفت بنظره ولو مرة الى الشاب وكان لايزال لابسا طربوشه المصرى وكانت المائدة ملأى بزجاجات الشمبانيا وصفت على طولها الطباق الفاخرة ويقوم بخدمة ثلاثتهم أربعة من الخدم. فتمتم كينيث جريفث فى نفسه « من يكون هذا الداهية المصرى وحقا ان المرابى العجوز أدهى وأمر »

ثم أخذت تجول بخاطره افكار متناقضة « نحن الآن فى عرين السبع » لان المرابى لم يلمع بطول وقته الى الرابطة العائلية « حمدا لله فمهما كان مبلغ السر الذى يحفظه جيمس لورى فى صدره فهو لايزال على جهل بعلاقتى مع ابنته التى ابتدأت فى ظلال تلال

الجورا فى الصيف الماضى » ثم أنتقل بأفكاره الى ضفاف البوسفور حيث ذكرته رؤية الباشا المصرى باحوال أولئك المسلمين الظرفاء وأخذ يرقب ذلك الكفاح الهائل بين مواهب هذين الرجلين العتيدين جيمس نوري المالى الشهير ومصطفى فهمي باشا السياسى الداهية

ابتدأ الطعام بكل جلال ولقد أدهش الشاب كثرة الطباق وتنوع الطعام

ثم لاحظ بأن الدين الاسلامى وان كان يحرم على الباشا نبيذ شيراز إلا أن هناك أصنافا أخرى لاتدخل ضمن محرمات محمد (صلعم) لانها لم يكن لها وجود فى عهد زوج عائشة الصارم

أما الرجلان فاخذا ينتقلان من حديث الى حديث فن الحالة الاجتماعية الى السياسية فالدولية فالمنافع التجارية فالمالية . وسرعان مالاحظ الشاب بان هذا المسلم الاريستوقراطى على قسط وافر من الدهاء والمقدرة وانه يحسن الاكل بالشوكة والسكين وأن له مسكنا خاصا فى (بور تلند سكوير) وهكذا أخذ يدرس الباشا بامعان وقال فى نفسه

« ليس فهمى باشا من سلالة تركية محضة بل يغلب فيه الدم العربي المصرى »

كل هذا والباشا يتجاهل وجود الشاب بحضرتهما بينما كان

يقص علي البنكير حوادث ممتعة عن مصر ويصف له أعياد الخديوى اسماعيل فى حفلة افتتاح قناة السويس سنة ٦٩(١) وتذكاراته عن ذلك المجد الكاذب لقصر التويلري فى عهد (لويس نابليون) وتلك الفاتنة أوجين. وعلم الشاب بأن الباشا تعلم في فرنسا ولكنه يقيم الان في انجلترا من سنين. وهكذا أخذ ينتقل الباشا مخادعا من حديث الى آخر حتى انتهى الطعام فقال الشاب فى نفسه

« بأية معجزة يقع هذا المصرى المتفرنج Franco--Egyptian فى شباك العم جيمس لورى؟ »... ولما انتهوا من الطعام انتقل ثلاثتهم الى غرفه فخمة مجاورة وأومأ البنكير الى خدمه بالانصراف فاصبحوا على انفراد

لحظ الشاب فخامة الغرفة ومحتوياتها الجميلة فقال فى نفسه

« ان جيمس لوري الخبيث أدرك بأن المسلم يبهره كل مصقول لامع متبعاً فى ذلك خطوات الحكومة البريطانية فى تأثيرها على الخديوى اسماعيل »

وهنا بدأ لورى حديثه المنشود

« نحن على استعداد ياسعادة الباشا لأن نولينا ثقتك ! »

فتظاهر الباشا بأنه لاحظ لاول مرة وجود الشاب معهما وأجاب

---

(١) بلغ ما انفقه اسماعيل فى حفلة افتتاح القناة ١٫٤٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات

«أن المسألة على جانب عظيم من الخطورة» ثم أشار بيد تتلألأ بالجواهر «ومن يكون هذا الشاب؟»

فاجاب لورى بأنفة وكبرياء

«أنه بيننا يمثل القوة الرأسمالية التي يدور عليها محور حديثنا وحينما يتم الاتفاق بيننا سيكون هو الكل في الكل»

فهز الباشا كتفيه باشمئزاز وقد بانت على وجهه ملامح اليأس والقنوط وقال «ظننت أني سأفاوض (دافيد هارت) شخصياً»

تذكر كينيث اسم «دافيد هارت» العضو فى البرلمان ذى الشخصية البارزة والذى أصلح بمهارته ومقدرته فى العالم المالي مالية تلك الامبراطورية البريطانية الواسعة والتى اذاقورنت بها فتوحات وليم الفاتح كانت لها بمثابة حديقة للصيد والقنص وفى ظل ذلك الدخان المتصاعد من سجائرهم كانت تبدو للشاب أشباح متناقضة وأخيرا ظهر له شبح حبيبته كاثاين فتلاشى من فؤاده ذلك الالم بالاحتقار والاستخفاف اللذين كان يبديهما نحوه فهمى باشا. ثم جعل يتفرس فى وجه لورى الداهية وقد بانت عليه سيماء العظمة والجبروت وأخذ ينصت بدهشة عظيمة الى حديث الاثنين كما كان «مكبث» ينصت الى نصائح السعالى (١)

---

(١) مكبث اسم رواية تمثيلية تأليف شكسبير بطلها مكبث أضلته السعالى بنصائحهن الخادعة الكاذبة فخالف طبيعته وخان مولاه وقتله ليتولي الملك بعده

وهنا أجاب لورى بكل برود وتؤدة

« تعلمون سعادتكم حق العلم أن الغاية من هذه المقابلة هو تمكينكم من الحصول على السلطة الشخصية المباشرة من مولاكم الخديوى لاجراء مفاوضات تحضيرية . ولقد طلب منا مولاكم رسميا انتداب وكيل مفوض يكون موضع ثقتنا وارساله الى مصر تحت حمايته الملوكية الخاصة وحراسته . فاذا وافقتم على المفاوضة فسأرسل فى طلب شريكى « دافيد هارت » لمقابلتك بعد ذلك . وبغير هذا ليس ثمت من مفاوضة أو مال .

« ولكى أبرهن لك على مبلغ وحدتنا فى العمل فأنك لو قابلت دافيد هارت فليس أمامه من سبيل سوى إحالتك علينا . وحينئذ نبدأ كل شيء من جديد . واذ كربانه فى كل لحظة سيكون هـذا الشاب بحضرتنا . فأذا أبيتم علينا المفاوضة فكل مسئولية تنجم من تأخيرها أو حبوطها تقع عليكم شخصيا . أما دافيد هارت فستراه فقط متى أبنت لنا كل شيء »

فأجاب فهمى باشا باباء وشمم ورمق الفتى بازدراء ونفور

« ربما وفقت للحصول على الأوامر المباشرة من دافيد هارت لشرح كل مهمتى قبل هذه المفاوضة »

فأجاب المليونير

« حسنا ياصاحب السعادة ! اذن فسنبرق لمولاك برفض

دافيد هارت المفاوضة فتضيع عليه كل الفوائد العظيمة التى تتمثل فى شخصى وذلك الرأسمال الهائل الذى يسيطر عليه هذا الشاب وربما كانت النتيجة المنطقية لذلك هى التعجيل فى خراب مولاك وهذا أمر بلا ريب سيؤدى الى استدعائك حالا الى مصر لاستجوابك عن سبب عدم اطاعة أوامر مولاك الجلية ؟ »

ولما سكت لورى عن الكلام بدت على الباشا أمارات الرعب والفزع واصطبغ وجهه بحمرة زرقاء . ففكر الشاب «لقد قلل الباشا من حدته . فهل يخاف لفحة الكرباج Koorbash أو مجاهل السودان الموحشة وويلاته ام تلك الحراب الحبشية أو مشانق الخرطوم أو حميات النيل الابيض ؟» . ولقد تلعثم الباشا وأخرج من صدره غلافا من القطيفة القرمزية المذهبة وانتزع منه مستندا قبله باحترام وقدمه للمليونير وقال

«انى أعتبرك مسئولا عما يصيبنى من مكروه فى المستقبل . وها هو توقيع صاحب الفخامة اسماعيل باشا . «اسماعيل باشا خديوى مصر »

فتناول المليونير المستند وقرأه وأجاب

«سأحتفظ بهذا كضمان لنا على المفاوضة معك . وسأعطيك عنه بالاشتراك مع دافيد هارت غدا ايصالا . أما وكيلنا المفوض فسيسافر فى ظرف أسبوع الى مصر ودافيد هارت سيكون هنا

غدا بعد أن تبوح لى بكل ما عندك من التعليمات السرية . وبذا يمكنك أن تبرق غدا لمولاك بالجفرى بقيام وكيلنا المفوض الى مصر».

فسأل الباشا بتلهف «هل لى أن أقابله ؟»

فأجاب لورى بيرود

« لأى غرض ؟ سأقوم بالاشتراك مع دافيد هارت بمفاوضتك . أما وكيلنا فسيعمل سرا فى عاصمة النيل . وانت تعلم حق العلم بأن كل تدخل رسمى من جانب حكومتى فرنسا وانجلترا سيقضى على آخر أمل لكم فى النجاح وينهى مهمتنا فى الحال كما يؤدي الى انقلاب رهيب فى المسألة المصرية . فهناك ألف عين ترمقنا وتتجسس علينا »

ومع أن خبرة كينيث جريفث صيرته رجلا محنكا قديرا فقد شعر بالحاجة العظيمة الى المزيد منها حينما قرأ سطور التفويض الرسمى القليلة وموقعا عليها (اسماعيل) ومختوما بالطابع العربى لخليفة (سيزر وستريس) فى مصر

فالموقع على المستند هو الوارث لقامبيس والاسكندر وأنتونى وكليوباتره وقيصر ونابليون الاكبر ثم محمد على القدام الذى سما كوكبه فى أفق الشرق فى ذلك العام الذي سطع فيه نجم نابليون الكورسيكي وقاهره ولنجتون سنة ١٧٦٩

لقد كانت هذه السطور على قلتها تفويضا رسميا من الخديوى

اسماعيـل لفهمي باشـا بالاتفاق مع جيمس لوري ودافيد هارت وشركائهما. وهي تعطي عهداً من الخديوى بحمايته الشخصية لأى مفوض من قبلهم يتفـاوض مع الخديوى بنفسه . وعلى الوكيل متى وطـأ أرض مصر أن يذهب توا الى القنصـلية الايطـالية بالاسـكندرية حيث سيكون هناك فى انتظاره ضابط أمين يأتي به الى القاهرة فى ضيـافة اسماعيل وحمايته . وهنا فكر الشـاب « هل الخديوى بهـذه الدعوة المستعجـلة يفـكر فى دفع ذهب أو اقتراض ذهب ؟

« ان الضجة الوحيـدة الآن فى مصر هى « مفيش فلوس Mafees Filoos » فهذه النغمة ترجع فى كوخ الفلاح كما تردد فى قصور بولاق الفخمة »

بعد هنيهة استجمع فيها فهمي باشا شتات افكاره بدأ حديثه المحزن عن مصر بصوت متهدج به رنة الأسف والكآبة

«ان الالتزامات التى قطعها سعيد باشا لشركة القنال وازدياد نفوذ ذلك الفرنسي الكبير دلسبس De Lesseps مكنت مولاى الخديوى من أن يكون على صلات وثيقة مع نابليون الثالث

« وان مدافع « سيـدان » كانت قاضية على آمال مولاى اسماعيل كهزيمة نابليون عند « عكا » سنة ١٧٩٩ حيث عجل عدوه الصغير «فيلبوسير سدنى سميث» فى تغيير مستقبل مصر . وفى

ذلك الحين كانت يدانجلترا الحديدية السبب المباشر لهذا التغيير »
ثم تنهد الباشا وتابع حديثه المحزن

«ان قبض السلطان على أسطول الخديوى الذي أنشىء سرا سنة ٦٩ جعل أكبر أنجال ابراهيم باشامروة ثانية عند قدمى انجلترا. لان عمل السلطان كان بتحريض من انجلترا سرا

« فالوارث الشرعي لعرش مصر ثم خديويها فى سنة ١٨٦٦ وجد نفسه فى سنة ١٨٧٩ محروم عليه إرسال معتمدين خارجيين أوعقد أية معـاهدة . وهكذا عادت يد انجلترا الحديدية تحرك عروسها البكماء البليدة « السلطان »

«أما الجيش المصرى الذى بلغ عدده مائتى الف جندى وصار على أتم استعداد وأحسن تدريب بفضل الضباط الامريكيين الخمسة وعشرين (—سنة ٦٩—) متى خفض الى ثمانية عشر الفـ جندي ـ فان فتوح (سير صمويل بيكر) (وغردون باشا) و (ابراهيم باشا) ستضيع على مصر الي الابد وفى هذا خرابنا

« ولقد حدثتك أثناء مفاوضتنا فى الشهر الفائت بان مولاى اسماعيل بعد أن أخرج للعالم ذلك الطريق المائى الصناعى وهو قناة السويس وبعد أن صرف في سبيله خمسمائة مليونا امتصت من دماء الفلاحين المساكين وثلثمائة مليونا التى اقترضها فى الستة عشر سنة التى حكمها وجد نفسه فى النهاية مسوقا الى الهاوية تحت

رحمة مدافع الاسطول البريطاني

« فلقد أضرت به مبدئيافرنسا في مشروع القنال . وبعدها جاء دزرائيلي فاغتصب من يده المائة وسبعين سهما في شركة القنال نظير مبلغ زهيد لا نزيد علي العشرين مليون (سترلنج) وحتى هذا المبلغ الضئيل فقد ذهب الى يد الدائنين(١) . والآن فان انجلترا الجبارة ترقب ببرود وجذل عذاب فريستها المجهدة والحظ يتوقف على الفرص

---

(١) في سنة ١٨٥٨ فتح دلسبس باب الاشتراك في شراء أسهم قناة الشركة فقدر رأس مالها بمبلغ ٢٠٠ مليون فرنك وهو مكون من (٤٠٠) الف سهم ثمن السهم (٥٠٠) فرنك

اشترت مصر من ذلك ٨٥٫٥٠٦ سهما وقتئذ اما انجلترا فاحجمت حينئذ عن شراء شيء منهسا . ثم صار مجموع مالمصر ١٧٦٫٦٠٢ سهما تقريبا اشترتها انجلترا من اسماعيل باشا بمشورة اللورد بيكنسفيلد بمبلغ ٤ مليون جنيه تقريبا

وبلغ مقدار ما أنفق على حفلة القنال ١٫٤٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات وكذلك مبلغ ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ غرامة حكمت بها لجنة التحكيم الذى عينها نابليون الثالث ودفعت في سنة ١٨٦٩

ولقدبلغت نفقات القناة كما هومقيد بدفاتر الشركة ١٧ مليون ونصف مليون جنيه دفعت منها مصر في عهدى سعيد باشا واسماعيل باشا ١٦ مليون جنيها

هذا خلاف أعمال السخرة اذ كان عدد العمال المصريين الذين

« فانجلترا بواسطة أسطولها العتيد ستستخدم (قبرص) كقاعدة حربية قوية ثم تعمل على تخويف فرنسا وتهديدها وخداع الدول العظمى (١). ثم تعمل على اخراج الخديوى اسماعيل من مصر. إلا !!»

فسأل لورى بخشونة « الا ماذا ؟ »

فاجاب الباشا برزانة وهدوء

« الا اذا كان دافيد هارت باشترا كه معكم شخصياً ومع ما تملكونه من المال العظيم تعملان على توحيد الدين المصرى وتنقذان مولاى الخديوى من قبضة آل روتشيلد الذين هم فى الحقيقة صنائع (دزرائيلى) فى هيمنته على طريق القناة

« فنرغب اليكم أن تعملا بما لكما من النفوذ وما عندكما من المال على تخفيض الفوائد السنوية لهذه القروض وبهذا تنقذان أملاك الخديوى الخاصة من الضياع وعرشه من السقوط

« لا ريب أن فى هذا الامر مشقة كبرى لكم. ولكن

يشتغلون مبدئيا فى حفرها لا يقل عن ٢٥ الف (بدون أجرة) وينوب عنهم مثلهم كل ثلاثة شهور وكانوا يعيشون على الشظف ويموتون جوعا وعطشا ومات الكثير منهم من حر الصيف وقر الشتاء ومن نومهم فى العراء واجهاد الجسم وشدة البؤس

(١) وفعلا ضمت قبرص لممتلكاتها المعرب

واجب الشرف والانسانية بل ومنفعتكم تحتم عليكم ذلك »

وهنا تنهد الباشا وتابع حديثه

« لما عهد الى مولاي الخديوى بتربية ابنه محمد باشا فى (سان كير St cyr) وسمو فؤاد باشا (جلالة الملك فؤاد الاول) الذي يقيم معى الآن فى بورتلند سكوير عهد كذلك بأمر ابنه الثالث الامير حسين (المغفور له السلطان حسين كامل الاول) الى نفوذ البلاط الالمانى .

« أما البرنس توفيق (المغفور له توفيق باشا الخديوى أخ جلالة الملك فؤاد الاول ووالد سمو الخديوى السابق عباس حلمى باشا) والبرنس حسن (١) فقد أبقاهما فى مصر ليكونا له عونا على مقاومة ذلك الكفاح السرى بين (نوبار باشا) و (شريف باشا)

فنظر جيمس لورى الي كينيث وسأل مستفهماً

« ألم يكن فى الامكان وضع حد لهذا الصراع الناشب بين الوزيرين ؟ »

فتنهد الباشا وقال : —

« وآسفاه ! . أن نوبار باشا مسيحى أرمنى مصلح هزلي فهو صنيعة (ايرل أف بيكنسفيلد Earl of Beaconsfield)

---

(١) هو الذى رافق راتب باشا فى حملة الحبشة وثالث انجال اسماعيل باشا

الذى يدعوه رجلا سياسياقديراً . فاليه يرجع السر فى وجود (سير صمويل بيكر) و (غردون باشا) والمحاكم المختلطة ووضع المالية المصرية من سنة ٧٦ تحت الرقابة الاوربية ثم تعميم خطوط السكك الحديدية ومد الاسلاك البرقية مما سيساعد انجلترا فى النهاية على تكوين اتحاد عند خط الاستواء يربط المستعمرات البريطانية ببعضها مبتدئا من الشاطىء الغربي لافريقيا ورأس الرجاء الصالح الى داخل السودان . ولن تمر خمس وعشرون سنة حتى تصبح الخرطوم محطة رئيسية لسياح (شركة كوك) . أما فنادق (غردون) و (لندن تيمس) وغيرها فستجتمع فيها كل المظاهر المحلية فى السودان »

فتمتم لورى

« فليكن الامر كذلك فهنالك تنتشر مدنية الأنجلوسكسون والتجارة البريطانية ويعظم أمر ارساليات الاصلاح ! »

فاجاب الباشا بمرارة

« دعنا من هذه التمويهات الكاذبة والأماني الخلابة فلقد عرفنا مصير أمراء الهند . واني شديد الارتياب فى مقاصد انجلترا ولا أصدق بأنها انما تبغى الحصول على العاج وتبر الذهب وريش النعام نظير تقديمها مصنوعات (منشستر) وحدايد (برمنجهام) . فليس الامر أمر مبادلة تجارية بل هى تعمل على بث روح التمرد والفتنة اكثر من عملها على نشر تعاليم الأنجيل »

فاجاب جيمس لورى ببرود

« لقد كان لكم أن تتمتعوا الآن « بامبراطورية خليعة الافرنسيه » على أية حالة لو لم يقوض « فون ملتكه (١) » العنيد عرش لويس نابليون من أساسه ! »

فاجات فهمي باشا ببساطة

« أجل . فان مزاج نابليون الثالث ربما وافق نفسيتنا المحبة للهو وعيشة البذخ والنعيم كما تزعمون . واذكر بأن أبا الهول له صدر حنون كصدر المرأة يتحرك لكل عاطفة . والفرنسيس ربما تركوا فينا أخيراً شيئا من الرمق . أما يد انجلترا القاسية فلن تبقى على شيء من فريستها

« فاسبيك » و « ليفنجستون » و « برتون » و « جرانت » و « صمويل بيكر » وحتى « غردون باشا » كلهم إما صنائع انجلترا أو آلات صماء تعمل لحسابها

« وفى كل هذا المناورات البسيطة التى يدبر أمرها الأسد البريطاني يقوم نوبار باشا بمشاكسة الخديوى اسماعيل . ولهذا ترى الفلاح أو جماعة المصريين الوطنيين يتبعون « صديق باشا المفتش »

---

(١) فون ملتكه هو ذلك القائد الالمانى المشهور والذى كان مرافقا للجيش العثمانى وقت انهزامه امام الجيوش المصرية في واقعة نصيبين فى حرب الشام (٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩)

ناظر المالية الذي ولد وتربى تحت تأثير الكرباج . واسماعيل الخديوى باتحاده مع صديق باشا وشريف باشا كان يعمل لمصر بمساعدة قريبه القدير « الجنرال راتب باشا » وهذان الندان اللذان يمثلان رءوس طرفى الوحدتين المصرية والتركية يحاربان نوبار باشا الذى تظاهره انجلترا . اما « مسيو كرابو » فيرقص طربا لربان أسطولكم الظافر

« فمدافع نلسن » عند «أبي قير» ازعجت الديك الفرنسي من شواطئنا الى الابد . والآن واحسرتاه فان صديق باشا المفتش قضي نحبه من عامين بطريقة خفية شيطانية محزنة وكانت النتيجة أن أصبح شريف باشا حفيد سليمان باشا « الكولونل سيف » يعتبر كآخر صديق حميم لشخص الخديوى اسماعيل »

فقاطعه لوري « وسرعان ما تلحق كنوز شريف الواسعة صديق باشا المفتش الى عالم الخفاء والنسيان . فالخديوى صديق سيء الحظ . فقد قتل طوسون باشا الوارث لسعيد باشا ومصطفى أخوه حوكم ونفى . أما ضياعهم الواسعة فاصبحت وقفا على الاربعين سراى والتسعمائة غادة من غادات « الحرملك » والخمسة آلاف وصيف ووصيفة . واما المفتش فقد قتل بقسوة ووحشية وذهبت أمواله الى يد قاتله ؟ ؟ ؟ ؟

« والآن . فاذا كان شريف أسقط نوبار مرتين من كرسى

الوزارة فانما ليعتليه نفسه . فماذا يكون حظه فى المستقبل ؟ »

فهم مصطفى فهمى باشا بكل وقار وقال

« سيدى ! لست هنا إلا لقضاء مأمورية مالية لمولاى الخديوى . ذلك المليك الذى أولانى نعمته وتفضل بان جعلنى وكيله المفوض وعهد الىّ بامر اثنين من أصحاب السمو انجاله

« وقد حاربت روسكيو وكبانى وأخرت لعبة بيكنسفيلد وآل روتشيلد فيما حاولوه من منع عمل موراتو يوم لمصر

« فشريف باشا هو آخر أمل للخديوي الآن وهو الوحيد الذى يمكنه أن يوفق بين رغبات ايطاليا والنمسا والروسيا ويجعلها تظاهر الخديوى حتى يزول ولو الى حين ذلك الخراب الذى انزله بنا نوبار الخبيث »

فانحنى جيمس لورى صامتا وتابع الباشا حديثه

« فارسل وكيلك المفوض فى الحال الى مصر وسترى أن شريف سيعمل معه بولاء وإخلاص . ولو شاء القدر وتقوض عرش نوبار المترنح وأصبح شريف على رأس الحكومة المصرية وسويت مسألة قروض مصر وأوقف تيار الخراب المالى الذي يهددها لكان هنالك بعض الامل فى أن يموت اسماعيل وهو (خديوى مصر) واما انجلترا فتكتفى وقتئذ بضمان عقارها فى مصر

« وأنى لا أجسر على نقد الخديوى وتصرفاته .فلست هنا

شخصيا الا خادمه الامين . وها أنذا في مفاوضة معكم منذ شهر ومتى وصلني ايصال دافيد سارت مصحوبا بأيصالكم عن المستندات التي سأقدمها لكما باكر فسألتزم السكوت الى الابد مالم تصلني تعليمات جديدة من مولاى الخديوي

« اما عن نوبار وشريف فكلاهما يعمل جهده ليصرع أخيه بينما يتضور الفلاح جوعا وتثقل الضرائب كاهله

«اما الخديوى اسماعيل فتراه بين مخالب اليهود والنهمين وأسافل الافاقين بينما المستحقات والمرتبات بعضها لم يدفع من سنتين والبعض الآخر من ستة شهور والعرش يترنح . هذه هي خلاصة قصتنا المحزنة ومأساتنا القومية الدامية فهل لكم أن تساعدونا ؟ »

فأجاب جيمس لورى بتؤدة ولهجة جدية

« نعم على شرط واحد. اذا حافظ الخديوى على عهده معنا وكشف لنا عن خفايا حساباته الرسميـة والشخصية وكان مخلصا لهذا العهد المختوم . فهنا لك وهنالك فقط يمكننا نجدته وانقاذه »

ثم ساد سكون رهيب وبعده تابع المليونير حديثه

« ان شريف يتعقب الخديوى كما يتعقب الصياد المجهد فريسته .أو هو كالحاطب النهم القاسي . فلن يبقى على شيء يكون قد تركه اسماعيل بعد حصاده

« وقد تحققت أن الخديوى كنز بالقارة الاوربية مايقرب

من العشرين مليونا ذهبا. وطبعا تبعه فى ذلك شريف

« فاذا هزت مولاك نخوة الشرف والوطنية والانسانية وألقى بهذه الكنوز فى الميزان لرجحت كفة انقاذ مصر على كفة كبوتها وتدهورها »

فظهرت آثار التشنج على وجه فهمى باشا وأجاب متمتما

« كل هـذه الاسئلة وما تسأله فى المستقبل سيجيبك عنها الخديوى بنفسه . أما شريف باشا فسيرحب بوكيلكم المفوض ويسهر على حمايته . وكل رجائى أن لا يعلم بأمرنا هذا قنصلا فرنسا وانجلترا

« أما رأسى فتصبح رهن الجلاد اذا اجبت ولو على واحد من أسئلتكم . وسآتي اليكم باكر لمقابلة دافيد هارت وبعدئذ أبرق لمولاى الخديوى بالجفرى بأنى اتممت مأمورية سموه »

ثم هم الباشا وحيا بيده اليمنى محركا اياها مرارا مابين صدره وجبينه الى جيمس لورى وانحنى انحناء بسيطا الى الشاب وانصرف (١)

---

(١) لقد اتينا قبلا على سيرة مصطفى فهمى باشا السياسية كما قرأناها فى بطون الكتب . ولم نشأ أن ندلى برأينا الخاص حتى ننتهى من الحديث عن وجهة نظره فى المسألة المصرية والسياسة الانكليزية وحتى لا يقال أنا حاولنا التأثير على القارئ الكريم قبل أن يقرأ بنفسه ماكتبه عنه المؤلف

أما وقد فرغنا من حـديثه وأصبحت لدى القارئ فكرة عامة

فأومأ جيمس الى الشاب بأن يبقى فى مكانه وتبع هو الباشا مشيعاً اياه . وهناك سمع الشاب همسا بينهما . بين مضيفه القزم البارد وذلك الضيف الذى ظنه لاول وهلة عدوه الألد . ثم سمع الشاب وقع أقدام الخيل فى الشارع فأخذ يفكر فيماكان يتظاهر به الباشا الماكر من قلة الاكتراث لامره حال انه كان يفحصه من قمة رأسه الى أخمص قدمه . ولم يلبث ان عاد البنكير وأومأ للشاب بالجلوس وقال

عن عقيدة فهمى باشا ورأيه فى سياسة انجلترا خاصة فانا نقول بلا تحفظ بأن الرجل كان يرى فى مصافاة الانجليز وأخذهم بالحيلة والمداهنة بدلا من سياسة المخاصمة والشدة والعنف أسلم عاقبة لمصر . فهو ان تظاهر بوداده للانكليز فانما ذلك لمصلحة مصر وخيرها فلقد شاهد بنفسه نتيجة سياسة العنف والمشاكسة . فلقد جرت سياسة اسماعيل الشكسة نحو انجلترا عليه الخراب وضياع عرشه

وكانت نتيجة سياسة سمو الخديوى عباس الثانى أن زيد جيش الاحتلال فى مصر ثم تلاه بيان اللورد روزبرى عن رأي الحكومة البريطانية بشان الحالة المصرية وقد ختمه بما يأتى

« قد يقال انه اذا وقعت صعوبات أخرى أن الاحوال التى دعت للاحتلال البريطانى قد تبدلت وقد يتساءل الكثيرون عما اذا كان تبدل الظروف يقتضى تغييرا فى السياسة وهل يدوم الاحتلال رغم ارادة البلاد كما قد يبدو ورغم شعور القسم الأكبر من السكان أو أن الافضل عدول عنه وابطاله .

« الآن ياصاحبي قد أوليتك كل ثقتي فهل تولينا ثقتك ؟ واذكر قبل كل شيء بأن اقدامنا على هذا المشروع المالي العظيم لتسوية كل الديون المصرية وتوحيدها ما بين خصوصية وعمومية أمر لا يمكن تمامه دون موافقة حكومتنا البريطانية السرية وجماعة حملة أسهم الديون المستحقة

« وللوصول الى هذه الغاية هو من شأني . وللتحقق مما اذا كان من الممكن اجراء هذه التسويه هو من شأنك أنت . فأنت

ولو أن الاعتبارات يعاكس بعضها البعض فأني أقول بأن الواجب أولا الاهتمام قبل كل شيء بمصالح الجاليات الأوربية في مصر وسلامة افرادها وثانيا فانه يظهر تماما أن شعور الوطنيين الحقيقي في طول البلاد وعرضها لاينم عن غير المودة والشكر وثالثا فلا يمكن النكوص عاجلا عند أول صعوبة عن أمر أقدمنا عليه امام الجميع فى مصلحة أوروبا العامة والمدنية الراقيه ورابعا أن انسحاب الجنود المحتلة فى مثل هذه الظروف قد يعيد الفوضى والاستبداد الى البلاد . . . .

الى أن قال « ولا فائدة في الوقت الحاضر من البحث فيما يحسن اقتراحه بمناسبة هذه الظروف الدقيقة ولا أن نتكهن عما يأتي به المستقبل . غير أن مايلي هو أقل مايقرر بلاريب :

« انه لايجوز بأية حالة افلات مصر من الرقابة الأوربية التى استوجب الحالة ابرازها بكيفية أشد وأصعب مما ظهر للآن . ان ضطرارنا لذلك غير منظور الآن غير أن الحوادث الاخيرة قد تدفعنا لأن نبحث فيه ونعد للطوارىء عدتنا . ولا نستطيع مطلقا من جهة أخرى أن

الذى ستنال ثقة الخديوى وتحصل على مساعدة شريف الخاصة لان شريف مع ما هو عليه من مكر ودهاء يقبل كل تسوية يرى من ورائها حفظ خزائنه الخاصة وانقاذ مولاه بعد أن ألقى به في يم الاسراف والتبذير. ثم القضاء على خصمه الألد نوبارباشا

« ومن الآن فسأعطيك بطاقة بيضاء (كارت بلانش) لانى استعرتك من بيت بنيامين وولده لمدة ستة شهور »

نرى الي أية درجة تؤخر هذه الحوادث توطيد الأمن والنظام والعدالة وحسن سير الحكومة . تلك الامور التى أعلنت حكومة جلالة الملكة ووافق السلطان والدول الأوروبية على أن ضمانها هو الأساس الوحيد والضمان الحقيقى الذى يتخذ مبدأ أوليا لجلاء الجنود البريطانية عن مصر »

كما جرت سياسة عباس المنيفة والعدائيه على البلاد أن وضع الجيش المصرى رأساتحت سلطة الحكومة البريطانية الفعلية وذلك نتيجة لأمر تافه كان ممكن تجنبه أو الافصاح عنه وهو الاهانة التى لحقت الضباط البريطانيين من الخديوى أثناء زيارته ومعه ماهر باشا عند استعراضهما الجيش المصرى فى يوم ١٩ يناير سنة ١٨٩٤ (وهى ماتسمى بمسألة الحدود)

واليوم فان سياسة العنف فى السودان كانت نتيجتها ذلك المنشور الصادر من حكومة السودان فى (٥١) اكتوبر سنة ١٩٢٤ وهو كالآتى

« قد انتهت المحادثات بين المستر مكدونالد وسعد باشا زغلول ، وكانت النتيجة أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية عادت فصرحت

ثم تبسم فاحني الشاب رأسه استحياء وتابع البنكير كلامه

« أما أتعابك فهذا أمر نتركه لحين عودتك من مصر. وأما المال فعندي منه لهذه التسوية الخطيرة مايربو على المائتي مليون. وهناك يتكم المالى العظيم وكثير من البيوتات المالية العتيدة تظاهرنى فى هذه المخاطرة. فبذا ترى أن إجراءات دافيد هارت المقبلة تتوقف على نتيجة تقريرك. واذكر بأن البرلمان غير معقود الآن. ولكن هناك طرق عديدة للوصول الى الحكومة ومساعدتها إيانا فى هذا الارتباك المالى الذى ربما كان سياسيا

تصريحا قاطعا بقرارها البات على الاحتفاظ بمسئولية بريطانيا العظمى عن الادارة فى السودان. وزادت على ذلك أنها قياما بهذه المسئولية تعتبر ذاتها أمينة على شعب السودان وتنوى ألا تسمح لشيء ما أن يعرقل سير عملها فى المستقبل كما كانت تعمل فى الماضى لتقدم البلاد فى سبيل السلم والرفاهية

«وحيث ان المحادثات انتهت على هذه الصورة فقد اعلن دولة الحاكم العام عزمه على العودة الى الخرطوم في القريب العاجل »

نحن نؤيد طرق العنف ولكن متي أتممنا جهودنا وأعددنا لها عدتنا. أما ونحن لانملك جيشا ولا سلاحا فلا تنفع الا الحيل السياسة. وهذه نظرية فهمى باشا وان كان الكثير لا يأخذ بها ولكنها لاتكون سببا فى رميه بالعقوق والخيانه

ولقد عرضت عليه الوزارة قبل مماته فرفضها لأنه اشترط شروطا لصالح مصر لم تقبل المعرب

أو حربيا أو ماليا . فالتسوية المرغوبة اذن تتوقف علي تقريرك ونتيجة أبحاثك كخبير مالى

« فلقد كنا نرقب هذه الحالة من سنين . وكنا على علم بمبلغ مقدرتك وكفاءتك يوم التحقت ببيت بنيامين . فلكى تكون طاهى (طباخ) قيصر الخاص فهذه أشرف مهنة وأخطر مهمة فى الحياة . واذا وكلنا اليك فحص حسابات الخديوى وجميع تصرفاته الخاصة وطرق إنفاقه فقد أنلناك بذلك أسمى مركز فى العالم المالى الحديث وأما نحن فما علينا الآن نمدك بالمال ونرسم لك طرق العمل ونرشدك ثم نكافئك . ولكن لى سؤال واحد فهل لك أن تتحمل هذه المسؤولية العظمى ؟ وهل وراءك من هم في حاجة اليك ؟

«وهل ترى من نفسك اليقظة والحذر والشرف والأمانة والرزانة والاقدام ؟ وهل أنت منكر لذاتك وممسك بزمام نفسك فتكبح جماحها عن الخمر والنسوة والغزل والرشوة وكل النقائص التى تذري بشرف المرء وتفقده أسمي مزايا رجوليته وتصيره حيوانا شهوانياً سافلا ؟ هل عندك من الشجاعة أن تضحك أمام ما يحيق بك من المكاره والاخطار ؟ »

فسرت فى جسم الشاب قشعريرة وانتفض جسمه وخيل اليه أنه أبصر وميض تلك العيون الدعجاء البراقة ترمقه من وراء

الحجب وأجاب

« يجب أن ترشدني ياسيدى وتضع كل ثقتك في . أما من جهتى فسأعمل جهدى للقيام بهذه المهمة ، وانى أعاهدك من الآن بأنى لن أخونك ولن أخدعك . فاذا أصبت التوفيق ورأيت من نفسى القدرة على القيام بهذا العمل فسأقوم به على الوجه الأكمل »

هنا بان للممول لورى نور الصدق والجد فى وجه الشاب فمد اليه يده مصافحا وقال :

« ها هى يدى! ويجب أن لا ترفهمى باشا حتى تتم مأموريتك أما نحن هنا فسنرقب كل حركاته . فاذهب باكر الى بيت بنيامين وأتم كل أعمالك واختم كل حساباتك ثم أخطرنا بالنتيجة وهناك سيعطونك حوالة بمبلغ خمسمائة جنيه وسيكون باسمك استجرار بمثل هذا المبلغ . وعندالساعة الرابعة سألحق بك هناك لمقابلتك ومعى الباسبورت وخطاب دورى من « شركة كوك » بفتح اعتماد لك بخمسمائة جنيه أيضا

«وسأحضر لك كتاب الأحرف الجفرية .وعليك أن تركب باكر قطار نصف الليل الى «جينيف» متى وصلى مستند الخديوى .ومن جينيف الى مرسيليا عن طريق الرون وهناك تنتظرنى بفندق «جراند أوتل لوفر ولاباى»

« وأحذر أن تأخذ معك متاعا عليه اسمك أو أى شيء ينم عن حقيقة شخصيتك حتى ولو كانت قطعة من الحلى. فسأحضر لك كل ما تحتاجه فى مرسيليا فلنا أكثر من مائة وكيل للعمل. ويجب أن لاتتعارف بأى رجل أو أية امرأة حتى تصل الى الاسكندريه. وستكون مدة مكثك فى مصر ستة أشهر على الأكثر

« فتمم كل أعمالك الخاصة حتى الساعة الرابعة ثم توجه الى فندق « كانون ستريت » وانتظرنى هناك. أما أنا فأكون قد احتلت على مصطفى فهمى باشا. فهل أنت على وجل من قيامك بهذه المهمة ؟ »

فأجاب الشاب بشجاعة وجد

« حاشاياسيدى. فأنا الرجل الذى تبحث عنه وسأكون عند ظنك بى وسأنتظر تعلياتك فى مرسيليا فعم مساء »

لم تنقض عشر دقائق حتى كان كينيث فى « نادى السياح » وكانت تعلو وجهه صفرة حينما التقى بصديقه «شارلس جرى سفنر» الذى كان ينتظر عودته على أحر من الجمر فحياه كينيث وقال

« سأرحل بعيدا. ولكن الى أين ؟ هذا مالايمكننى الاخبار به. يجب أن أرى كاثلين لورى غدا المرة الاخيرة وسآتى اليك ما بين الساعة الحادية عشر والثالثة وسأجتهد فى نهو كل أعمالى

حتى منتصف الليل »

وهنا اقشعر جسم المحب المدله وتابع حديثه متنهدا

« سأروح لندن غدا ولمدة ستة شهور!!»

فأجابه صديقه شارلس

« إنك ولد غريب . فسأقوم أنا أيضا بجولة صغيرة »

ثم دق الجرس للخادم وقال

« لقد رجوت من صديقتي الحميمة « كونتس أوف سانت أندرى » أن تقصي ولو الى حين تلك الرقيبة الماكرة (البارونة) كأن تدعوها فى حفلة باكر . أما الكونتس فستأتى الينا الساعة الحادية عشر وسيكون معها «مس كاثلين لورى » لمقابلتك فهل لك من رغبة أخري ياصاح ؟ »

فأجاب الشاب بتصميم وتأكيد

« نعم . اذ يجب أن تركب معى قطار باريس من محطة «كانون ستريت »وتصحبنى حتى« كاليه» .وعليك أن تساعدني على تحرير رسائلى »

فأجاب جروسفنر جذلا

« أجل فسأساعدك ثم نذهب معا الى التياترو . ولكن هل أدهشك هذا العجوز الداهية ؟ »

فأجاب الشاب

«حقاً لقد أدهشني . ولكني معتقد بأنه لا يزال على جهل بسر صيفنا الماضي على ضفاف بحيرات سويسرا . ولقد صممت على كسب يد ابنته كاثلين في حرب مشروعة حامية . فالى الغد!»

فتمتم جروسفنر في نفسه

«إن صاحبنا سيعمل للحب من داخل قلعة هذا البنكير الحصينة «وكل شيء جائز في الحب والحرب! All is fair in love and war»

لم يكن وصول كينيث الى منزله بالامر الهين اليسير : فلقد تخاف رجل من عربة ذلك السيد المصري « مصطفى فهمي باشا » وتبع الشاب كظله حتى منزله . وقبلما ذهب كينيث الى فراشه كان هناك أجنبي يحمل تعليمات من فهمي باشا وركب قطار (لندن) الدائري في طريقه الى (كاليه) . وقبل ان يغمض الباشا جفنيه سطر رسالة كل ما فيها

« الى الكونت دي سانتامارنيا »

« تعال في الحال »

ثم غط الباشا في نومه وكان آخر ما قاله

« أظن بأن كونت دي سانتامارينا سيلازم الشاب كظله»



(الفصل الثالث)

ميداس (١) فى سبيل النجدة ـ فى مر سيليا

لم يبق لمندوب الذهب البريطانى أ كثر من نصف ساعة ليرتب فيها أموره ويهيء بروجرام أعماله الشخصية في الغد جلس هذا الشاب أمام موقده والبشر يملأ نفسه وأخـذ يسائلها هل هو فى حل من أن يخدع — ولو فى سبيل الحب ـ ذلك الرجل الذى مهد له سبيل الرقى والنجاح فى مضمار مهنته ؟

ولم ينقطع عن تأملاته الا برهة قصيرة كان يحادث فيها ضيفه « مسترس آدا ويلتون » وقال فرحا

« سأبرح انجلترا لمدة ستة شهور فأرجوك إخبار جورج بالمجىء الىّ عقب انصرافه من مكتبه »

فسألته بدهشة

« الى اين ؟ ألِى الولايات المتحـدة أو البرازيل أو اليـابان أو سيبيريا ؟ »

(١) Midas الملك ميداس اشتهر بحبه الشديد للذهب وقد منحه الله (كما طلب) أن يستحيل كل شيء ذهبا . ولما أدرك هذه الأمنية اصبح فى تعاسة وشقاء لأن كل طعامه وشرابه كان يستحيل الي ذهب متى لمسه فصار يخشى أن يلمس ابنته الوحيدة حتي لا تستحيل ذهبا

فاجاب متنهداً

«ليست رحلة شاقة كما تتوهمين يا سيدتى . غير أنها رحلة غامضة أرجو من ورائها الخير والفلاح .وسأبرح هـذا المنزل الساعة التاسعة حيث أكون قد حزمت حوائجى »

فهمت السيدة بالخروج وقالت

« اذن لى الشرف بأن أجعل آخر ساعة نراك فيها مملوءا بالغبطة والهناء وسأرسل لك الرئيس »

لقد كان فى تعرف كينيث بعائلة « جورج ويلتون » ذلك المحرر النابه لجريدة « ايسيكل » التى تصدر كل مساء فى لنـدن من أعظم نعم المولى عليه

تزوج هذا المحرر الذى كان رفيق كينيث فى حياته المدرسية فى كمبردج من فتاة رشيقة هى ابنة أحد أساتذة الجامعة وأصبح الـكل من حملة الاقلام يدعونه بالرئيس لعظم مكانته عندهم ....

ولما كان كينيث أعزبا كان من السهل عليه حزم حوائجه ثم توسط الغرفة وقال

« أظن من محادثة لورى البارحة أنه يريد أن يضع يده على جميع أملاك الخديوى وكنوزه الواسعة الدفينة .وبذا يجد طريقة أكيدة لان يضع حدا لاسراف الخديوى وملاذه »

اجل . فلقد سمع الشاب اشاعات جمة عن تلك الوسائل الدنيئة

المخزية التي تدبر فى الخلفاء لسلب الخديوى اسماعيل أملاكه وضياعه الواسعة التي ورثها عن أجداده والتي تربو على الثلثمائة الف فدان غير السكر والقطن وتل محصولات وادي النيل الزراعية

فالحيل المختلفة لزيادة الضرائب والمحاكمات والاختلاسات المقوتة خلف ستار الهيئة الرسمية الحاكمة كل هـذا وان كان زاد فى ثروة الخديوى الخاصة الا انه ترك شريف الماكر وبطانته يرتعون فى بحبوحة الرخاء والنعيم والجاه

أما حظ أولئك الذين نشأوا في حضن العرش وكنفه فنجتزىء منه تلك المأساة المروعة. مأساة « المفتش The Mefettish ». حيث قضى عليه عند الشلال الاول وعفت آثاره . كل هذه الهواجس أثارت شكوك ذلك الشاب المالى وأهاجت فضوله وخياله فتمتم « يالله ! إني مرسل لشخص الخديوى اسماعيل . أما شريف فلن أجد منه سوى الكذب والرياء والمداهنة والمخادعة . نعم فسيحاول خدعي الى أبعد مدى. وربما ألحقني بأولئك الذين ذهبوا الى أعالى النيل واختفت معالمهم • حقاً انه لمشروع محزن خطير ولكن طالما يظاهرني الاسطول الانكليزى عند الاسكندرية فليس ثمت من خوف أو خطر »

وسرعان ما عاوده الاطمئنان فقال

«واما عن المسألة الاخلاقية فان المؤامرات الدنيئة والتدابير

الخفية الخطرة وغض الطرف عن مساوىء الاشرار وعدم الثقة من .. اكبر رأس الى المكارى فان مصر أصبحت كمثال حديث السدوم وعموره (١) Sodom and Gomorrah »

ثم تمثلت له صورة مصطفى فهمى باشا بوجهه القاسى وقال مفكرا « ربما كان هنالك عدو عنيد اذا تأخرت هنا ولو أسبوعا واحدا . ومع ذلك فأنى سانقب عن تدابير هذا الباشا وحركاته فى « بورتلند سكوير » . ولن يبخل علىّ لورى العجوز باعطائى التعليمات اللازمة حتى أركب آخر باخرة تقصد الاسكندرية »

ولقد صمم هذا الشاب على ان يخبر جورج ويلتون بأنه

---

(١) سدوم وعموره بلدتان ببلستين وهى أرض لوط وقد جاء عن قوم لوط فى القرآن الشريف « ولما جاءت رسلنا لوطاً سىءَ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب.وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفى اليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم مانريد .قال لوان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد . قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد »

مسافر الى القـارة لمدة ستة شهور . وأن جميع مراسلاته تحول الى بيت بنيامين وأولاده . ثم اتجهت أفكاره نحو محبوبته كاثلين لورى. وبعد تردد مجهد صمم على أن يقطع كل صلة سرية بها حتى يقوم بأداء مهمته . لكنه عاد ففكر فى زيارتهـا لآخر مرة قبل سفره فى الغد لانه لن يجرأ أن يكتب اليها !!!. وهناك فكر فى الطريقة التى يمكنه بها مراسلتها أثناء رحلته وقال

« هناك فتاة شريفة موضع الثقة. حقا ليس ثمت من أثق به غير ميللى جروسفنر . فخطاباتى لكاثلين يمكنني أن أرسلهـا اليها وهى تستلمهـا لكاثلين . أما بيت بنيـامين وأولاده فسيرسل لى خطاباتها الى مصر »

ولم يعـد له أى اعتراض على الفكرة الاخيرة لثقته بأمانة « بيت بنيامين وأولاده » ثم أخذ يتدبر فيما سيقوله لها وسرعان مااتجهت أفكاره الى والدها جيمس لورى فوجد بأن هذا الداهية تغاضى عن ذكر كل مايتعلق بمولد الشاب والرابطة العائلية بينهما فتنهد قائلا

« حقا أنه يعرف الماضي حق العلم . والآن فهو يستخدمنى كآلة متحركة لا غير . وليس هنـاك من داع اجتماعى فى هـذا المشروع يدعو لجعل ماليات الخديوي اسماعيل تحت مراقبة ذكاء دافيد هارت المفرط »

ولقد أدرك هذا الفتى بأن الخديوى فى هذا الموقف المالى الدقيق قدم لهذا المرابى الكبير مرتباً خاصاً يساوى مرتب حاكم الهند العام، وأن يمنحه المراقبة فى المستقبل على أعماله المالية على أن يرفع عن كاهله عبء الدين الثقيل والعمل على توحيده وتخفيض تلك الفوائد المهلكة . وحقاً فقد كان هذا آخر أمل لحاكم تملكه اليأس والقنوط أما عن شريف الماكر فربما أمكنه أن يصرع خصمه الألد نوبار وبذا يأمن على كل غنم أصابه من طريق السوء فيخلو له الجو ويصفو له العيش وينام آمنا فى ظل ذلك الاتفاق المالى العظيم . ويكون بذلك قد خدم سياسة انجلترا الخارجية وخدم الخديوى في نفس الوقت. وأعظم من ذلك يكون قد خدم مصالحه الخاصة فيزيد فى كنوزه الواسعة . كل هذه الهواجس كانت تدور بمخيلة الشاب فدمدم

«حقا اذا تم هذا المشروع السرى الواسع النطاق فسيسوى مركز مصر المالى ويستتب الامن فى البلاد وتطمئن انجلترا على طريقها البرى الى الهند وبذا تصبح فائدة انجلترا مزدوجة»

هنا دخل صديقه جورج ويلتون وحياه مصافحا وصاح

«ايه أيها الداهية . خبرنى عن سياحتك القادمة وثق بى اذا عز الصديق الامين»

فأجابه الشاب متنهدا

«انها ياجورج مأمورية خطيرة . وعليها يتوقف أمر حياتى فاما النعيم وأما الشقاء . وقد تستغرق أكثر من ستة أشهر

«وأزيد على ما تقدم بانى لا يمكنى مراسلتكم لدواع هامة. ولكن بيت بنيامين سيكون معي يوميا على اتصال برق . وكل مراسلاتى ستصلك عن طريق هذا البنك خالية من التاريخ واسم الجهة. وكل مراسلاتك التى ستكون أيضا عن نفس هذا الطريق .

«لا تحاول سؤالهم عن مقرى أو عن أى شىء يتعلق بى فلن تجد من يجيبك على ذلك. ومع ذلك فهم يدركون تماما مبلغ صداقتك أنت وشارلس جروسفنرلى ويعرفون أنكما ألصق الناس بى ومن اعتمد عليهما فى البأساء. فاذا لم تجمعنا الايام تكن هذه المقابلة آخر العهد بكما وبي. وأنتما تعلمان أين توجد وصيتى كما أنه يوجد كتاب مخصوص لك شخصيا مبين فيه كل رغباتى وهو محفوظ فى عهدة البنك

« فلا يكن فى نفسك جزع علىّ . فورائى أكبر نصير وأعظم حام وحفيظ. ورائى ملوك المال والمال أعظم ملك فى العالم

« نعم فلا يكن فى صدرك حرج أو جزع . فورائى ثلث ولايات انجلترا العظيمة. واذا لم يظاهرنى التاج واللوردات فان لى في الطبقة المتوسطة بما عندها من خزائن الذهب والاساطيل التجارية والصحف. ومجلس العموم بما له من المعاقل والوكالات التجارية. جيش

عرمرم لا يستهان به وهو أكبر أمبراطورية للذهب فى القرن العشرين

« فما أنا الا جندى خامل أعمل تحت لواء « بلوتوس » كما أنى رجل من رجالات العالم أحتمى بحماء الذهب البريطاني . فالذهب هو الملك المسيطر على الجميع

«وان ثقتى لعظيمة فى المستقبل حتى أني لا أحسب أى حساب لهذه المهمة الشاقة الخطيرة . فالارقام الحسابية تظاهرها الرجال يمكن أن تصبح مما لا يمكن مقاومته كجنود « كنجيز خان». ففى مقدورها أن تكتسح أمامها الاسر والعروش كما أنه فى امكانها أن تجرف فى تيارها كل ما يتصدى لها من القوى المادية البشرية »

وهنا استأذن صديقه بالانصراف فذهب الشاب الى خريطة بالحائط وتأمل في تلك الاملاك الواسعة التى تسيطر عليها بريطانيا وحدث نفسه

« ان ما يربو على مساحة بريطانيا العظمى أكثر من خمسة عشر مرة فى آسيا وحدها أصبح تحت ادارة وتصرف مالية تجارتنا . ودافيد هارت أصبح المتسلط على كل المراكز المالية فى الامبراطورية الهندية. تلك الامبراطورية التى كسبها كليف (١)

---

(١) روبرت كليف ١٧٦٥ ــ ١٧٦٧ أوفدته الحكومة الانجليزية لقتال الامير سراج الدولة أمير البنغال الذى انحاز الي الفرنسويين.

بحد السيف واشتريت بدماء غزيرة من دماء البريطانيين. واكثر من خمس وعشرين مرة من هذه المساحة فى امريكا الشمالية كانت تحت سيطرة بريطانيا والآن هى فى سبيل حكم نفسها بينما لاتزال سوقا رابحة للتاجر الانجليزى.

«ومثل هـذه المساحة عشرون مرة فى استراليا محكومة بقوانين التجارة. والآن فان هنـاك أمـلا عظيما بأن نضم الى أملاكنا فى أفريقيا مايفوق مساحة هذه الممالك الاربع عشرين مرة»

ثم ترك الخريطة بعـد أن القى نظرة على خط الحدود الذى يفصل افريقيا الوسطى البريطانية عن بحيرة فكتوريا نيانزا (١) وقال:

وأغار على متـاجر الشركة الانجليزية فهزم قواته فى موقعة بلاس سنة ١٧٥٧ ووضع يده على الامارة باسرها. وبعد أن عاد الى انجلترا أرجعته الحكومة الانجليزية وولته حاكما على الهنـد فضرب على أيدي المرتشين ونشر لواء العدل ونظم الجيش وحرم الاتجـار بغير الطرق المشروعة وهو أول من وضع أساسا مكينا للامبراطورية الهندية الانجليزية. ولما اعتلت صحته رجع الى انجلترا وهناك حوكم لنسبة الرشوة اليه. وكان الحكم عليه «ان اللورد كليف رغم مارتكبه من جريمة الرشوة قام لبلاده بخدمات جليلة تخلد له حسن الاحدوثة»

(١) بحيرة فيكتوريا نيانزا احدى منابع النيل وكانت موضوع

« فالنيل من خط الاستواء الى خط عرض ٣٠ شمالا هو اعظم طريق مائى فى افريقيا الموحشة . فاذا عكننا فى هذا النهر وفى نهر النيجر (١) ـ لاننا نتسلط على نهر الاورانج (٢) ونجد فى امتلاك كل نهر الزمبيزى (٣) وقريبا سنحصل على حصتنا العظيمة فى تجارة نهر الكنغوا فى ولاية الكنغوا الحرة (٤) ـ واذا لم تخطيء الظواهر فأن مصطفى باشا فهمي يكون محقا فيما قاله بأننا نرغب في ربط جنوب افريقيا بشمالها

« وأن مرافق التجارة البريطانية هى التى ستتسلط وتتحكم فى كل سياستنا الخارجية في أفريقيا بمساعدة سواسنا الحكماء وجيشنا

تنازع المستعمرين وقد احتل ضفتها «أمين باشا الالمانى» باسم الحكومة المصرية وكان يأمل توطيد السلطة المصرية هناك لولا معاكسة ستانلي وعمال الحكومة الانكليزية له . وقامت حملة حرة المانية بقيادة «دكتور كارل بيتر» الالمانى لنجدته عن طريق زنجبار ومضيق موزمبيق ووضع عنها كتاب بالالمانيه (النور الجديد فوق أفريقيا المظلمة) وهذه البحيرة يخترقها خط الاستواء

(١) النيجر نهر بغرب افريقيا يمر بمستعمرة نيجريا

(٢) الاورانج نهر بجنوب افريقيا يمر بمستعمرة الكاب والترنسفال

(٣) الزمبيسى نهر بشرق افريقيا ويمر به الخط الحديدى من مدينة الكاب الى القاهرة

(٤) الكونغو نهر بولاية الكونغو الحرة وهناك مشروعات كثيرة لتوصيله بنهر النيل وهذه الولاية هى تحت أمرة ملك البلجيك

البرى العظيم وبحريتنا العتيدة . نعم إن هناك عملا يقتضى الاقدام والتضحية والحيلة . فالى الامام . الى مجاهل افريقيا الموحشة !

« وأن تلك العمد (أعمدة) المرصوصة الجنيه الانكليزى ستسير خلف أعمدة أرقامى الحسابية . وتلك الحراب اللامعة ستخترق طريقها الى السودان . وبذا تصبح الرياح التجارية تحت تصرف مقدورنا (حظنا) »

وكان الشاب يظن ان لورى ذلك المالي البريطاني العجوز ذو القلب البارد ربما عنّ له أن يمثل دور ويلنجتون فى هذه المعركة المالية والتى ربما أصبح دافيد هارت يمثل فيها امبراطور روسيا فيشرف بذلك على الحلفاء الماليين

« أما بيت بنيامين وولده وكل من ينتمى اليه فى الخفاء . فهم عبارة عن الجيش الذى سيواجه الخديوى اسماعيل فى معركة واترلوا المالية (١)

« انه لنضال صامت لعمالقة ماليين تظاهرهم حكوماتهم والكل ينتظر بفروغ صبر قرار ملوك المال »

لقد تحقق الشاب الاهمية التى تتوقف على حركاته واعماله

---

(١) واترلو هي المعركة العظيمة التى أفل فيها نجم نابليون ونفى بعدها الى جزيرة سنت هيلانه بالاقيانوس الاطلانطيقى ومات بها ثم نقلت رفاته بعد ذلك بزمن الى فرنسا

طى الخفاء فى المستقبل حول العرش (الخديوى) وقال فى نفسه :

« انهم لو عهدوا الىّ بهـذا العمل فسيصبح حملا ثقيلا يوقر القلب والذاكرة »

ولما نام كينيث كانت آخر تأملاته نظرة صغيرة فى جنة الفردوس حيث تنعم حبيبته فطمحة فيما اعتزمه من ضروب الهجوم والدفاع في خداع والدها ثم قهقه

« ان كاثلين ابنته ومعبودته ! فلا تركنه على جهله . أجل فهو يجهل كل الجهل ذلك الحب العذرى الطاهر الذى تبادلناه فى سفوح مرتفعات الالب الشاهقة حيث كانت تنعكس أشعة الكواكب على صفحات بحيرات سويسرا الهادئة فتزيد أملنا نورا وحبنا حياة

« والحمد لله فان مدام لابارون دى سان نزير تتجاهل دائما وجود جيمس لوري فى المجتمع . وان فى النوبات الهادئة التي تصيب من آن لآخر « مدام روز نوجنت لورى » مايصرفها عن كثرة التردد على القصر . وبذا أصبحت كاثلين لورى وهى غير مراقبة مراقبة جدية فى حركاتها مع آل جروسفنر الذين بواسطتهم تهيأت لها الفرصة لان تجد طريقة خفية الاتصال بى

« ولكن واحسرتاه ! فقابلتي باكر ستكون الاخيرة حتى أوفق للنجاح أو الحبوط »

ثم جال ببصره واخذ يحلم بأرض «وادى النيل» وضفافه التى

تكتنفها اشجار النخيل وراجع بحسرة وألم شديد تلك الكلمات القديمة التي كان يقرؤها وهو طفل يلعب فى حجر أمه

« ستكون مصر أحقر الممالك ولن تسمو بعدها بين الامم ولن يحكمها أمير صميم من اهلها »

هذه هي الكلمات المأثورة التي أدهشت العلماء المتأخرين فى زمننا هذا . . . .

لقد قضى كينيث ليلته الطويلة غارقا في احلامه كأن العالم قد خيم عليه السكون . غير انه كان هناك وقع خطوات خفيفة تعكر صفو الليل وسكونه حول مسكن الشاب . نعم فان هناك عيونا ساهرة كانت ترقب باب منزله . . . .

واما مصطفى فهمي باشا فتبسم حينما أطبق جفنيه فى تلك الليلة وتمتم

« لاريب ان هذا الشاب سيكون صنيعة المليونير وجاسوسه فى مصر . فعلى رجالى الاخصاء ان لا يتركوه يغيب عن أنظارهم . اما غدا « فأرنستو ستريلوجو » الملقب الآن « كونت دى سانتا مارينا » فسيتعقبه خلسة الى مصر

« ان ذلك الرجل الايقوسى كذب عليّ فيجب أن أتجسس على أعماله وأراقب رفقاءه وصنائعه . والخديوي لن يتوانى عن مكافأتى . وان لم يكافئني الجزاء الاوفى فشريف سهل الدفع . أما انا

فسأ كون هنا في أمان واطمئنان »

ثم أغمض جفنيه وعم تلك الكلمة العزيزة على قلب كل مصرى

«أجل فطالما أني بعيد عن مصر فسيجزل لى العطاء فلننتظر ما يأتى به الغد « بكره » Boukra

. . . . حاولت عبثا مدام « آداويلتون » أن تستخلص من فم الشاب (كينيث جريفث) شيئا عن رحلته المقبلة رغما مما بذلته من ضروب المجاملة والدهاء النسائي. ولما يئست عللت نفسها بأنه سيأتى يوم يخبرها فيه زوجها بالحقيقة إن كان يعرف شيئا منها . وحقا فقد كانت مأمورية شاقة خطيرة. لان كينيث قبل افطاره فى الصباح أرسل بخادمه (سومز) الى فندق(كانون ستريت) يحمل كل متاعه وحوائجه لينتظره هناك . أما مصطفى فهمى باشا فكان تحت قناع تلك الشخصية المحترمة المهيبة — وهو أنه مربى سمو البرنس فؤاد (جلالة الملك فؤاد الاول) — يقوم بتمثيل ادوار ممقوتة مرذولة ويعقد اتفاقات مخجلة مستهجنة

وكان له أن ينعم بشخصية أكثر تجلة ومهابة لولا ما كان يأتيه سرا وجهرا من الحيل المزرية بجمال مركزه وشرف مكانته . والمساومات الدنيئة الحقيرة — بصفته الممثل المفوض فى لندن من قبل «اسماعيل خديوى مصر » — لخراب مصر وضياعها . . . .

خرج كينيث من منزله الى تلك القلعة المالية المنيعة فى «ثريد نيدل ستريت» وعلى شفتيه ابتسامة الهزء والسخرية من أعمال فهمي باشا الصبيانية الطائشة. وكانت حركات قلبه تدق بسرعة وشدة أثناء نصف الساعة التي مضاها فى ذلك البيت المالى العتيد وهو يفاوض رأس ذلك البنك. ولما تسلم النقود التى أخبره عنها جيمس لورى أدرك من طريق آخر بأنه شخصيا يمثل اصحاب الديون والقروض التى تدين بها مصر

انتهى كينيث من مفاوضته وانسل من الباب الخلفى للبنك كيلا يلحظه أحد . أما كونت دى سانتا مارينا (المزيف) . فبعد طول انتظاره قفل راجعا الى مصطفى فهمى باشا وأخبره أن الشاب لايزال فى مفاوضته مع بيت بنيامين وأولاده . ولقد كان الباشا ينتظر أوبته على أحر من الجمر . فقد مضت ثلاثة شهور وهو يتعقب خطوات الرأسماليين فى لندن دون أن يصل الى نتيجة حاسمة مثمرة . وأخيرا التجأ الى جيمس لوري داهية الماليين عله يصيب مغنما منه.

. . . . بعد أن أنصت الباشا الى حديث الكونت المزيف قال

« أن حياتك معلقة بهذه المهمة . فلا تدع ناظرك يقع على غير هذا الشاب. أما المال فعندنا منه ما يربو على مطامعك»

ثم نفحه ورقة مالية وتابع حديثه

« عليك أن تستعمل الجفرى فى رسائلك . واذا احتجت الى المال فابرق لنا فى الحال. وعليك أن تكون أقرب لهذا الشاب من حبل وريده وأتبع اليه من ظله . بل والصق به من ثوبه حتى يصبح فى حضرة شريف بنفسه .حينئذاك تكون قد أتمت مهمتك فتصبح حرا طليقا . وشريف سيكافئك على ذلك بسخاء خلق على هذا الجاسوس وسد عليه مسالكه.فتش أمتعته وافتح رسائله واسرق برقياته . وكل ما نرجوه من وراء ذلك هو الوقوف على نواياه ومعرفة ماهية مهمته ومبلغ اسراره.اما حياته فمقدسة فلا تمسها بسوء انت وعصابتك

« ولكن متى كنت فى مصر » وهنا انى بحركة خنق الرقبة « وامرك شريف فلا تتأخر . واذكر ياستريلوجو باننا نأمل منك خدمة عظيمة لك منا عليها اجزل العطاء واوفى الجزاء ولكن اذا ماعاهدتنا فاعطيناك ثم خنتنا فاذكر نصب عينيك ماهى مصر بلد الجبابرة قدماء المصرين . والآن اذهب وأنت اعرف الناس بما ستكتبه لنا »

قال هذا واشار الى الكونت المزيف بالانصراف . أماهو فأضجع على مقعده ما بين الوسادات الحريرية وقال فى نفسه «الآن يذهب أحط نذل وأسفل أفاق فى أوروبا . فقد كان

خفير مرحاض فى ايطاليا فساح أحذية فكاريا فرمطونا فقامرا فطفيليا ثم قواصا للقنصل فزعيم عصابة فوضوية فجاسوسا. أما الآن فتحت عنوان مزيف واسم مختلق يدعى «السنيور كونت دي سانتامارينا

«وسيأتى يوم تكون فيه حياته رهن سكين أجريكية أو بطشة جبار مصرى متهور (عصبجى) وبهذا يوفر على الجلاد كثيرا من عناء المشنقة. ولكن كيف الوصول الى هذه الغاية ؟» ثم قهقه الباشا وقال بالطليانية (لنسير على مهل . ففى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة) che va piano, —va sano — va lontano

.... بعد ذلك قصد فهمي باشا زيارة أحد أجنحة القصر الفخم الذى يسكنه حيث توجد بعض الغادات من اجمل فاتنات (الهمبرا) ينتظرن أمره بالرحيل الى الجنة الفيحاء فى قصر بولاق، لان الباشا الماكر لا يأنف أن يقوم بتمثيل دور (فضل الدين) الحديث بينما يحمل الى جنبه حسام التشريفات الرسمية

أما أرنستوستر يلوجو فكان يترنم باحدي اغانى نابليون الغرامية ثم يتمدح باسم كافور (١) بينما كان سائرا فى طريقه شطر بيت بنيامين وأولاده وقال فى نفسه

«١» كافور هو ذلك السياسى العظيم الذى بجده وحسن تدبيره كان السبب الاكبر فى وحدة ايطاليا

« لاجرم ان هذا الشاب سهل الاستمالة والاغواء . فالخمر والنساء والميسر (الورق) هي الخصال الثلاث التى اذا ما اجتمعت فى آله واحد أودت به الى ابعد هوة يذل فيها ابو البشر . وهذا الجاسوس شاب ولذا لن يكون حكيما عاقلا . فان غادة وكاسا من الخمر العتيق او واحد منهما سيمهد طريقي الى قلبه ولبه . ثم نراه يسلك سبيل الغواية بعدئذ في مصر . ولكن وجه العجب ان فهمى باشا لم يمكنه أن يعرف أسمه »

كانت هذه جل الامانى والافكار التي تجول بخاطر كونت دي سانتا مارينا أو بالحرى « ارنستو ستريلوجو » ألى ان تمتم فى نفسه

« اجر مضاعف دون أن تعمل شيئاً وفى حماية شريف الخاصة . حقا أنها لمهمة تملأ النفس هناء وغبطة »

كان هـذا اللعين يعرف مقدرة شريف باشا وكيف يقابل العواصف الهوجاء فى مصر . ألم يكن ذلك الشركسى هو الوارث لنفوذ سليمان باشا وضياعه عن طريق زوجه ابنة أحـد الضباط الفرنسيس تحت أمرة مارشال «ناى» ؟ بلى فان كولونل سيف(٢) أمكنه أن يدخر ملايينه الذهبية بطريقة اقتصادية فرنسية حكيمة رغما من أنه وضع العمامة تحت اسم سليمان باشا

فشريف ذلك الرجل الذى يركن اليه الخديوى ويأتمنه على

أمواله المودعة فى أوربا قد استمال الجنرال راتب باشا القائد العام للجيش بأن أرتبط معه برباط المصاهرة ليأمن جانبه وليكون عونا له وركناً أميناً عند الشدائد. نعم فسيستمر شريف فى خطته الى النهاية ولن يصيبه شيء من جراء ذلك . ثم يقضي على سلطان اسماعيل الخديوى الاول وريث النعمة وربيب الحظ . . . .

ولما كان كينيث لا يشعر بما نصب له من الحبائل توجه توا الى قصر « آل ريكسهام » فى « هانوفر سكوير » حيث أدخله الخادم العملاق الذى يخفر باب القصر الى السيد تشارلس جروسفنر

استقبله تشارلس مرحبا وقال

« أراك ياولدى مستعداً على ما أظن للسفر »

فتلعثم كينيث وأجاب

« حقاً انه انتقام أب مخدوع . ولكن أخبرنى قبلا عن البارونة »

فأجاب جروسفنر

« لقد أقصيناها الى حين لهذا الغرض بواسطة الكونتس أما أنا فعلى استعداد أيضا لرحلتى القصيرة وسآخذ قطار دوفر على وجه التحقيق . وسأرشى الكمسارى كى يضع متاعك فى غرفتى الخاصة. اما الآن فسأقوم بحراسة هذا الحصن لساعات معدودة وما عليك الا أن تمضى خمسة عشر دقيقة على الاكثر فى

التمشي معي . ثم اذهب اليهما فهما ينتظرانك فى الطابق الاعلى . ولكن كن حكيما واجمع شوارد أفكارك وكن على استعداد لمقابلة اليوم حتى لا يكون نهايتها اعتقاد فاسد أو ما شاكل ذلك يلحظه ذلك الداهية جيمس لورى »

ثم تظاهر شارلس بعدم الاهتمام وأخذ كينيث الى مخدع أخته ميللى وتركه وحيداً . .

كانت تسود المكان السكينة لولا رنة التأثر والابتهاج فى ذلك الصوت الذى عكر برنينه صفو المكان وسكونه مصحوبا بتنهدات عميقة خانقة .

أما ميللى جروسفنر فقد تجاهلت هذا المنظر المؤثر الذى كان يماثل وداع راءول وفالنتين

وهنا تساءلت كاثلين لورى بتلهف « ابى ؟ »

فأجاب الشاب بهدوء

« لا يعرف من أمرنا شيئا ياعزيزتى . وقد عهد الى الآن بأمورية مجهولة على جانب عظيم من الاهمية والخطورة »

ثم أجلسها الى مقعدها فقالت

«آه الآن أدركت كل شيء . حقاً أنه سيرحل معك فقد أبرق الى أمى ليلة أمس لترجع فى الحال لانه سيذهب منفرداً الى القارة لمدة أسبوعين . أما الآن فقد تحققت بأنك ستكون

رفيقه فى رحلته »

فأجاب كينيث

« انى على جهل مطبق من هذا الأمر ياعزيزتى . وكل ما يمكننى أن أخبرك عنه إنى سأتغيب مدة ستة شهور عن انجلترا وهناك أمر أؤتمنت عليه يولينى شرفا عظيما لا يمكن افشاؤه . ومتى انتهيت منه فما علينا الا السكوت والترقب ورائدنا الاخلاص لحبنا فاذا ماعدت مظفرا سالما فلاشك بأنى سأكسب أخلاص أبيك مدى الحياة . »

ثم أخذها جانبا وأسر اليها مايجول بصدره من لواعج الحب وما يرجوه من الأمانى الكبار والآمال العظيمة لمستقبل كليهما

وكان وجه كاثلين الصبوح متجها اليه يرمقه بعينين ملؤهما الحنو والانعطاف والاخلاص ذاتى أهداب منتفضة مبللة بدموع الحب والوفاء . أما شعرها الأشقر فكان يتوج جبينها بالجلال والجمال . أما قلبها فكان مفعما بالحماس وأسباب التضحية لشخص حبيبها الذى أزمع على مفارقتها فى رحلته هذه الساعة .

وهنا أدرك كل من ميللى جروسفنر وتشارلى جروسفنر بأن الوقت قد حان لتدخلهما وتعكير هذا الصفاء الذى يحيط بالحبيبين . ثم أخذ أربعتهم يتحدثون عن المستقبل وما يحفظه القدر لذلك البطل المالى الذى لايدركون ماهية أمره وغاية

وجهته . أما وقد مضى أكثر من ساعتين على هذا الاجتماع الغرامي المباغت فان الواجب كان يدعو كينيث للانصراف .وهنا كان مشهد فى غاية من التأثير مما يدمى القلوب ويوهى الجلد

فنظرت كاثلين الى كينيث نظرة عطف وحنان وقدمت اليه قلبا ذهبيا يحوى صورتها الفوتوغرافية وقالت باكية

«هذا القلب أخذته من والدتى فهو أعز شيء لدى . والآن فانى أقدمه لك ليكون عزاء لك فى غربتك ووحشتك فاحفظه على قلبك كما أحفظ حبك فى قلبى»

وهنا سمع رباعتهم صوت النذير . فقد أنذرهم الخادم بعودة بارونه «دى سانتانزيو» فجأة وعلى غير انتظار .فأشار تشارلى على كينيث بأن ينسل من باب القصر الخلفى وأن يهرب كاثلين من جهة أخرى

وبينما كان كينيث ذاهبا الى البنك كعادته ليأخذ جواز السفر وكتاب الاعتماد الذى بيده واسمه الجديد المتفق عليه وهو « ملكولم كرانفورد » . قال فى نفسه

« لعمرى هذا هو اللواء الذي سيرفرف فوق رأسى في هذا الكفاح المالى الخطير »

أما كونت دى سانتا مارينا المزيف أو بالاحرى «أرنستو ستريلوجو» الانيق فكان منتظرا على أحر من الجمر يرقب

دخول كينيث الى البنك . ومن باب الحيطة أشار على رفيقيه بحراسة الباب الخلفى اذ ربما يدخل كينيث من هناك. وأخيراً جاءه أحد الرفيقين وأعلمه بوصول كينيث . فنزل كونت دى سانتا مارينا من المركبة وقال

« إلحق برفيقك وراقبا معا مدخل البنك الخلفى بكل يقظة وانتباه . فاذا ماانسل من ذلك الطريق فتعقباه حتى يقف ثم يمكث أحدكما في الانتظار ويأتي الآخر ليحدثني بالنتيجة . فاذا وجد تمانى قد ذهبت وقد قفل البنك فاذهبا الى فهمى باشا . أما اذا خرج من هذا الباب فلن أتركه يغيب عن نظرى . وسيكون خادمى منوطا بالمراسلة فيصبح اثنان عند هذا الباب . أما أنتما فاتبعاه حتى « فينا » وهناك أبرقا لى حسب الاتفاق بتفصيلات مايحدث فى الطريق » . .

وبينما كان كينيث فى محادثته مع مدير البنك انسل ارنستو ستريلوجو الى البنك وخاطب رئيس السعاة مستفهما . وبعد تبادل عبارات ودية بسيطة دس اليه نصف جنيه وسأله فأجاب

« حفظك الله ياسيدي ورعاك . فليس الذى دخل بالمستر « بنيامين » بل هو كينيث جريفث أحد وكلاء البنك الخارجيين وهو منهمك الآن فى حديث خطير مع الرئيس . أما عنوان منزله فمن السهل أن آتيك به »

وسرعان ما اختفى الرجل وعاد ومعه ورقة بهـا العنوان .
فأخذها الـكونت المزيف شاكراً وذهب لحاله

. . . . مرت ساعتان وكينيث ينصت بانتباه الى النصائح المتعاقبة التي كان يلقيها عليه كل من مستر جيمس لورى ومـدير بنك بنيامين وأولاده . ولقد أدرك كينيث مبلغ مهمته الخطيرة حينما قال له مدير البنك

« لقد تركنا أمر نجاح مشروعنا وحبوطه بين يديك . وعليك أن تقدر خطورة هذا المشروع ومبلغ مكانته وأهميته . ومستر لورى سيرشـدك ويهديك . وكل شيء يتوقف على مقـدار تأثيرك الشخصى على الخديوى اسماعيل ومبلغ أخفائك مهمتك عن كل من وكيلى انجلترا وفرنسا السياسيين

« ولن يعزب عن بالك أنك لست الا « مستر ملـكولم كرانفورد » يفحص مشروعات هامة عن تحسين موارد السكر وزراعة القطن فى مصر

« وسيكون لك من كل من قناصل جنرالات ايطاليا والنمسا والروسيا صديقاً مخلصاً فى السراء وهم سيضحون بكل ما لديهم حتى لا تخفق فى مهمتك . وسيقدمك شريف باشا للخديوى لانه يعرف كل شيء فى أرجاء القـاهرة وجنباتها . فهو يعرف كل شخص فى مصر من بائعة الزهور الى أم أكبر رأس ؟ ؟ ؟

« ولكن يجب عليك أن لا تثق به ولو لحظة واحدة . فهو ان فتح لك الباب على مصراعيه فربما حطم مشروعك فى الردهة أو الطابق الاعلى

« وكل مانرغبه منك أن تحوذ ثقة الخديوى وأن لا تركن لأحد غيره . فسيعمل معك بأمانة اذا أخلص لعهده ووافق على تحقيقاتك . بل سيعينك فى مشروعك بارشـاد مصطفى فهمى باشا هنا

« وبرقية واحدة من الخديوى ستجعل مستر دافيد هاوت يلحق بك فى الحال الى مصر . هذا بعد أن تكون قد أتممت أبحاثك وتحقيقاتك وأدركت كل مناحى هذا المشروع المالى الخطير

« أما قنصل جنرال ايطاليـا فسيقدمك فى قصره بصفـة خاصة الى « شيروبينى » وهذا سيعمل بالوكالة عن القناصل الثلاثة كما ستعمل أنت بالوكالة عنا

« وربما كان فى غير مقدورك انقاذ الخديوى . ولكن على أية حالة فكل شيء يتوقف على صحة تقريرك وصدق نظرك وهل فى الامكان نجدته أم لا . فاذا ما أعلنتنا بامكان هذه الامنية فسنبدأ بالعمل حالا »

وهنا ضغط الرئيس على يد الشاب مبتسما

« والآن يامستر ملكولم كرانفوردفان حياتك الشخصية

تتوقف على استقامتك وفضائلك. ومن الآن فقد صرت تخص صديقى مستر لورى »

وكل ماقاله مستر لورى للشاب بعد أن فرغ الرئيس من حديثه

« جهز متاعك وكن على قدم الاستعداد عند المحطة للسفر الى باريس . وسألحق بك متى انتهيت من مستر دافيد هارت ومصطفى باشا فهمى . وعليك أن تقابلنى فى الردهة العمومية لفندق « كانون ستريت » الساعة الحادية عشر »

. . . . انصرف الشاب من البنك وقصد توا فندق كانون ستريت وهو فى حالة تأثر شديد من تلك العوامل التي كانت تتجاذبه نتيجة لتلك المباحث الخطيرة التى دارت بينه وبين هذين الداهيتين . وسرعان ما اتجهت كل افكاره الى حبيبته كاثلين لورى

. . . . ولما ذهب خادمه (سومز) لملاقاته عند مدخل الفندق لم يلاحظ ذلك الغريب الأنيق الماكر الذى لم يلق أية صعوبة فى استمالة خدم الفندق وجعلهم يعملون طوع ارادته . فلقد وصلت مركبة فاخرة بترتيب عجيب مدهش فى نفس اللحظة التى وصلت فيها مركبة كينيث جريفث او بالحرى « ملكولم كرانفورد » ووقفتا جنبا لجنب . وقبل ان يتناول كينيث غذاءه المجهز له فى حجرته كان ذلك الغريب يقرأ خلسة عنوان الشاب

على أمتعته «م . ك . باريس» ثم أخذ ينصت بمهارة الى الضوضاء التي احدثها سومز الخادم حال تجهيزه أحسن محل له ولسيده

هنا تنهـد كونت دى سانتا مارينا تنهد الارتياح وتنفس الصعداء وقال فى نفسه

« انى لاعجب هل هناك من فريسة أخرى (ولو على الماشى)؟»

وبعد أن تناول طعاما عاديا أخذ يحوم حول الفندق الى ان جاءه خادمه يحمل متاعه وحوائج سفره ....

كانت الساعة العاشرة حينما ترجل مستر جيمس لورى من عربته وحيا كينيث بحرارة، أجل فلقد كان الشاب ينتظر قدومه بتلهف واضطراب . ولم يدر كونت دى سانتا مارينا أى أمر كانا يتحدثان بشأنه في الغرفة نمرة ٢٤ حيث كان يتعقب خادمه السافل كل من المرابي والشاب. غير أنه علم بعد ذلك بأن انجليزيا عظيما لحق الشاب وركبا معا فى مركبة الدرجة الاولى في طريقهما الى « دوفر» . أما سومز خادم كينيث فقد احتال بحذق بان جعل كونت دى سانتا مارينا في عجز عن معرفة أمرهما ومراقبتهما .

بعد ان ترك القارب البخارى دوفر جلس الصديقان كينيث جريفث وشارلس جروسفنر يتسامران في غرفة التدخين بأطيب الحديث. ولقد كان برو جرام كينيث على غاية من البساطة. فما عليه الا ان يجد فى سيره حتى مرسيليا وهناك ينتظر التعليمات التفصيلية

الاخيرة . لان جيمس لورى عند ماافترق معه بالفندق أسر اليه بأن فهمى باشا سلم بكل طلباته وسلمه رسالة الخديوى اسماعيل وانه لايعلم بأنك فى طريقك الى مصر الآن لانه معتقد بأنك ستسافر بعد أيام قليلة فلا تدع أحداً يعلم شيئا عن مهمتك

عند ركوبهما الباخرة همس جروسفنر اليقظ الحاذر فى اذن الشاب

« أن هذا الغريب الانيق ينظر الينا خلسة طول الوقت نخذ صورته الفتوغرافية فربما افادتنا فى المستقبل »

وحقا فقد كانت نصيحة حكيمة . فان الصديقين عندما افترقا فى باريس كان هذا الغريب يرقبهما كذلك . وعلى ذلك افترق كلاهما فأخذ كينيث قطار جينيف . ولكن عند عودة شارلس الى لندن كان يحمل رسالة غرامية من الفتى الراحل الى معبودته كاثلين لورى . اما كينيث فقد تمم مندهشا عندما انسل كونت دى سانتا مارينا ببطء الى فندق اللوفر بمرسيليا

« وآيم الله . أنه لجاسوس ! ! »

الفصل الرابع ـ الجزء الاول

(رهن أوامر مختومة ـ صديق منتصح حكيم ـ مطاردة مجهدة)

لقد كان اسم مستر ملكولم كرانفورد يزين قاعة أسماء نزلاء « جراند هوتل لوفر » بمرسيليا . ولقد فارق الشاب ذلك التهيج والانفعال المنبعث من خطورة قيامه بتمثيل دوره الشاق أمام جيمس لورى ذلك المرابى الداهية . غير أن النصب كان قد أخذ منه مأخذه عقب رحلته الطويلة من باريس الى جينيفا ثم انعطافه ثانية الى مرسيليا عن طريق « ليون » و « فالنس » و « أفينيون » محاذرة من الرقباء

أما الآن وقد مضى عليه نحو أربع وعشرين ساعة بمرسيليا وقد فرغ من تحرير رسالتين واحدة الى حبيبته كاثلين لورى والثانية رسالة عتاب لطيف الى صديقه شارلس جروسفنر فكان يرقب بلهف وحيرة وصول جيمس الى مرسيليا . وقف وليس له من معز أو مواس أو مرشد . فلا كلمة من جيمس لورى ولا برقية من جروسفنر ولا رسالة من حبيبته كاثلين . . .

وزيادة فى الحذر والتضليل زين كل متاعه وملبسه بهذه الطغراء (م . ك) ولقد امتلأت نفسه غبطة وبهجة واطمئنانا حينما فحص كل

ملبسه ومتاعه ولم يجد أثر الاسم الحقيقي « كينيث جريفث » اذ أن كل شيء أصبح باسم (ملكولم كرانفورد) ذلك الاسم المزيف المختلق . ثم بانت عليه سيماء الوحشية المروعة حينما لاحظ بأن كونت دي سانتا مارينا ذلك الظريف الايطالي منهمكا في حديث طويل مع رب الفندق . وكم ساوره الشك قبلا في مخاوف جروسفنر من هذا الغريب ألا أنه تحقق أنه رأى هذا الوجه الضحوك على ظهر القارب البخاري عند محطة « سان لوزار » في باريس كما رآه في جينيف عند تحرك القطار . ولقد خطر له أن يتقدم الى هذا الجاسوس السافل ويبطش به ولكنه بعد صعوبة مجهدة تمالك عواطفه وقال

«حقا لا يوجد هنا من يمكن ائتمانه والركون الى صداقته . ولو كان مستر جيمس لوري هنا الآن لهاله هذا الموقف الغريب رغما من رزانته وحذقه . والآن فقد تركت وحيدا منسيا من الجميع »

وعنّ له وقتئذ أن يبرق برقية الخطر . غير أنه بعد إعمال الفكرة فضل التريث مع اتخاذ بعض الاحتياطات اللائقة فرتب متاعه ووضع عليه علامات من قصاصات الجرائد حتى يصبح على بينة مما اذا كان هناك من يجرأ على تفتيش حوائجه في غيابه فقد لاح له بأن هناك مساع خطيرة من رقبائه لهذه الغاية

ولكم هاله الأمر وتملكه الغضب عند ما رأى آثار الشمع على قفل الشنطة مما ينبيء بأنهم أخذوا طابع القفل بالشمع الأحمر فزمجر ودمدم حانقا

« لابد وأن هناك من يقتفي أثرى ! »

ثم أخذ يفحص الممرات والردهات والصالونات فوجد أن هناك سلمين مزدوجين فى كل طرف من الفندق . فعزم على أن يعرف غرفة هذا الايطالى الغريب وأن يقف على موعد أوبته اليها . وهنا تذكر ماقاله له جيمس لورى .

« أنا لننتظر منك صبرا وجلدا وحزامة وقوة على ضبط نفسك واحتمالا للمكاره »

ففكر الشاب فى أن يحمل معه كل ما هو ثمين وعزيز . وبينما كان يدخن سيجارة من خير ماأخرجته يدالصناعةالمصرية كان يحشو مسدسه . ثم سمع فجأة طارقا بالباب فجفل ثم دخل رئيس خدم الفندق وقال :

« توجد مركبة فى انتظارك ياسيدى لأمرهام فى مكتب « فونسينت فريو » وسأوصلك بنفسى الى هناك »

ودون أن ينبس ببنت شفة تبع ملكولم كرانفورد رئيس الخدم بعد أن حزم أمتعته حزما متينا . وكان على وشك الانحدار بعربتهما الى شارع « بارادى » حينما عاد الايطالى تصحبه فتاة

مقنعة فتمتم الشاب

« حقا أنها « دون جوان » كما أنها تماثل « فيدوك »

لاريب أن الفتاة الصغيرة كانت على جانب عظيم من الحسن والجمال وهنا أجاب رئيس الخدم

« نعم يامولاى . فهذا السيد الايطالى كان المدير الاعلى لفندق اللوفر ويدعى الكونت دى سانتا مارينا. وله نفوذ واسع فى مصر كما انه ألصق الناس بشخص الخديوى اسماعيل . ولنا الشرف بان سمو اسماعيل باشا نزل بفندقنا هذا وكذلك شريف باشا . ولقد أتى هذا السيد الايطالى مع شريف الى هنا من عامين وهو غنى كما أنه شيطان السيدات. وأزيد على ماتقدم بأنه يسكن الغرفة المجاورة لغرفتك»

فتمتم الشاب فى نفسه وأدار بعينيه المتسائلتين الى غادات مرسيليا المارة

« لاشك ان هذا الايطالى على اتصال بالخدم وخمسة فرنكات كافية لان يدخلوه الى حجرتى »

وبينما كان الشاب يلج مكتب « فرنسينت فرير » كان الكونت الايطالى المزيف يقرأ وريقة فى الغرفة الموصلة لغرفة الشاب الانكليزى بالفندق . ولكن كان هناك عينان فرنسيتان تمطران شرراً وترقبان ذلك الايطالى الذى لم يتمالك أن صاح

« آه لقد ملكتك يمينى الآن أيها الشاب الانكليزى مستر كينيث جريفث الخبير المالى ورئيس أعمال بنيامين وأولاده الخارجية بشارع ثريد نيدل ستريت بلندن .

« ولو ان فى مقدورى أن أصل الى تلك التعليمات التى تحملها من مستر لورى ومستر دافيد هارت أو لو كان فى طاعتى أن أعرف من هم حلفاء بنيامين فى هذا المشروع الخطير لضمن لى شريف مستقبلا زاهراً

« وأظن أن فى استطاعتى النجاح بمعونة « اندرى » تلك الساحرة الفاتنة الصغيرة »

ثم همس بعض كلمات فى أذن هذه الرفيقة الرشيقة جعلتها تحمر خجلا وقال

« ولكن اذا لم أوفق للنجاح قبل وصولنا الى خليج أبى قير فلن تعدمى يا أندرى حيلة فى تصيده بالقاهرة . فليس هناك ما يمكن أن يقاوم جمالك الفتان حتى شريف مع حذره ودهائه

« فاسرعى الآن ياأندرى فبينما أذهب لوضع تابعىَّ فى مكانهما دقى الجرس للخادمة وبعدها نبدأ عملنا السرى فقد أصبح لدىّ كل المفاتيح . وكل ما أطلبه منك ان تذرعى الردهة جيئة وذهابا للحراسة »

. . . كان يجرى ذلك بينما كان الشاب الانجليزى يمسح عينيه

من الذهول حينما أدخله رئيس خدم الفندق الى مكتب «فرنسينت فرير» وعاد فى نفس العربة الى فندق اللوفر وتركه فى المكتب

وهناك دس اليه أحد كتبة المكتب حزمة من الرسائل المختومة ودفع به بلطف الى عربة مقفولة وقال

« ان مستر جيمس لورى فى انتظارك ياسيدى فى المطعم (رستوران) المجاور الى شاتيوديف Château d'If

أما متاعك فقد وضعناه فى الباخرة سفنكس. وعند منتصف الليل سنقودك الى ظهر هذه الباخرة

« وسنرسل نفس هذه المركبة . فاترك حوائجك ومتاعك فى غرفتك وسندفع لك أجرة الفندق ونرسلها الى ظهر الباخرة وعليك أن لاتحادث أحداً فى مرسيليا . فربما كنت مراقباً من الآن »

. فض كينيث رزمة الرسائل فوجد من بينها رسالة من حبيبته كاثلين لورى ملؤها عبارات التشجيع والاخلاص . ثم خطابا مقتضبا من أبيها جيمس لورى. فكتابا قصيراً من صديقه الحميم شارلس جروسفنر يشبه فى قصره واقتضابه كتاب فتاة غرامى وهو يجرى هكذا

« لا تؤاخذني يارفيقى القديم اذا كنت فى شغل من شأنك فلقد كنت اليوم فى محادثة طويلة مع شقيقتى ميللى ومعبودتك

كاثلين وقر قرارنا على ان نرسل رجلافى أثر جيمس لورى العجوز خشية مكره . فلا تخش شيئاً وكن مطمئناً . ويمكنك أن تمضى فى مهمتك غير وجل أو متردد ودون أن تخون عهدك معه . ثم احترس لنفسك حتى ألحق بك فانى فى طريقى اليك

« اما الفتاتان فهما جاثيتان الآن جنبا لجنب يضرعان الى المولى جل جلاله شفقة ورحمة عليك وقبلانى من اجل هذه التضحية الحقيرة التى سأقوم بها من أجل صداقتنا واخلاصنا ويجدر بك أن تحذر الايطالى وتخشاه فطلعته لا تنم عن خير. فهو يذبح امه فى سبيل المال : وكل شىء جائز فى شرعة الحب والحرب»

ولما انتهى كينيث من مطالعة كتاب صديقه رفع قليلا سجف المركبة المقفلة فبصر بالباخرة التى ستقله الي مصر منتظرة بالميناء وتذكر ذلك العهد الذى نزل فيه رجال السيف المتوحشين يظلهم لواء الهلال بهذه البقعة وصيروها بلقعا حتى فى القرن الثامن وهنا تمتم

« والآن فان الصليب ضد الهلال . ولكننا نحارب اليوم بسلاح المال والدهاء لا بسلاح الحديد والنار . فلعمرى هذا عهد طغيان الشراهة والانانية »

ترجل الشاب من العربة ثم ولج المطعم وعبر الردهة . ولما تمثل فى الحجرة التى ينتظره فيها جيمس لورى البنكير قام هذا

اليه مرحبا واشار اليه بالجلوس وقال

« اجلس ياولدى وتناول طعامك اذ يجب علينا ان نبرح مرسيليا غدا فأنت مراقب جد المراقبة . وايضافهناك من يراقبني طول سفري من لندن الى هنا . وساعود في هذا المساء الى (متز) (فأوستند) (فدوفر) . اما نحن فنراقب بحذر مصطفى فهمى باشا . وسأرسلك الى مصر ومعك اوامر مختومة . وفى اسكندرية ستسلم اليك التعليمات المفصلة مختومة بخاتمى . وقد احضرت لك خاتما لاستخدامه في رسائلك . واحذر فان فهمى باشا لا يعرف غيرى وغير دافيد هارت وليس يعرف غيرنا ماهية جيشنا المالى العرمرم »

وبعد أن فرغا من طعامها استأنف البنكير حديثه

« والآن فاني أسر اليك بأوامرى الاخيرة فلايعزب عن ذاكرتك أن حياتك ربما توقفت على مبلغ نجاحك في أخفاء سر مهمتك عن كل من قنصلى فرنسا وانجلترا

« وربما كان بين يديك مستقبل مصر . وعلى حكمتك وخبرتك يتوقف مستقبل اسماعيل باشا فاما ان يقصى الى مقعد المنفى السياسى أو يستمر في تربعه على عرش مصر حتى يقتله النعيم والرفاهية

« فالارقام لاتكذب وان كذب اسماعيل . وسيقرر تقريرك

خاتمة أمره . فانت تمثل الف مليون (سترلينج) وستعمل مع الخديوى شخصيا . وانا مدركون بان ليس هناك مايقاوم ارادة مجلس عموم انجلترا القوية الرهيبة . ولكننا نرغب قبل كل شيء بان نستخدم قوتنا المالية فى احلال السلام والعدالة محل البغضاء والشحناء »

وهنا رن صوت البنكير رنين التأثر والانفعال لذكرى تلك الحياة المسلحة التى يعيش فيها العالم وقال

« ونحن الآن فى انتظار ماتعمله انجلترا فى جهادها الضرورى لكى تضع القروض التى ليست مضمونة على قواعد أكيدة ثابتة حتى اذا ما تقوض عرش اسماعيل تصبح أموالها فى أمان وسلام كما نرجو أن لاتتعارض مصالحنا الذاتية مع مصالح حكومة جلالة الملكة . غير أن ضماننا ونجاحنا يتوقفان على أن لانعلم دولتى فرنسا وانجلترا بمشروعنا هذا وان كان لايهم فرنسا كثيرا ولكنها تعمل فى مصر مع انجلترا متضامنة

« والآن فقد جعلنا مصطفى باشا فهمى تحت رقابتنا حيث اكتشفت بأنه يراقبنى ويتعقبنى الى بنك بنيامين وأولاده . لذلك زرت فى هذين اليومين كل بيت مالى فى انجلترا تعمية له وتضليلا أما أنت فراقب كذلك جد المراقبة على مايظهر . لذا فان الأمر موكول الى نجاحك فى خدع كل الرقباء وتضليلهم »

وهنا ناول الشاب كتاب الاحرف الجفرية وقال

« احفظ هذا معك . وما عليك الآن تتلفه عند حدوث أي خطر . أما الوكيل الذى يحمل خاتمى فعنده كتاب مثله . وها هى قطعة من الورق مكتوب عليها مواضيع مختلفة لتكون لديك كأنموذج لخطى الشخصى »

فسأله الشاب

«وماذا عن قناصل جنرالات ايطاليا وروسيا وأوستريا ؟ »(١)

فأجاب البنكير

« وهم سيكونون أصدقاءك المصريين ولكن لا تبحث شيئاً معهم ولا تفضى اليهم بشيء عن مهمتك . ولكن اقبل حمايتهم وولاءهم .

« وسيضع القنصل الايطالى تحت يدك مرشداً يوصلك مباشرة الى شريف باشا فائتمر بأمره طول رحلتك دون أن تتركه يعلم شيئاً عن مهمتك ويجب أن لا يعلم شيئاً منها. وسيصدر شريف أوامره لتقديمك الى الخديوى ولكن لا تجعله يدرك شيئاً»

فسأل الشاب

«حينئذ ستكون مهمتى مع الخديوى ؟ »

---

(١) النمسا

فهز العجوز رأسه بالايجاب

« أجل فكل عمل سيكون بينك وبين الخديوى مباشرة وسنسلم اليك أوامرنا المختومة عن يد قنصل جنرال ايطاليا فى الاسكندرية وهناك يصحبك مرشدك فتبتدىء مأموريتك الحقيقية مع اسماعيل وتنتهى اذا ماوصلتك وصول رسائلك وبرقياتك من وكيلنا المراسل

« وعليك أن لاتبقى على سطر واحد أوقصاصة من الورق ولا أن تحادث أحدا بشأن هذه المهمة . فليس لك شأن ببلاط الخديوى أو الحالة السياسية. وانما غرضك الذى يجب أن تتوخاه هو موارد الخديوى المالية والاصلاحات الممكنة والتحسينات الهامة لزيادة موارده الخاصة . وعليه أن يبسط أمامنا أسراره المالية كما يبسط الطفل كراسة أعماله أمام مربيه »

فقاطعه الشاب

« وهل كنوز الخديوي ومحفوظاته الخاصة تدخل ضمن مهمتى ؟ »

فاجاب البنكير

« أود أن يكون كذلك . فلدينا خمسون وكيلا ينقبون فى أرجاء أوربا عن كنوز الخديوى المهربة بينما شريف الماكر يحافظ بدهاء على أسرار كنوزه الخاصة

« وربما كانت هذه الكنوز مخبوءة فى ايطاليا أو النمسا أو فرنسا لان الخديوى يحتفظ بها لوقت الشدة · ولكن مهمتك تنحصر الآن فى فحص مايتمتع به الخديوى مع بحث سجلات موارده الظاهرة والموارد الاميرية ثم الاتفاقات وتسويات القروض الخاصة والعامة وتعهدات التاج

« أما وقد قلت لك مافيه الكفاية فان كلمتى الاخيرة اليك

« ان نجاحك فى الحياة بل حياتك نفسها تتوقف على جلدك وحزامتك واستقامتك وحذرك »

فاجاب الشاب بحماس

« أجل فسأقوم بعمل خطير فى ظلال الاهرام ! »

هنا استطرد البنكير حديثه

« نعم فسيكون عملك خطيراً وجليلا معا . ولكن أذكر بأنه من الحكمة والحزامة أن لاتثق بامرأة أو غلام من أحط حمار (مكار) الى شريف باشا نفسه . فاعمل كآلة صماء تؤدى وظيفتها بانتظام واضطراد دون أن تؤثر فيها العوامل الخارجية

«فى المباريات والالعاب المالية يجب على الخبير الحكيم أن لايتأثر بأية عاطفة . أما أنا فسأدير عملياتنا المقبلة لهذه الاكوام الذهبية بهدوء وحذق · فلو كذب عليك اسماعيل أو تهل أو تلكا أو اخفى عنك الحقيقة فلن يكون الذنب ذنبك . وانما

عليك أن تنفذ أوامرنا بأمانة وحكمة وعناية وسد على اسماعيل كل المسالك المنطقية ومناحى البلاغةوسبل المراوغة والمطل حتى تستخلص الحقيقة الجلية من فمه

« وأزيد على تقدم فأقول . نحن لا نبغى منك الا الحقائق الاكيدة الثابتة . فلا تعمد فى تقديراتك المالية على الفروض والنظريات

« فمناظر مصر الاثريةالخلابة وتاريخها الممتع المجيد كل ذلك ان يخلب لبك أو يسلبك ارادتك . فنحن انما نريدمنك حسابات باردة وتقديرات مجردة ظاهرة

فاستفهم كينيث

« ولكن ماهى هيئة الخديوى وما هية أطباعه ؟ »

فأجابه لورى متهنداً بعدأن نظر الى ساعته

« لقد اختلف العالم اختلافا مذموماً مضحكا فى وصف هذا الامير وتقدير شخصيته .

« فالبعض يراه رجلا مقداما حراً كريما ذا مواهب سامية وأنه ابو الفلاح . كما أنه رب الطريق المائي بين الشرق والغرب . واليه يرجع الفضل فى تعميم السكك الحديدية والخطوط التلغرافية وتنظيم القاهرة وتحسين حالها . وبالاجمال فهو يمثل هارون الرشيد على الطراز الباريسى . Haron Al Rachid à la mode de Paris

وهم يدعونه (أبا السباع) (١)

« هذه هي صورة اسماعيل الحقيقية صديق دلسبس (ربيب ولية نعمته الامبراطورة السابقة أوجين)

« والبعض الآخر يراه رجلا ثقيلا ورخوا بدينا ملتحيا متوسط العمر منغمسا في الملاذ ممسكا باسباب الترف غير مخلص جبانا منافقا لا يثبت على مشيئة واحدة. ولا تزال براحتيه آثار دم اسماعيل باشا صديق المفتش وفؤاد أقرب وريث للعرش

« أما ظهر الفلاح المسكين فلا يزال يقطر دما من آثار الكرباج وحيد القرن. فهو لم يأت معه من فرنسا بغير مساوئه المصقولة كي يستر بها حقيقته

« وهو ابن ابراهيم أسد سوريا والنجل الاكبر لتلك المرأة التي شغف بها محمد على الشكس شغفا يفوق العبادة. حبا لا يدانيه هيام بطرس بكاترين وافتتان نلسن الجنوني « بهجيا »

---

(١) لمحة تاريخية (ترجع تسمية ابي السباع الى عهد الدولة الطولونية فقد أقام احمد ابن طولون قصره البديع المعروف بالميدان في القطائع واتخذ له بابا فخما جعل فوق كل من عضادتيه أسدا من الجبس ولذلك سمي (باب السباع) ولقد بدأت نهضة الفنون الجميلة في مصر بالسباع ودامت كذلك الى أيام الظاهر بيبرس حتى أعادها اسماعيل باشا الخديوي فقد بدأها بتلك السباع الاربعة المحمولة فوق اكتاف كوبري قصر النيل ولذلك سمي اسماعيل الخديوى (ابو السباع)

وهنا قهقه البنكير العتيد من الغيظ حينما تذكر تلك النكبة المروعة التي حلت بالمماليك في القلعة وهم سابحون في دمائهم تحت قدمي محمد على الجبار وقال

« فليكن كل ذلك . فهذا ليس من شأننا . ولكني أقول لك بان محمد على حبا في احياء ذكرى هذه المرأة أتى عليه يوم زوج فيه علنا كل فتيات الحرملك بضباط البلاط

« ولما انقض ابراهيم باشا ابنه الاكبر على « عكا » تلك المدينة العظيمة التي استعصى امرها على قلب الاسد Coeur de lion وأخيرا أدخلت اليأس الى قلب نابليون بونابارت وكسرت شكيمة كبريائه رأى محمد على أن يضم ذلك الابن المظفر الى قلبه الابوي الحنون

« ولقد كان ابراهيم أسد سوريا ثاني وال على مصر بعد ابيه لمدة شهور بعد ان واروا محمد على في ذلك المسجد الفخم بقلعته المنيعة . ثم جاء بعده عباس وسعيد ماين سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٦٣ (١)

---

(١) عباس باشا الاول (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وهو ابن طوسون ابن محمدعلى تولى الملك فكان أول عمله أن قلب النظام الذى وضعه جده رأسا على عقب غير مفرق بين الضار والنافع فأنقص الجيش واغلق المعامل والمدارس وأقال الكثير من الموظفين الاجانب واظهر تعلقه بالانظمة والعادات الاهلية والتركية . وكان مدة حكمه بعزل من

« ولـكن فى سنة ١٦٨٣ اعتـلى اسماعيل باشا – بواسطة سيطرته علي الجيش – عرش مصر بطريقة تشبه من كل وجوهها تلك الطريقـة التي انبعها « ريتشارد الاحدب» Richard's the. Hunchback فلقد سلب العرش من وريث سعيد بينما كان ابوه يلهو فى أوروبا

« وهكذا فان بذور انهيار ذلك العرش المكين انما بذرها

الناس متهاونا فى شؤون بلاده

وفي أيامه انشيء أول خط حديدى فى مصر وهو الخط ما بين مصر والاسكندرية

وقتل غيلة فى قصره ببنها وتولى الملك بعده عمه سعيد باشا في ١٢ يوليو سنة ١٨٥٤

وكان سعيد محبوبا فى حداثة سنه من والده محمد على فرباه بمدارس فرنسا تربية أهلته لتولى زمام الحكم . ولقد قبض على زمام البلاد وهى فى حالة تغبط عليها . فليس عليهـا شيء من الديون الاجنبية والدخل السنوى البالغ ثلاثة ملايين من الجنيهات كاف لسد حاجات البلاد والتجارة ناجحة والزراعة فى تقدم وتحسن وكان شغله الشاغل تنظيم الجيش ومع ضعف أخلاقه فكان مخلصـا لبلاده فمد السكك الحديدية وحفر الترع وغرس الاشجار واصدر قانون الاراضي الشهير سنة ١٨٥٨ الذى جعل الفلاح المالك الحقيقى لمـا يملكه من الارض غـير أنه لم يشجع التعليم كسلفه وهـو اول من فتح باب الاستدانة لمصر واذن لفـرديناند دلسبس بحفر ترعة السويس المعرب

اسماعيل خلف ذلك القناع الدموى

« اما أولئكم المحكمين الفرنسيس الماكرين فقد اثقلوا كاهل مصر المسكينة بطلبات مجحفة لاقبل لها بها . وكان ذلك نتيجة لازبة لذلك الخطل او الهبل المضحك الذى اتاه سعيد بالنسبة لمشروع القنال . فلقد استعمل دلسبس الداهية كل حيلة فى حمل اسماعيل على تنفيذ هـذا المشروع الخطير . ذلك المشروع الذى وان كان أفاد العالم الا انه أضر بمصر ضرراً بليغا . كل ذلك بينما كان اسماعيل ينساق على مهل فى تيار ملاذه المقيمة يحيط به زمرة خسيسة من مروجي مشروع القنال

« وكما أن الاستمرار فى الخطل يوجب الاغراق فيه فقد اندفع اسماعيل خلف تلك المشروعات الهائلة التى لم تكن المالية أو الموارد المصرية قبل باحتمالها .فلقد جد فى مد السكك الحديدية والخطوط التلغرافيـة صوب خط الاستواء حيث لن ينتفع بها فى المستقبل غير انجلترا

« ولماذا زاد اسماعيل الجيش فى سنة ٦٩ ودعا الضباط الامريكيين لتدريبه أخذ يفكر فى قطع كل علاقة له بانجلترا

« وهكذا خدعه الحظ فى كل تقديراته وآماله . وسرعان ما فقد استقلاله فى العمل وقبض مولاه سلطان تركيا على اسطوله المصفح الذى شيد فى فرنسا وانقطع سبيل الكسب عن طريق

القطن وقصب السكر حينما وضعت الحرب الاهلية الامريكية أوزارهـا وأمست القاهـرة الحديثـة Modern Cairo السبب المباشر فى خرابه ونكبته وافلاسه .

« أما تلك المشروعات الواسعة والاعمال العظيمة التى أراد بها ترقية مصر وأخذها باسباب المدنية الحـديثة فقد جعلته فى النهاية بـلا عضد أو نصير . واصبح الآن تحت رحمـة فرنسا صديقته الحميمة بالامس والتى استولت على ثلاثة أخماس سندات القنال . ولـكنى أصدقك بأن السياسة لاقلب لها . ويأتى بعـد فرنسا انجلترا . وهذه سيأتى يوم تسيطر فيه على كل بلاد اسماعيل وتجعلها معسكراً لحشد جيوشها لحماية طريق الهند القصير والسيطرة على كل شمال أفريقيا . وربما جاء يوم تصبح فيه أرض مصر ميدان حرب طاحنة مابين روسيا وانجلترا .

« هذا هو اسماعيل كما يتصوره البعض والذى أصبح ألعوبة فى أيدى أولئك الذين يسعون فى فناء مصر وخرابها

« أما نحن الذين لنا حقوق خاصة معينة فربما وفقنا فى النهاية للاخذ بيده واقالته من عثرته وتثبيت القواعد التى ستبنى عليها التسويات المقبلة لقروض شريف الهائلة

« ولـكن اذا ما كذب عليك اسماعيل أو خادعك أو ماطلك فسيقضى البقية من حياته كشريد أو سجين يجرأ ذيال الافلاس

والخجل فى احدى القلاع العثمانية على ضفاف البوسفور »

فسأله كينيث « ومن يأتى بعده ؟ »

فأجاب البنكير

« سيأتى بعده من ترضى به انجلترا وتسمح به روسيا . . .

« ولما أرسل اسماعيل غردون باشا الى السودان ظن أنه ألقى بالطعم للحوت البريطاني . ولكنه كان فى الواقع يسخر من كبرياء الشعب البريطانى وكرامته حينما قال (يقولون بأنى لا أثق بالرجال الانكليز . فهلا وثقت من غردون باشا ؟ان غردون وان كان رجلا اداريا شريفا الا أنه ليس بالسياسى المحنك)

« والآن فان الزبير باشا تاجر الرقيق وقرصان العاج فى السودان أصبح وله من النفوذ الحقيقى عند اسماعيل مايفوق نفوذ شارلس جورج غردون وسلطته . حقاً ان هناك عاصفة تؤذن بالهبوب فالصراع القائم بين نوبار باشا وشريف باشا أضنى مصر ذلك البلد المسكين . وهذان الرجلان اللذان لا يعملان الا لمصلحتهما الخاصة ومصلحة حلفائهما الغربيين أصبحا يتسلطان على ذلك الخديوى الذى أخذ نفوذه ينهار كرمل الصحراء المنحدر

« أما فرنسا فستعمل سرا على مد نفوذها وفتوحاتها من الجزائر عن طريق « تمبكتو » الى قلب أفريقيا . « فأوليفيا ربان » ومن على شاكلته من الرحالة والرواد الفرنسيس يحرضون همج

السودان على القيام فى وجه اسماعيل . أما الايطاليون فينهشون جانب الاملاك المصرية من جهة مصوع . وأدهى من ذلك فان المسكوف (الروس) يساعدون الأحباش ويمدونهم سراً بالمعونة الحربية

« أما راتب باشا ذلك القائد الضعيف فانه لما قاد الخمسة عشر الف جندى من المصريين الى مذبحتهم الدامية الفظيعة فى سهول «جورا» بالحبشة كانت تعلم القطعان الحبشية حق العلم مقدار ما عليه قادة الفلاحين من الأفكار السخيفة تفصيلياً وما ينتوون عمله .

« فالجنرال «فاديف» الروسى كان يرقب أعمال الحملة المصرية من وقت تكوينها فى الشتاء . ولقد ساعد صنائع القيصر جند الاحباش فى قطر المدافع المسلوبة والأسلحة المغنومة (١)

(١) كانت مشكلة الحدود ما بين مصر والحبشة عاملا عظيما فى نعوب الحرب بين البلدين فقد ضمت الحكومة المصرية الى املاكها فى السودان الشرقى بلاد البوغوس وبركة القضارف على يد (منزنجر باشا) والى مصوع ثم ارادات ان تفصل فى مسألة الحدود بينها وبين الحبشة بقوة السلاح فجهزت حملة بقيادة (أرندروب بك) للاستيلاء على بعض المقاطعات يتمكن بها من مد خط حديدى بين مصوع والخرطوم عن طريق كسلا و(التاكه) فرفضت الحبشة طلب القائد ولما رأي أن الحبشة جهزت جيشا للهجوم عليه من جهات ثلاث عزم علي بدئها

« لنرفع الستار من الآن عن خمسين عاما مقبلة. فبينما تصبح جيوش روسيا مشتبكة في حرب طاحنة مع فيالق انجلترا في أرض مصر من أجل قناة السويس فان الأحباش سيزحفون في محاذاة النيل دون مقاومة لمعونة المسكوف . لأن السودان ستثور وجيش الأحباش (المتروس Russianised) سيكتسح الأراضي النيلية حتى الشلال الأول . والمشروع كله موجه ضد انجلترا »

بالهجوم ولكن دارت الدائرة على الجيش المصرى . وكذلك قامت حملة (منزنجر باشا) حاكم السودان الشرقي والبحر الاحمر فى سنة ١٨٧٥ فعزم الخديوى على غسل الاهانة بالدم والفتك بالحبشة فجهز جيشا عظيما نصب عليه راتب باشا قائدا عاما والجنرال (لورنج) باشا الامريكى رئيس اركان حربه

ولما نزل الجيش الى مصوع بقيادة راتب باشا ومعه (الامير حسن باشا ثالث انجال الخديوى) أخذ يزحف على بلاد الحبشة فتوغل حتى وصل الي (قرع) فى يناير سنة ١٨٧٦ فأخذت تنصاع اليه بعض القبائل وتنضم تحت لوائه

اما الاحباش فجمعوا جموعهم وهاجموا المصريين من جهات عديدة وبعد معركة لم تدم طويلا تشتت شمل الجيش المصرى ونجا راتب باشا والأمير حسن من بين براثن الموت بمعجزة غريبة

ثم تم الصلح فى ابريل سنة ٧٦ وعاد راتب باشا والامير حسن وفلول الجيش المصرى المنهزم الى مصر المعرب

فاستفهم الشاب «ومن له مصر فى النهاية ؟»

فأجاب لورى مفكراً

«آه ياصاحبي الصغير . ربما كان لقيصر روسيا أن يجيبك على هذا السؤال فى سنة ١٩١٠ (١)

«أما أنت فما عليك الا أن تذهب الى مصر وتعمل لنا حسابا دقيقا وتتحقق مما اذا كان هناك ضمان للقرض الذى نقدمه لانقاذ مصر وذلك بارسال بعض ماعلكه من ملايين الذهب وهكذا يصبح دافيد هارت «يوسف الصديق» الجديد أرسله الله لانقاذ مصر من نكبتها المروعة. والافنترك اسماعيل يسير فى طريقه المنحدر حتى يرد الماء الذى وردها صديقه المفتش قبله أو يرد المنفى الذى أوردها عمه وأخاه من قبل» ....

كانت الشمس قد مالت عن الافق فانصرف مستر ملكولم كرانفود (كينيث جريفث) وقصد فندقه . ولقد وصل الفندق

---

(١) لم تقع حرب الامم فى سنة ١٩١٠ بل وقعت فى سنة ١٩١٤ وهذ فرق بسيط جدا لا يؤثر على نبوءة المؤلف أو اراء القوم فى ذلك الحين أى منذ خمس وأربعين سنة . ولو لم يكن ذلك الحلف بين انجلترا وفرنسا وروسيا والذى لم يكن لاحد التنبؤ به لتنافر المصالح فى ذلك الحين وعدم ظهور المانيا بالمظهر الجدى فى سبيل الاستعمار لصدقت نبوءة هذا المؤلف السياسى الحكيم وتحققت تكهناته

المعرب

راجلا لان لورى أوصى السائق بذلك . وكانت التعليمات توجب عليه أن لا يبرح الفندق حتى يسمع نداء رفاقه فى منتصف الليل. وقبل ان يمس طعامه الذى أحضر خصيصا له فى غرفته قام يفحص متاعه. وهنا أدركه الغضب والذهول فقد وجد قصاصات الورق فى غير موضعها . ولكنه عاد فتمالك نفسه وقال

« لاريب أن هناك اعداء سريين قاموا فى غيبتى بتفتيش متاعى »

ثم بدأ يتناول طعامه دون أن يأخذ جرعة من الخمر . . . .

وفى منتصف الليل سمع طرقا خفيفا على باب حجرته فارتدى ثيابه صامتا وتبع الخادم ـ ولكن لم تمض نصف ساعة على صعوده الى السفينة «سفنكس» Sphinx فى حوض نابليون حتى صعدت اليها أيضا فتاة رشيقة من السلم الصغير

ولما استقر كينيث فى نومه لم يكن يظن بأن الكونت دى سانتا مارينا نازلا بالغرفة المجاورة لغرفته بالباخرة

وفى الصباح بينما كان يتنزه على ظهر البـاخرة رأي عدوه الايطالى يحادث تلك الفتاة الرشيقة فصاح غاضبا فى نفسه

« الويل له ! !

الفصل الخامس

(شرك وحبائل — فى ظل عمود بومباى (١) — مباغتة)

كانت السماء صافية الاديم فى غد اليوم التالى وقد وقف كينيث جريفث أو بالاحرى « ملكولم كرانفورد » يمتع نظره بمنظر البحر البهيج

وبعد هنيهة لاحت له شواطىء جزيرة كورسيكا بمناظرها الخلابة فاقترب منه أحد خدام السفينة وحادثه بالانكليزية السقيمة مهللا

«لقد هبت ريح المسترال (٢) ياسيدى مما يجعل الكل يترنحون. وعادة تهب عواصف قليلة مابين كورسيكا ومالطه »

هذه الملاحظات الفكاهية قطعت بحضور مراقب السفينة (الكمسارى) الفرنسى وقال باحترام

« هل لسيدى أن يتفضل فيضيف اسمه الكريم الى قائمة ركاب الدرجة الاولى ؟ »

---

(١) عمود بومباى Pompey Pillar باسكندرية وهو المعروف بعمود السوارى

(٢) المسترال ريح عاصفة شمالية تهب فى فصول معلومة من السنة وتنتشر على شواطىء فرنسا الجنوبية

فاجاب كينيث بأدب ودعة «أجل» ثم سطر اسمه فى القائمة .
ثم علم من المراقب بأن السفينة تحمل نحو الثلاثين من ركاب الدرجة الاولى علاوة على حمولة متنوعة من السكر وماكينات القطن مصدرة للخديوى وبعض الباشوات . كما انها تحمل أكثر من مائتى راكب بالدرجة الثانية ومجموعة منتخبة من أكرم جياد السباق برسم محبي اللهو والتنعم من أبناء القاهرة والاسكندرية .
ثم تابع المراقب حديثه بلغة ركيكة هى خليط من الفرنسية والانكليزية

« أظن سيدى من أغنياء الانكليز ممن يجوبون القارات طلبا للسرور وحباقى اللهو . انظر فإنى محدثك عن هؤلاء الركاب . فهناك « مدام الدوقة دى فاليريا » وهى سيدة عظيمة والى جانبها ابنتها الجميلة . ثم « ديفا » العظيمة و « موريللى » . الاولى ممثلة والثانية مغنيه غريدة وهما ممن حازا شهرة واسعة فى عالم اللهو والسرور وسيظهران عما قريب كنجمتين متلالأتين فى سماء الاوبرا الخديوية

« ثم كونت دى سانتا مارينا وهو من أفضل الملتصقين بصاحب السمو اسماعيل باشا وهو رجل جميل ضحاك طيب القلب »

فتبسم كينيث وسأل المراقب عن شخصية غادة حسناء كانت منهمكة فى رسم سجن (الكونت دى مونت خريستو) الصخرى مأوى ذى القناع الحديدى الذى لم يكتشف العالم أمره للآن .

فتمطى المراقب وتبسم وقال بلطف

«انها مدامو زيل (اندرى لافارج) من مدرسة الفنون الجميلة وهى مكلفة برسم الهيكل وأبي الهول والخرائب . وهي فى عهدتى خاصة كما أنها فتاة بارعة الجمال »

ولقد أطال الاستعلام من المراقب بفضل حيلته فعلم بأن (اندرى لافارج) وصلت الى السفينة مسرعة فى آخر لحظة وأن الكونت دى سانتا مارينا بصفته معتاد على السفر وصل الليلة الفائتة . ثم تمتم قائلا (أليست هذه هى الفتاة التى رأيتها مع هذا الايطالى ؟)ولقد ذعر حينما همس المراقب فى أذنه

« يريد الكبتن رؤيتك فاتبعنى ياسيدى ولا تدع أحداً يعلم بهذه الزيارة »

فتبع الشاب المراقب من ممر مظلم الى حيث غرفة الكبتن (ليفاشو) الخاصة. وهناك صرف الكبتن المراقب بلطف وأردف الباب وراءه ثم خاطب الشاب بالانكليزية الفصحى

« لقد أرسلت فى طلبك قبل أن يلحظ أى مسافر هذه الزيارة. وأزيدك علما بأنى مسئول عن سلامتك وحياتك شخصيا بمقتضى أوامر خاصة من شركة (المساجيرى ماريتيم) وانى أعرف من أنت ومن يظاهرك فهو مستر لورى اكبر مساهمى شركتنا ، لذلك كن مطمئنا على سلامتك كأنك فى بيتك

« انما يجب عليك أن تحزم كل ثمين لديك وتختمه وتتركه عندى كي أحفظه لك فى خزانتى الخاصة » وهنا قدم اليه الكبتن ليفاشو مظروفا مختوما بنفس الخاتم الموضوع على الظرف الموجود لديه ففضه وقرأ فيه ما يأتى :—

« ثق بالكبتن ليفاشو كل الثقة ودع عنده كل ثمين لديك فهو موكل بحراستك . وعليك أن تتبع نصائحه . اتلف هذه الرسالة فى الحال » « جيمس لورى »

ثم استأنف الكبتن حديثه

« يجب أن لا تحضر الىّ الا اذا أرسلت المراقب فى طلبك كيلا يلحظ البعض أمرنا. ولقد أعطيتك المقعد الثانى على مائدتى بما أنى الضابط الوحيد الذى يجيد الانكليزية . وسأبذل كل جهدى من أجل راحتك وترضيتك ولكنى سأظهر قليلا من الميل اليك . فاجعل سميرك كتاب الدليل وتسليتك المطالعة

« أما الدوقة دى فاليريا فستكون على يمينى بينما تكون ابنتها الفاتنة على يسارى . وهى سيدة عظيمة وحكيمة . وعليك أن تراقب دى سانتا مارينا حيث سيكون مكانه من المائدة تجاهك. وهو جاسوس ماكر فلا تلعب معه الورق لانه يربح دائما كما أنه ممن يحسنون طعن الخنجر

« أما باقى رجال الأوبرا على ظهر السفينة فلا تخش منهم

سوء! فكلهم سهل الانقياد. ولكن احذر «دى موريللى» فهى ممن يأكلن لحم البشر. أما البافون فليسوا الا زمرة من الافاقين والسياح

«وسأفتش الغرف الساعة الثانية فاحزم حاجتك الثمينة واختمها ثم سلمها الىّ ولا تترك شيئا فى غرفتك ينم عن سر مهمتك

« ولقد جعلنا لورى جميعا مسئولين عن سلامتك . فكن حكيما واذكر بأن الخمر والميسر والمرأة هى أعدى عدو بنى الانسان وأسباب ذلته فى الحياة »

فهم الشاب بالانصراف وقال

«لى كلمة واحدة. فهل تلك المصورة «مس اندرى لافارج» رفيقة كونت دى سانتا مارينا ؟ لانى أمقت نظرات هذا الرجل»

فأجاب الكبتن بعد أعمال الفكرة

« أنها فتاة مستقيمة على مايظهر وهى قاصدة مصر لرسم بعض الوجهاء والآثار ولم يرها سانتا مارينا قبل أن تقلع باخرتنا من الميناء وهى تحسن الانكليزية. ولقد استقبلتها بنفسى على ظهر الباخرة فلا تخشاها »

وكان الوقت قد حان لأن يترك مستر ملكولم كرانفورد الكبتن ليفاشو لأعمال هامة ولأن الريح العالية كانت قد بدأت بالهبوب وبدأت زمجرة العاصفة تدوى فى الجو بدوى مفزع

فتملأ النفس رهبة ورعبا . أما الباخرة سفنكس المثقلة بالاحمال فقد بدأت تترنح على غير قرار فى ذلك البحر الخضم الهائج

وبعد ست وثلاثين ساعة أمكن مستر ملكولم كرانفورد أن يمتع نظره لأول مرة بجزيرة كورسيكا . وتبين له أنه الوحيد على ظهر السفينة . وهنا تنهد وقال

«أنا الحاكم المطلق على كل ما أحيط به(١)

« والآن فليس ثمت من خطر أو خاف مريب . فشكراً للأب نبتين إله البحر (٢) »

ولكن سرعان ما انقشع الغيم وظهرت أشعة الشمس الذهبية على صفحة البحر اللازوردى والذى هدأ بعد ثورانه فبدأ ركاب الدرجة الأولى يفدون الى ظهر الباخرة متأبطين مبتدئين فكونت دى سانتا مارينا ومنتهين بدوقة دى فاليريا الباشة بوريللى آكلة لحوم البشر كما وصفها الكابتن ليفاشو وان كان البعض يعتبرها كوكبا ساطعا فى سماء ميلانو الصافية

وكانوا قد اقتربوا من مالطة حينما كانت مدامو زيل أندرى لافارج وقاعدة رسمها محط انظار الركاب وموضع أعجابهم

---

(١) هذه الجملة هي صدر قصيدة بالانكليزية اسمها «المنفى»

(٢) نبتون هو اله البحر ويمثل باله يونانى يحمل حربة ذات ثلاث شعب . وهو أيضا اسم لنجم اكتشف فى سنة ١٨٤٦

ولقد قدم الكبتن ليفاشو « مستر ملكولم كرانفورد » الى تلك الدائرة الانيقة الجذابة من السيدات وبينهن دى موريللى التى كانت تتظاهر بمظهر الثقة والاطمئنان . ولما جلس جماعتهم الى المائدة كان ملكولم كرانفورد الى جانب الدوقة دى فاليريا ولقد ظهر له فى برهة وجيزة بأنها على علم تام بالمجتمع المصرى رغما من تحفظها وهدوئها ورزانتها

وكانت الموسيقى توقع لحنا يطاليا شجيا بينما كانت سفنكس تشق طريقها فى ذلك البحر الخضم صوب مالطه

وعندما رست السفينة عندمالطه صعد اليها بعض الركاب المتطربشين . وهنا ظهر لأول مرة الطربوش الأحمر رمز المدنية الشرقية العريقة

ولقد بلغ التعارف مابين ملكولم كرانفورد والدوقة دى فاليريا مبلغا مدهشا كما لو مر على تعارفهما أعوام . فكانا يتجاذبان معا فى ذلك المساء على ظهر الباخرة الأحاديث الاجتماعية العامة ولقد بدت على شفتى الشاب ابتسامة الارتياح حينما لاحظ أن الكونت دى سانتا ماريتا يتعقب موريللى عين الحية . وحتى الدوقة اضطرت أن تنظر اليه نظرة معنوية وضغطت على يده بمؤخر ساعدها وتمتمت مبتسمة

« عزيزى ! احذر هذاالبولوشينل (المهرج ـ المسخ) (٢) .
فلقد راقبت أدوار تدرج مسيو ستروبلوجو

(Mon Ami ! Beware of that Polichinelle)

فمن خادم الى ترجمان فوصيف للباشوات ثم الى مركزه الحالى وهو كونت دي سانتا مارينا. فشخصيته النبيلة الزائفة تشبه من كل الوجوه جواهره البراقة الكاذبة . وأنت صغير ويسرني ان أجد فيك مايسليني فقد قال لى عزيزى الكبتن ليفاشو ! . . . »

فقاطعها كينيث

« هل اعتدت الذهاب الى مصر ؟ »

فأجابته :

« نعم ذهبت اليها كثيرا فى فصول الشتاء عقب المرة الاولى التى رافقت فيها الامبراطورة أوجينى فى أفراح افتتاح القنال الزاهرة . ولن أنسى يوم (١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩) »

وهنا ظهرت رنة الحزن والالم فى صوت الدوقة

« أجل ذلك اليوم الذى كنت أجوب فيه مع المرحوم زوجى تلك الملاهى والافراح الفاخرة التى كلفت الخزينة المصرية مايربو على الخمسة عشر مليون سترلنج ذهبا . وهكذا وردت

---

(٢) بلوشينل هو اسم شخص مهذار فى الكوميدى الايطالى المعروف بالكراكوز أو العيوظ

ماء النيل السحرى العذب. ومتى حل الصيف رجعت الي فرنسا ثانية وكنت اذا ماجن السحر رأيت الهدوء يشمل أرض مصر وشعرت براحة ودعة محبوبة . وتلك الدعة السحرية الى توجب الاستسلام خلفتها سبع أمم غابرة حكمت مصر فى أزمان مختلفة . تلك هى القصة السحرية الخالدة والتى تركت أثرا فى كل نفس مصرية من خليج (أبى قير) حيث قبرت آمال فرنسا فى الشرق الى قصر أنس الوجود بجزيرة فيلة حيث يسود السكون وتطيب الاقامة حسنت مستقرا ومقاما »

ثم سارا متأبطين وتابعت حديثها

« نعم انى أحب مصر . وأحب منها الى ميناء الاسكندرية المزدحمة المائجة جوهرة الدلتا اليتيمة حيث يجللها النخيل وتجتازها الابل تشق طريقها فى ذلك المنبسط الزمردى حتى قنال السويس وتشرف عليها سماء صافية تزينها الكواكب المتلألئة الوضاءة .

«وانى لاعشق هذه الفوضى الجنسية وتلك المدينة المائجة بأناس ذوي نحل واديان وعقائد متباينة حيث قضى بومبي نحبه وذهب كل ما أودعه العالم من الفنون والعرفان فى بطون الكتب طعمة للنيران (١) وحيث القت كليلوباتره الغيورة الهائجة بقلبها

---

(١) تشير الي حرق مكتبة الاسكندريه العظيمة وهذه الحريق ينسبها بعض مؤرخى الافرنج خطأ الى عمرو بن العاص حين فتح مصر

المحترق بين ذراعي قيصر الفاتح . فمصر مسرح عظيم لعواطف الجنس البشرى على اختلاف نحله ومذاهبه»

فسألها الشاب باحترام «وهل تؤمنين كثيرا حضرة الخديوى اسماعيل ؟»

فأجابته متنهدة

« أنى اعيش فى مصر فريدة وليس لى فيها الا القليل من الاصدقاء النبلاء أخص بالذكر منهم قنصل جنرال روسيا حيث كانت زوجه رفيقتى فى مدرسة (Sacré Coeur)(القلب المقدس) اما الباقون فانى اترفع عن مخالطتهم والتعرف بهم لاسيما تلك الفئة السافلة التى تسكن قصور الخديوى الاربعين

« ولحديث العهد بمصر مثلك يظهر كل شيء بهجا مفرحا جذابا ولكن ليس فى حقيقته الا بريقا كاذبا يضيء نفسه ولا يتعدى دائرته الضيقة

«وانى لنا خلة لك صدري فكاشفة عما يجول به . فلاتوجد زمرة من الاوغاد أحط واسفل من أولئك النفر المنافقين الافاكين الذين يحيطون بشخص الخديوى اسماعيل ويكونون بطانته . فمن ضباط متقاعدين الى اشراف مبعدين من أوطانهم الى ذوى حيثيات كاذبة ومظاهر خادعة خلابة فأفاقين فمقامرين فوكلاء مشروعات جوفاء كاذبة لامتصاص دماء مصر واموالها

وتعجيل خرابها الى جواسيس سفلة مفترين أخص بالذكر منهم هذا ! » واشارات بيدها الى الكونت دى سانتا ماريثا الذى كان ماثلا أمامها بجوار موريللى

«فهو يفكر الآن فيما اذا كان شريف الماكر أو نوبار البارد أو راتب الخسيس سيأوونها الى حريماتهم . أوأن . . . الخديوى اسماعيل سيفتح باب قصر عابدين على مصراعيه لهذه المغنية السافلة المرتزقة . فاذكر كلماتى هذه ولا تنساها ولا تثق بواحد من رجال بلاط القاهرة »

فصاح الشاب

« انها لصورة قاتمة رهيبة ايتها الدوقة!»

فاجابته

« ولكنها لم ترسم بعد ياسيدى

« وانى اعلم اكثر من ذلك . أعرف أن اسماعيل يعمل مع شريف ضد نوبار ولكنه غير مخلص لكليهما . أما الفلاح البائس فيرفع صوته عاليا بالشكوي من تأثير الكرباج الذى أدمى ظهره بينما هناك نحو الثمانمائة غادة متكاسلة متقاعدة تنعم فى تلك القصور الشاهقة فى القاهرة ولا يعرفن للبؤس معنى .

بل الحقيقه أن قرقلا امبراطور الرومان لما هزأ منه الاسكندريون وثاروا عليه أمر بحرق المدينة وحرقت مما المكتبة المذكورة ضمنا

فهناك غادات جمعت من الهمبرا أو (الفول برجير)(١)وصالات فينا الموسيقية وخيام النور (الغجر) والبدو والفتيات الشركسية والجورجية . أما اسماعيل ذلك المليك المعجب بمشروعاته وأعماله فاذا ماسمع ترجيع الابواق النحاسيه وهى تعزف ألحان عائدة فيسبح فى عالم الخيال والآمال ويحلم باحياء مجد مصر العظيمة أرض الفراعنة الحكماء الاشداء أو تمثيل مفاخر الاسكندر أو اعمال محمد على الحديدى او القبض على مفتاحي الهند وأرض الزامورين وهما جزيرتا أرموز وبرسبق (٢) بتلك القبضة التي تشبه قبضة نابليون المستميتة أو أن يبلغ عظمة نيرون وشهرته(٣) »

فسألها الشاب

« أظن أن مولاتى الدوقة لاتعنى كثيرا بهذه الامور ؟ »

فضغطت على يده مبتسمة وقالت

---

(١) محل خاص بالعاهرات بباريس كوجه البركة عندنا واسم ايضا لتياترو هناك

(٢) جزيرتان فى المحيط الهندى بين مدخل الخليج الفارسى وبحر العرب .

(٣) نيرون أحد أباطرة الرومان مابين سنة ٥٤ الى سنة ٦٨ بعد الميلاد وهو أخر سلالة قياصرة روما وهو ابن دومنيوس وكان ظالما قاسيا حاز شهرة في التاريخ لقسوته فى احراق روما بينما كان يشرف على تل يشهد عذاب شبعه ونكبته

« سنتكلم عن هذه الامور متى اصبحنا فى ظلال الاهرام وأبي الهول حيث نفترش ذلك الصعيد الطيب وتلك الرمال المحرقة وما علينا الا أن نظل صديقين

« فجدى كان من أشجع ضباط نابليون الذى حاربوا معـه فى واقعة الاهرام (١)

« فأنا من انصار الملكية حتى مفزع الروح الى خالقها. وأنى أؤكد لك بأنه مسطور فى الكواكب بأن الطرف الشرقى للبحر الابيض المتوسط سيكون المحور الذى تدور عليه رحى تنازع السيطرة على العالم فى المستقبل. فلقد جمع بين عجيجـه المتلاطم تاريخ العالم المؤلم. أجل فهذا جميعه مسطر فى الكواكب المضطربة

« فلو لم يكن هنالك ما يدعى حصار عـكا (٢) لاتاح القدر

---

(١) موقعة الاهرام أو انبابة وهى التى شتت فيها نابليون فيالق المماليك بعد أن خطب فى جنده تلك الخطبة التاريخيـة الجليلة مشجعا اياه على القتال لما رآه من تخوفهم من مقاتلة المماليك وأولهـا « ان أربعين قرنا تطل عليكم من قمة هذه الاهرام» وذلك فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨

(٢) لقد مرت ادوار بمدينة عكا كانت فيه محط أنظار الفاتحين. فلوك مصر الاقدمـين كلما رغبوا في شن الغارة على سوريا وما بين النهرين وآشوريا وبابل كانوا يزحفون بحرا على مدن الساحل ليجعلوا منها مركزا لتموين جيوشهم لقرب الطريق بحراً. ومن بين هذه المدن صيدا وصور وعكا.

لنابليون أن يشق طريقه الى الهند الحديثة. فثله كمثل الاسكندر غلبه الحظ على أمره عند تلك المدينة العتيقة المنيعة . فهى معركة قضت على نفسها بنفسها كمراك تلاميذ المدرسة

« فالقدر والمدافع الانكليزية وسير سدنى سميث(١) والطاعون الوافد وغيره كلها قوى رهيبة وقفت فى طريق آمال نابليون العريضة

« نابليون ! ! اليك أفزع وأنت فرنسا أيتها الامبراطورية المتيدة !! ياالهى كم تألمت ! فهل عشت لارى ذلك البدين البروسى(٢) يأكل الخاطر يا امام قبة الانفاليد ؟. اجـل فاقد مات زوجي ذلك

وجاءت دولة المماليك فبدأ صلاح الدين الايوبى باخراج الصليبيين من الارض المقدسة وتبعه بيبرس ثم قلاوون . ولكن بقيت عـكا فى أيدى الصليبيين وكان السلطان قلاوون قد أعد عدته لطرد الصليبيين منها ولكنه وافاه القضاء عقب خروجه من القاهرة

تجرد ابنه الاشراف خليل بن قلاوون لهذا العمل الخطير فسقطت عكا فى يده تلك المدنية المنيعة التى استعصى أمرها على كثير من القواد والغازين . وبذا تم عمل صلاح الدين العظيم

(١) سير سدنى سميث هو قائد أسطول البحر الابيض المتوسط الانكليزى وهو الذى ساعد احمـد باشا الجزار والى عكا فى الدفاع عنها ضد جيوش نابليون مما عجل فى هزيمة نابليون

(٢) يشير بذلك الى الجيش البروسى حينما اكتسح كل فرنسا وصارت الجند على ابواب باريس المعرب

الجندى النابه فى موقعة سيدان . والآن فانى أتولك باريس الثائرة الهائجة لاحلم بأمبراطورية شرقية فقدناها الى الابد فى ارض الاسر البائدة بين اجداث الفنون الذائمة المنسية .

« ولكن دعنا من هذه الذكرى الاليمة ولنرجع الى تلك الذكرى الشيقة الخالدة . فابراهيم والد اسماعيل كان نصيبه فى الاناضول غير نصيب نابليون . وسطر له القدر بقلم من نار ذكرى اقتحامه عكا وقهرها . هذا هو القدر العجيب والقضاء الرهيب الهائل »

ولقد اشتدت الريح وهاج البحر حينما صاحت فازعة

« انى لا أكره البحر ! فلو لم يكن هناك ما يسمونه نلسن لا نتفي ما يسمى واقعة النيل أو واقعة الطرف الاغر(١)

---

(١) موقعة النيل في اول اغسطس سنة ٩٨ هي الموقعة البحرية بخليج ابي قير بين الاسطولين الفرنسي والانكليزى حيث حطم فيها الاسطول الانكليزى بقيادة نلسن على قلة عدده اسطول فرنسا الضخم وبذا قضى على أكبر أمل لنابليون واضعف من همته الثائرة وقد حدثت اثناء تلك المعركة الحاسمة قصة ذلك الفتى الشهم النبيل المسمى (كاسبيانكا) وهى قصيدة انكليزية مشهورة ولقد كان الاسطول الفرنسي يفوق الاسطول الانكليزى فى العدد واقام الفرنسيس القلاع والاستحكامات على الشواطىء لمعاونة الاسطول ولكن نلسن تمكن من شطر الاسطول الفرنسي شطرين أحاط بالاول من الجانبين وفتك

« لذا فانى أرى فى مناظر ضواحى القاهرة وفى فجر المقطم الوردى وفى مصانع بولاق وفى رمال ليبيا المحرقة التاريخ الحقيق الحديث لفراعنة مصر

« وانى لا ترفع عن تلك المساعى الدنيئة والوشايات السافلة التى يقوم بها نفر ممن لا خلاق لهم فى البلاط المصرى وأنفر من كل شيء فيه. فلا تستغوينى حفلاته وأفراحه وحتى تلك الافراح ومعالم الزينة الباطلة (لمولد طنطا) ولن تؤثر فى نفسى مناظر غوازى الحرملك ولا ابتسامات الباشوات البدينين ولن تبهرنى حمرة الشفق وقت غروب الشمس فوق طيبة والاقصر والكرنك ودندرة

« ان مايحبب الىّ أرض مصر ويجتذبنى اليها هى أشباح « أوزيريس » و « سيزوستريس » و« كامبيس » وتلك الحائط الصخرية للشلال حيث وقف تقدم اليونان والرومان عند فيلة(١) وقد أذهلتهم تلك العظمة التى لا يقاوم تأثيرها فى النفس والسلطان « ولست أدرى ماهية عواطفك وأميالك . ولكن تعال معى

به ثم شتت شمل الشطر الاخر . وفيها جرح نلسن ومات بروبس قائد الاسطول الفرنسي . اما موقعة الطرف الاغر فهي التى قتل فيها نلسن بين رجاله عندما اقتربت ساعة النصر

(١) فيلة جزيزة بالنيل بها قصر أنس الوجود

حيث تهب الريح حارة لافحة تسف الرمال وحيث موطيء أقدام أولئك الابطال وتلك المليكات الذين حكموا مصر النابهة العظيمة بينما كان يحكم أوروبا نفر من البورجوير سكان المغائر والغابات

« فكر فى صخور سيناء المتوردة حيث ردت بصلابتها الاسكندر وقيصر ونابليون من حيث أتوا . فمصر طالما جذبت نحوها عظماء الرجال والابطال كما يجذب القمر ماء المحيط

«فبقايارفات«يومبای» دفعت بها الريح فانتشرت على شواطئها واختلطت بهوائها . وقبر الاسكندر دفين بين صفائحها وتحت رمالها . ولقد اختلط دم كليبر (١) الفانى بتربتها الحارة الصفراء

« ولكن لما قامت جيوشنا الفرنسية فى وجه كل العالم سطر جندنا هذه السطور الخالدة على جدران فيله

« فى السنة السادسة للجمهورية فى يوم ١٣ ميسودور نزل بالاسكندرية جيش فرنسى يقوده بونابرت وهذا الجيش قضى

---

(١) كليبر هو قائد الجيوش الفرنسية فى مصر بعد سفر نابليون الفجائى لفرنسا اثناء الحملة الفرنسية . وقد طعنه سليمان الحلبى طعنة قاتلة بالقرب من بركة الازبكية امام جراندهوتل (الان الكونتننتال) وذلك بايعاز من أحد زعماء المماليك على ما يقال فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وخلفه مينو والبعض يقول بأنه انتقم لما أتاه نابليون مع أهل الشام

المغرب

عشرين يوما فى مطاردته المماليك من شمال الدلتا الى الشلال حيث وصل اليها فى اليوم الثالث عشر من شهر فنتوز من السنة السابعة للجمهورية »

ثم تنهدت وقالت متحمسة

« وحتى فى نفس هذه الموقعة الداميه وقف جـدى شاهرا سيفه بيمينه واصطلى نارها وخب فيها ووضع »

ثم أسندت رأسها براحتيها جامعة شتات أفكارها وتابعت حديثها .

« والآن فان غردون يمهـد الطريق الى خط الاستواء للتجارة الانكليزية سالـكا نفس السـبيل التى سلكها « سير صمويل بيكر » لاصطياد العاج . وهكذا يقـترب الأسـد البريطانى من فريسته رويدا رويدا

« أما فرنسا وايطاليا فهما على جهل وعمى مما يدور فى مصر بينما سمو البرنس المطلق وقف ولا حيلة له ينتظر خروجه أيضا من مصر كطاه خامل (طباخ بلا شهرة) »

ولما رأت أن هناك ابتسامة تعلو شفتى الشاب أنسلت من جانبه بدلال وتركته حيران معجبا بلطفها ودلالها

وفى ساعة متأخرة من الليل قصد حجرته وهو يقلب وجوه الرأى فى أمر هذه الدوقة الرشيقة وتمتم قائلا :

«لاجرم أن الدوقة ليست الا كليوباترة الحديثة أفعى النيل العتيق جاءتنا فى زي جديد

« أجل فلقد كانت كليوباتره فى الحادية والعشرين من عمرها حينما استعبدت « يوليوس قيصر » ولقد زارت روما ولما تبلغ الرابعة والعشرين فى مهرجان ماوكي جاليال ووهبها قيصر « القيصرون » . ولم تكن تبلغ الثامنة والعشرين من سنيها حينما أوقعت أنطونيو فى شراكها ثم ملكته ثانية فى الثالثة والثلاثين من أوكتافو العجوز . أما مابين الثالثة والثلاثين الى التاسعة والثلاثين فكانت قد حازت شهرة واسعة في الجمال وأسرت أكابر القواد وصيرتهم رهن اشارتها وطوع ارادتها

« والآن فهذه الدوقة فاليريا أوكليوباترة الحديثة تقول أنها طلقت الحب الى الأبد ولما تبلغ الرابعة والثلاثين »

وكان الشاب لايزال سابحا فى تيار تأملاته بشأن الدوقة حينما طرق الكبتن زجاج النافذة ودخل باشا وقال

« أى بني العزيز ! دعني أقدم لك أولا سيجارة مصرية نفيسة ثم نصيحة خالصة غالية

«أن مدام الدوقة صديقة طيبة مخلصة . غير انى رأيت أكابر الباشوات يركعون عند قدميها . أما صاحب السمو البرنس المطاق فمع سعة حيلته وفرط دهائه فلم يظفر منها بطائل . وأما

عليك فهى أبعد من الجوزاء .

« فلقد أودى « ستاهرمبرج » من ثلاث سنين من أجلها بحياة رجل كريم . وجرح أحد الدوقات نفسه جرحا مميتا لانها ابتسمت له مرة ثم غيرت أفكارها من جهته . ولقد سمعتك تقرر بأنك ان تسلك فى مصر سبيل الوهم والخيال. وهذه سجية فيك لو حققتها تحسد عليها . وخير لك أن تتعقب موريللى فهى على أية حالة عصفور يطير . ثم احفظ عليك سرك فالنساء نساء مهما تباينت أطباعهن وأشكالهن »

وكان كلام الكابتن قد ترك أثراً فعالا فى نفسه فسرعان ماطرد شبح الدوقة من ذاكرته واتجه بكل عواطفه الى موريللى فقد تذكر أنها ضغطت على يده فى الصباح وهمست فى أذنه

« يجب أن نلتقى فى القاهرة ياسيدى الانكليزى فانى أراك على غاية من اللطف والكمال »

فى تلك الساعه كان أرنستو (كونت دي سانتا مارينا) وموريللى مختليين معا وهى تقول :

« لاتبال يا ارنستو ويجب أن تداوم على تصنعك حب (اجليه) ثم تجنب حضرتي بقدر الامكان . فلقد أدنيت هذا الانكليزي البارحة من حبائلي . وفى الساعة التى يزورنى فيها فى حجرتى بالقاهرة فسأجهز عليه . لانى لم أفشل فى حياتي فى

« ولكن اذكر وعدك لى ! سوار ملوكى من الماس . فلقد أقسمت بأن أظفر بهذا الشاب من الدوقة التى تشبه العروس الخشبية ، ولا يبعد أن تكون واحدة منا وعلى شا كلتنا

« وليس فى قدرتى الايقاع بها فربما كانت تمثل دورا من أدوارنا ، وهى تكرهنى من كل قلبها لانها تعرفنى من قديم ، وهنا فى الباخرة يوجد لشريف ثلاثة جواسيس وربما كانت هذه رابعتهم . فمصر مهبط الاباطيل »

فى ذلك المساء وردت على كينيث برقية مجهولة العنوان :

« سأتبعك فى بحر أسبوع فكن حذرا وأرقب كل من يحيط بك ولا تثق بأحد » «شارلس »

كانت السفينة لم تبلغ بعد ميناء الاسكندرية حينما دعا السكيتن ليفاشو الشاب كينيث الى حجرته الخاصة وقال

« ولدى ! ستبدأ عملك فى الغد تحيط بك اخطار هائلة من اللحظة التى تطأ فيها قدمك أرض مصر . فلا تحادث أحدا فى غير حضرتى متى بلغت الشاطىء

« ومع انك حكيم ورزين فقد خلبت الدوقة لبك فلا تحاول اخفاء ذلك عنى »

فى هذه اللحظة ظهر أمام عينى الشاب شبح كاثلين لورى

الطاهر فى دعته وجماله واخلاصه فأجاب

« أخبرنى ما أعمله وسترانى طوع أمرك »

فأجاب الكبتن

« كل ما أرجوه منك أن تكون حريصا رزينا . فودع كل من تعرفت بهم على ظهر الباخرة هـذا المساء . وعما قريب ستلتقى بهم فى مصر

« وليس للحياة فى مصر المشمسة قوانين واجبـة التنفيذ . والقوانين لم توضع الا وهى قابلة للنسخ والتنقيح والتبديل . لا سيما فى الاسفار

« ولقد راقبت سانتا ماريانا جد المراقبة فألفيتـه يتجسس عليك ويقتفى أثرك كما يقتفى الصياد المجهد فريسته المتعبة . فتجنب لقاءه فى المستقبل ولقاء أصـدقائه فهو على صلة بأكبر عصبية مجرمة سفاكة فى مصر »

حاول بعض ذلك كينيث أن ينام ولكنه أخذ يستعرض فى ذاكرته صورة ماروته له الدوقة دى فاليريا عن أرض مصر سواء عن النيل أو عن تلك الاقاصيص والحوادث البائدة أو تلك الظلال الساكنة والتماثيل الملوكية فى ممفيس وبنى حسن وجرجا وادفو . فلقد صورت له الدوقة بمهارة تلك القصة الموحشة عن بلاد « ان شاء الله » و « ماشاء الله » و « وبسم الله »

ثم أخذ يتمثل فى مخيلته عظمة طيبة والكرنك وآثور . ولما لم يغلبه النعاس صعد الى ظهر السفينة فوجد الدوقة مثله قد تملكها السهد والارق .

وكان النسيم الحار الذى يهب من الصحراء الليبية قد أسكره فلم يرشبحا أمامه غير هيكل الدوقة الحقيقى وعينيها الساحرتين البراقتين وأخذ يسمع حلو حديثها عن ملك الأشوريين والفرس واليونان والرومان والجورجيين والشركس فالعرب فالعثمانيين على التعاقب . ثم أخذت تحدثه عن مجد نابليون الخلاب الذى ناله بحد سيفه وفتوحاته . ثم عهد محمد على وما تلته من الايام المظلمة حتى عهد اسماعيل . فسألها الشاب

« لماذا تحدثيني بكل ذلك . وماذا تريدينه مني ياسيدتي ؟ »

فأجابته الدوقة متنهدة

« لقد اعتنتني على نحو الحديث ياعزيزي . لانى أريد مكاشفتك بأنى لاأود أن تمر من حياتى ! فأنت أقرب الى مما تتوهم وتظن وأرانى وليس لى جلد على نسيانك وكثيرا ماتناله المرأة التى تحب وأكثر منه التى تكره . وأنى أعرف الناس بهمتك . ورجائى ان تقابلنى غدا عند الساعة الثانية بالقرب من عمود عباى لان القطار الذى سيقلك الى القاهرة سيبرح الاسكندرية غدا

مساء فلا تخش شيئا فلدى خادمان مسلحان على استعداد الطوارىء سيتبعانك حتى العمود فثق بي

« واني مدركة أنك ستلعب دورا خطيرا مهلكا ولكنك لم تعرف شيئا عن حقيقته للآن » وهنا همست في اذنه بضع كلمات أفزعته وجعلته يتمتم

« من أنت أيتها المرأة ؟ أملاك أم شيطان ؟ »

فأجابته بهدوء وبشاشة

« فلأكن ماتشاء فلست الا ابنة حديثة من بنات النيل ووريثة أسرار رهيبة قبرت طويلا فى قبور الفراعنة وملوك مصر الاقدمين

« وأبغض الىّ هذا الدور الذى تلعبه انجلترا فى مصر . واقد حضرت خصيصا لمعارضتها وكسبا للوقت ولكى أشهد بأن هذا الدور مهما كانت عوامله سيمثل بعدالة وعزة نفس وكرامة أمة عظيمة نبيلة

« أما غرضكم فهو غايتي . فلا تحدثني عن شيء أعلمه وسأعلمك به : وانى أعرف من هم أعداؤك على ظهر السفينة . وسيكون لك أعداء آخرون متى وطأت قدمك أرض مصر . وسأعرف عنهم الكثير متى أظلتنا معا ظلال الاهرام

« أما أوامرك المختومة فلا تهمنى لانى أعرفها جميعها . ومتى

تقابلنا عنـد عمـود بومبى سأخـبرك بكل ماسيحدث لك فى الاسـكندرية »

وهنا تركته وحيداً حائراً وعلى شفتيها ابتسامة خلابة أولها كل منهما بمقدار ادراكه وأمياله . . . . . . ولما استيقظ ملكولم كرانفورد (كينيث) فى الصباح كانت الباخرة (سفنكس) راسية على بعد ألف ياردة تقريباً من مدخل ميناء الاسـكندرية. فرأى خليجها اللازوردى يمتد الى الداخل وأبصر بالميناء الجديدة ومناراتها وقباب المساجـد ومآذنها الاسطوانية والمنشورية الشاهقة . ثم سمع تلك الضجـة المنبعثة من مئات من الزوارق . ورأى هناك زورقا بخاريا يحمـل علماً أحمراً يتوسطه الهلال وثلاث نجـوم مكتظاً بضباط متطربشين . وفى مؤخر سفنكس رأى كونت دى سانتا مارينا يلوح له مودعا

وهناك كثبان رملية صفراء على امتـداد الشاطىء وقلعـة عظيمة منصوب عليها مدفعية ضخمة ثم دائرة من زوارق المياه العميقة راسية حول سفنكس وثلاث مدرعات ضخمة سوداء يعلوها العلم البريطانى

فأخذ يستعرض ماأظهره له سانتا مارينا من الادب والمجاملة فى المساء وتلك النظرات المعنوية التى كانت ترنو بها اليه دى موريللى ثم نظرات تلك المصورة (لافارج) التى كلها حنو وأشفاق فوجه

الدوقة يفيض دعة وبشاشة وما كشفت له عن أسراره الخاصة التي لم يدرك أكثرها للآن .

وبعد خمس دقائق كان قد حزم متاعه فحمله البحار وأدلى به في القارب ومنه الى الشاطىء

ولما أصبح هو والكبتن ليفاشو في نصف الطريق الى الى الشاطىء سلمه هذا برقية من شارلس جروسفنر

« سأبرح اليوم برنديزى فكن يقظا وسألتقي بك عما قريب في القاهرة »

« تشارلس »

ولما بلغا الشاطىء أخذ الكبتن ليفاشو يدفع عنه الحمارة والحمالة والادلاء والتراجمة وخدمة الفنادق حتى وصلا الى عربة يتقدمها اثنان من السياس وقواص قنصل ايطاليا . وبعد عدة دقائق كان الكبتن ليفاشو يصافح الشاب في غرفة استقبال السنيور ديليباني مودعا وقال

« هاهو دليلك وناصحك . والآن فقد أتممت مهمتي . وهاهي رزمتك فأوسع عينيك وأحذر كل النسوة اللائي قابلتهن على ظهر الباخرة فجميعهن كاهنات لآلهة الجمال (فينوس) . أما الدوقه فلا أعرف شيئاً من أمرها وانصحك بأن لا تتلمس حضرتها وأن لا تثق بامرىء في مصر غير نفسك »

ولما انصرف الكبتن بدأ القنصل حديثه وعلى وجهه أمارات الوجل والانقباض

« من الخطل ان لم يكن من الخبل ان يأمن الانسان على نفسه وحيداً فى شوارع الاسكندرية . وسيصل الرجل الذى سيقابلك من القاهرة هذا المساء عند الساعة السادسة بقطار مخصوص ويعود بك اليها الساعة السابعة فى نفس القطار فتصلا الساعة الثامنة صباحا . وسأقوم بنفسى مع حرس من اتباعى عرافقتك حتى القطار وهناك أسلمك ملف أوامرك المختومة . وبعدئذ يصبح أمرك ومستقبلك بين يديك »

لقد كانت تساور كينيث اوملكولم بعض الهموم لخطورة مهمته . اذ لو اكتشف أمره جاسوس أو خائن لذهبت آماله فى المستقبل أدراج الرياح

وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر حينما ركب عربة السنيور (فيتوريو ديلبيانى) . وهناك نزل بجوار عمود السوارى حيث كان موعد الدوقه دى فاليريا فوجدها بانتظاره فى عربتها وهذه أشارت عليه بالركوب للتجول قليلا خشية من أن يتبعهما رقيب

وبينما كانت المركبة تشق طريقها فى تلك الجموع المائجة فى شوارع الاسكندرية كانت تقص عليه الدوقة ماجعله يصفر عجبا ووجلا

« دعني اظهر لك قوة اللوتوس السحرية (١) . ولكن عاهدني بأنك اذا ما انبئني صادقة أن تعودني في القاهرة وأن تتركني أقاسمك مخاطرك ومخاوفك اذا سمح بذلك شرفك وكرامتك

« ستبرح اليوم الاسكندرية الى القاهرة الساعة السابعة في عربة مخصوصة وسيسلم اليك سنيور ويلبياني قنصل جنرال ايطاليا أوامرك المختومة

« أما الرجل الذي يأتي من القاهرة للعودة بك اليها فهو سنيور أرثور شير ويني وهو من أعز أصدقائي

« فتدبر أمرك وزن كلماتي وكن صامتا . وبما أنك ستكون جزءا لاينفصل من حياتي فأضرع اليك أن لاتقطع ثقتك في أمرأة تخلص لك جدالاخلاص دون أن تسألك شيئا . ولا يعزبن عن بالك أن كليو باتره كانت سببا مباشراً في حظ وانتصار انطونيو في سوريا وأعالي الفرات وربما كان لذاك الروماني العظيم أن يتعلم كثيرا عن تلك المرأة الداهية . أما أنا فاجعلني كليوباتره الجلية الامينة تحارب من أجلك وتحت لوائك دون أن تسألك الوثوق بها الآن . ورجائي أن تعاهدني على أن تزورني في القاهرة »

فتفرس الشاب في وجهها طويلا ثم أجاب

« أعاهدك بأن أعودك في القاهرة وأن أثق بك بقدر

---

(١) اللوتوس مثل الزنبق وهو نبات مصري

مايسمح به شرف مهمتي ياسيدتي » هنا ارتجفت يدها اللدنة (١) المرمرية من الفرح بين يديه الهزيلتين وقالت

«الآن اذكرني واذهب لشأنك في الحال فها هي عربتك تتبعنا»

وما وطئت قدم ملكولم الارض حتى أسرعت مركبة الدوقة تشق طريقها في منبسط تحف جانبيه أشجار النخيل الباسقة . . . .

بعد ذلك بثلاث ساعات تولى ملكولم الذهول حينما قاده سنيور ديلبياني الى مركبته ذات السجف الحريرية وسلمه ملفه وقال

« هاهو دليلك سنيور أرثور شيروبيني . والآن فقد انتهت مأموريتي »

تقدم اليه سنيور سروبيني مصافحاً ولما صعد ملكولم الى مركبة القطار أبصر أمامه ما أدهشه . فلقد وجد خادمه اللندني (سومز Soams) وهذا فاجأه بالكلام

« ظننت بأني سأباغتك بلقائي ياسيدي . والآن فاني على تمام الاستعداد لخدمتك »

فصاح كينيث مذهولا

« ياللشيطان ! ! من أنت ومن أين جئت ؟ »

(١) اللدن الطرى

ولكن خادمه سومز تبسم ووضع أصبعه على شفتيه مؤذنا بالسكوت

الجزء الثانى — النقش على الجدار

الفصل السادس

(شريف باشا يشترك فى تمثيل الدور — سمو الخديوى اسماعيل — جيرة سوء — ليشيين بائعة الزهور — فى حفلة سيدات فينا)

« ها هو مكانك من المركبة يامستر كرانفورد . ورجلك هذا عنده من الاخبار الهامة مايود أن يحدثك عنها . أما احتراماتى فسأقدمها لك فيما بعد »

هذا ما قاله قنصل جنرال ايطاليا للشاب. ثم اندفعت المركبة فى طريقها صوب قلعة الرملة قبل أن يستجمع كينيث (ملكولم) حواسه المشتتة مما ألم به من الدهشة والعجب

اما سومز فكان قد أرتج بابها وأخذ يخرج من صدره بعض المستندات بينما كان كينيث يحاول فهم الاسباب التى حملت القنصل ديلبيانى على أن يتركه دون كلمة وداع أو مجاملة

ولقد أزعجه اختفاء الدوقة فجأة تلك المرأة ذات الاسرار الغريبة بعد أن حركت فى نفسه كثيرا من المخاوف والاوهام

فهل كانت اندفعت حقيقة بمربتها نحو حديقة أحد الباشوات حينما التقى بها القواص أو كانت تحاول خداعه ؟ لا مراء أن الشاب لم يستطع أن يجد لوساوسه جوابا صريحا مقنعا

وحقا فقد كان السنيور ديلبيانى منزعجا لطول غيبته حتى لقد قدم اليه قرينته وكريمته ذات العينين الساحرتين مكرها . وقد كانت هذه المعاملة الجافة نتيجة لازبة لغياب الشاب الطويل ولقد رأى أن يتجنب كل مصادمة مع القنصل . فخرج الى شرفة قصره وأخذ يجيل ببصره معجبا بغروب الشمس وخليج الاسكندرية اللازوردى . فصاح به القنصل منزعجا وادخله من الشرفة بعنف وقال

« حسبك ماشاهدته يامستر كرانفورد من مناظر الاسكندرية فى نزهتك الطويلة. اعلم بانك تعرض حياة كلينا للخطر . فرجائى أن لاتظهر وجهك فى الاسكندرية حتى من شرفتى »

. . . . وقبل أن يتناول الاوراق التى قدمها له خادمه سومز أعاد عليه السؤال

« أى شيطان أتى بك الى هنا ؟ »

فهمس سومز بعد أن أشار الى جناح المركبة المجاور لهما

« صه ! فأن جارنا يجيد الانجليزية »

ثم قاد الخادم سيده إلى ركن بعيد من المركبة بينما كان يهب النسيم العليل من بحيرة مريوط وقال

« لقد اتيت رأسا من جينيف عن طريق مونت سينى فبرنديزى . وكان الفضل لمستر شارلى جروسفنر بأن جعل منى رجلا فرنسيا باريسيا. ثم ركبت الدرجه الثالثة وأدركتك بسهولة عند جينيفا . ومنها ابرقت لمستر شارلى بنادى السياح بلندن . وفى مكتب التلغراف قابلتنى سيدة تحمل بطاقته ثم ابتاعت لى تذكرتى الى برنديزى ودست لى عشرة جنيهات ثم اركبتني تابعها فى الباخرة. وبذا وصلت سالما الى الاسكندرية. وطبعا أنت تعرف بأن مستر شارلى سيكون فى أثرك فى أول باخرة تقلع من برنديزى . وسيلحق بى تابعه فى القاهرة

« ولقد اتيت بتحويل من المكتب . وبذا ترى أن سيكون منا أربعة بريطانيون فى مصر »

فرمقه كينيث بحدة وسأله مغتاظا

« أى مكتب ؟ »

فاجاب

« لماذا ياسيدى هذا السؤال ؛ أريد مكتب مساجيرى ماريتم هنا حيث أخبرتنى السيدة بأن ابرق لها منه . ولقد ارسلوا بصحبتى رجلا لم يفارقنى حتى تحرك بنا هذا القطار »

فسأله كينيث

« هل تعرف هذه السيدة ؟ وهل رأيتها هنا ؟ »

فاجاب سومز

« لقد كانت مقنعة حتى أني لم يمكنني ان أرى وجهها في جينيفا . وطبعا ان تكون هنا لاني تركتها هنالك . وهي ذات صوت شجي هادئ وثوبها على زي بكنجهام »

وهنا فض رسالة صغيرة من شارلس يخبره فيها بأن لالوم على سومز وأن كل ماعمله كان بأذنه وتدبيره وان لا يسأله أى سؤال اذ لو فعل لفقدا رجلا ذا بأس شديد ووعده بالافصاح عن السر متى تقابلا . هنا سأله كينيث بهدوء

« هل تحادثت مع ذلك الرجل الذى كان برفقتك ؟ »

فاجاب متململا

« كلا . فلقد سلموني اليه كالمتاع وكل ماقاله لى « ان ادخل وانتظر سيدك » . أما السيدة فقد اوصتني بأن لاأفارقك ليلا أو نهارا حتى يلحق بنا مستر شارلس جروسفنر فى القاهرة »

فسأله كينيث بشدة

« ألا تستطيع أن تذكر من هى السيدة ! اجهد فكرك قليلا !! »

فأجاب سومز بعد تفكير عميق

« لاأذكر شيئا عنها ياسيدى ! غير أنى أحمل أثرا منها فهاهو منديلها سقط منها سهوا حينما فارقتنى مسرعة فى جينيفا»

فتناول كينيث المنديل بتلهف وبعد أن فحصه ثم راحته فأدرك السر وتمتم مبتسما

« انه منديل كليلوباتره الحديثة وسأحتفظ به ياسومز »

ثم دس المنديل فى صدره وناول سومز مسدسه وقال

« عليك بحراسة هذه الحقيبة وأن تفتديها بحياتك. فحذار أن تفارقها لحظة واحدة »

ثم فتح الباب الفاصل بين جناحى المركبة ودخل ليقابل مرشده الجديد .فقابله هذا باشا وقال

« أتمشم يامستر كرانفورد أن تجد كل شىء فى موضعه وهنا يوجد كل ما تحتاجه من راحة وطعام وشراب. وانى مسئول عن سلامتك حتى تقابل رئيسى قنصل ايطاليا فى فندق الازبكيه»

فأجاب ملكولم (كينيث) مخادعا

« شكرا لك يامستر ارثور شروبينى . اسمح لى أن أهنئك على اجادتك الانكليزية »

فأجاب الايطالى متململا

« لقد كنت من خمس سنين ملحقا بالسفارة الايطالية بلندن . وخير لنا أن لا نتكلم فى هذا الموضوع هنا خصوصا

وانه لايوجد فى مصر من يقول الصدق

« ولكن دعنى أحدثك عن بروجرام رحلتنا حتى القاهرة فلن نقف عند كفر الزيات حيث يتراءى النيل لاول مرة عند عبورنا كوبرى السكة الحديديه ثم نبدل قطارنا عندطنطاوهناك يمكنك أن تتناول بعض القهوة الساخنة

« ومن طنطا نمر ببنها العسل فالقاهرة . أما أنا فلن أنام حيث أنى موكل بحراستك وبأن أبرق الى القاهرة عن وصولك سالما عند كل محطة من المحطات الثلاث »

فسأل كينيث عابسا

« يظهر لى أنى ذو اهمية كبرى فى مصر ؟ »

فاجاب شيروبينى .

« ان أشياء غريبة تقع هنا فى مصر . وخير لك أن تنام قليلا وأتعهد بأن أوقظك عند كفر الزيات لترى النيل ينساب بين منبسطين من السندس تزيده بهجة آلاف الكواكب الوضاءة . وفى طنطا يمكنك أيضا أن تنام لان مولد السيدالبدوى Patron Saint لايكون الا فى مايو » ..

وقبل أن يترك القطار تلك البقاع الرملية التى تحف ببحيرة مريوط ويدخل سهول الدلتا السندسية كان كينيث غارقا فى نومه تكلؤه عينا خادمه سومز . ولكم أغضبته تلك النظرات التهكمية

التى كان يلقيها عليه الايطالى وجعلته يشعر نحوه بكره شديد حتى قال فى نفسه

« ان هذا الرفيق المخادع لن يوقعنى فى حبائله بسهولة »

أما ارثور شيلوبينى فكان يتظاهر بعدم الاكتراث حينما استيقظ كينيث من نومه وأخذ يجيل ببصره مابين الارض والسماء ليشهد عظمة الليل العجيبة فى مصر ، ولقد لاحظ هذا الايطالى بأن سومز الخادم بدأ يأخذ قسطه من الراحة فادرك بأنه ربما كان له قصد فى توسده حقيبة سيده . وكم تواردت فى خاطر هذا الايطالى أفكار متضاربة تمر فى سرعة البرق ، وحقا فقد كانت أفكار يحركها الجبن وحب الاجرام ، غير أنه لم يتمالك أن تبسم حينما قدم لكينيث فنجانا من القهوة وأخذ يفتل شاربه بيد مرصعة بالجواهر ، وكم خطر له أن فنجانا آخر مخدرا عند طنطا كاف لنهو مهمته ، ثم تمتم فى نفسه

« الآن فهما اثنان وربما استيقظ الرفيق الآخر ولا يبعد أن يكون بوليسا سريا متخفيا . ولئن أسأت الى أحدهما ففى ذلك هلاكى ، وعلاوة على ماتقدم فربما لن يأكلا أو يشربا معا »

بعد ذلك أخذ يجامل كينيث ويسامره على الرغم منه ، ولما جلسا الى الطعام وجده لايمس شيئا حتى يسبقه هو اليه فقال فى نفسه وهو يذكر مجد الاسكندرية البائد

« أنه أكثر حيطة وأدهى مما أظن !

« ان الاسكندرية لاتضم بين جنبيها الا نفرا من أسافل التجار ولصوص اليونان اوزمرة دنيئة من سفلة اليهود الماكرين فالاسكندرية أقدم من القاهرة بألف سنة أو تزيد ومع ذلك فقد فارقها بأسها وأصبحت مرسى للسفن

« ومحمد (صلى الله عليه وسلم) لما استل سيف الاسلام سنة ٦١٠ معلنا الجهاد كانت الاسكندرية حاضرة البطالسة. ولقد أقفرها عمال الرومان على مصر . فقرقلا وأوريليان ودقلديانوس سلبوها كنوزها الفنية والصناعية الثمينة ليزيدوا بها في اسعاد روما الشرهة ورفاهيتها . أمامتطرفوا المسيحيين فقد جعلوا من شوارعها انهارا تفيض بدم الابرياء . وبذا بذتها القسطنطينية وأصبحت سيدتها وخنقتها بيد من حديد

« أما عمرو (سيف الله في أرضه) Amrou, The Sword of God فقد وضع باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) حدا لهذا الخراب الذى بدأه نفر من متعصبي المسيحية باسم النزاريين Nazarene (١)

« ولقد قضت اللهب التى أشعلها الاعراب على سوق آدابها

---

(١) النزاريون طائفة مسيحية تكونت مابين القرن الاول والرابع للميلاد

وعلومها النافقة حيث لم يكن يفوقها سوق فى العالم (١) »

ولما وصلا طنطا سأله الايطالى

« هل ستمكث طويلا فى القاهرة ؟ »

فأجاب كينيث

« لم أكون للآن أية فكرة عن ذلك . غير انى سأمكث بها بقدر ماتروق لى الحياة فيها ثم أذهب الى الهند حيث أكون قد مللت مناظر الموسكى وشبرا وفنياتكم الراقصات وأفراح حديقة الازبكية الساهرة »

ولقد زاد حنق كينيث على الايطالى حينما اقترب القطار من ضواحى بولاق وشاهد لاول مرة الاهرام الثلاثة ذات العظمة الخالدة الصامتة . لاحظ عليه سنيور شيرو بينى ذلك ففاجأه بداعبا

« ان أربعين قرنا تطل علينا من قمة هذه الاهرام (٢)

« ولكن دعنا ياسيدى من هذه السفسطة التاريخية فسأقودك الى غرفتك فى جراند هوتل (الكونتننتال الآن) Grand Hotle واعلم بانه محظور علينا التحادث علنا اذا ماجمعتنا الظروف ثانية :

---

(١) يشير بذلك الى حرق مكتبة الاسكندرية بواسطة العرب بأمر من عمرو بن العاص لما فتح مصر . ولكن الوقائع التاريخية أثبتت فساد هذه المزاعم . فالبعض يقول ان قرقلا أحرقها حينما سخر منه المصريون والبعض يقول بأنها احرقت اثناء مذابح اليهود .

(٢) هذه الجمله قالها نابليون فى خطبته قبل واقعة الاهرام الشهيرة

فقد تتقابل عند قنصل جنرال ايطاليا واذكر بأن كل ذى حيثية فى مصر مراقب جدالمراقبه. فن جواسيس الى نشالين فشحاذين ، وهؤلاء هم علة الاجتماع فى مصر »

أخذ بعد ذلك ملكولم كرانفورد (كينيث جريفث) يشهد ذلك المنظر البهج لقصور شبرا وخيام العباسية والقلعة الشاهقة يضاف الى ذلك صوارى السفن النيلية وتلك الذهبيات التى يسكنها باشوات وذوات (وجهاء) القاهرة نخيل اليه أنه يرى منظرا خياليا فى قصة خرافية

هنا تمثل له مجد القاهرة البائد يوم أن عششت اليمامة فى مضرب الخليفة (١)

ثم لاح له مسجد ابن طيلون فجامع السلطان حسن يعلو كلا منهما منارتان شامختان فى الجو

وكانت الطرق مكتظة بالحمير يحمل كل منها حملين من البرسيم الاخضر ثم صوت اجراسها الرنان ثم لابسى العمامات ناصعة البياض ومنظر الطربوش الاحمر وذلك اللون الكئيب القاتم لملاءات السيدات وتلك البراقع البيضاء التى تحجب طلعتهن ثم صيحات الحمارة فنداء السياس فصخيب متسولى الطرق . كل ذلك كون له فكرة صحيحة عن ماهية مصر القاهرة Masr El Kahira تلك المدينة البائسة

فالترك والعرب والاقباط واليهود والارمن والنوبيون ذو الطلائع النحاسية والسوريون ثم الجنود المصرية والخدم الخلاسية والسياح على اختلاف نحلهم كل هؤلاء يسدون مدخل محطة القاهرة . هنا تنهد كينيث

«هل لى أن أرى الدوقة ثانية . هل أجسر على الوثوق بها !!»

وصل القطار الى محطة القاهرة وكانت هناك عربة خاصة فى الانتظار فقفز اليها شروبينى ثم أتى خادم معمم يسمى عبدالله وقال

« إنى خادمك ياسيدى . تكرم واتبعنى الى عربتك حيث سنقتفى أثر الآخرين . أما عنى فأدعى عبد الله الترجمان مابين الخرطوم الى الدلتا وأعرف كل قيراط فى مصر كما أنى اجيد اللغات جميعها . وهناك عربة فى انتظار متاعك وخادمك فنحن لانبعد عن الفندق بأكثر من عشر دقائق »

لما وصل ملكولم كرانفورد الى الفندق فاجأه شروبينى

« اتبعنى يامستر كرانفورد لادلك على غرفتك الثانية . فاذا احتجت لامر فى الليل أو النهار فصفق بيديك فيأتى اليك خادمك عبد الله فى الحال . أما طعامك فسيجهز لك فى حجرة مخصوصة تحت رعاية مدير الفندق نفسه . أما هذه الشرفة فلرياضتك . وسيزورك مولاى قنصل جنرال ايطاليا هنا بعد ساعة فارجوك

ألا تبرح مكانك حتى يأتى اليـك »

ثم تمتم حين هم بالانصراف

« اذكر أننـا غرباء ويجب أن لا نتحادث الا اذا كنا فى القنصلية الايطالية »

ولما انصرف شيروبيني استدار ملكولم الى عبد الله وقال

« عليك أن لاتدع أحداً يزعجنى حتى أنت الا اذا طلبتك فانصرف الآن »

ثم أمر سومز بأن يفحص الغرف جيداً بينما كان هو يفض الاوامر المختومة بخاتم وتوقيع جيمس لورى . . . .

ولقد تقطب جبينه حينما دخل عليه خادمه سومز يحمل بطاقة فاختطفها وصاح غاضبا

« ماهذا ! ! أخبره بأنى لا أود مقابلته »

ثم رمى بالبطاقة على المكتب وكان مسطرا عليها

(لورنزو زخريا سمسار مبادلات خارجية)

Lorenzo Zocharia, Foreign Exchange Broker

هنا قدم اليه الخادم مظروفا وقال

«لقد أخبرنى بأنك اذا أصررت على عدم مقابلته أن أريك هذا»

نظر ملكولم الى المظروف فهم مسرعا حيث رأى عليه خاتم جيمس لورى المتفق عليه فيما بينهما وقال

« ادخله فى الحال واردف الباب وراءك ثم اتركنا سويا واجلس واحرس الباب لئلا يكون هناك من يسترق السمع وسأخبرك متى تفتحه. وراقب جيدا ذلك الماكر عبدالله الترجمان»

دخل الزائر فالفاه كينيث رجلاقد بلغ الستين نحيف الجسم أشقر اللحية والحاجبين متطر بشا فتمثلت له حالة أولئك اليهود الذين يعيشون عيشة البؤس بينما يقبضون على ناصية العالم المالى ويمتلكون كنوزه الواسعة

وبعد ان حياه زخريا الممول اليهودى قدم اليه مظروفا آخر مختوما وقال

«هل نحن وحيدان ؟ يجب أن أبرح غرفتك قبل أن يصلها قنصل جنرال ايطاليا. أماأنافتحت يدى برقيات عن كل حركاتك..»

فاجاب الشاب حانقا

« هل من سنيور شيروبينى ؟ »

فاجاب اليهودى باسما

« كلا ! بل من رجالنا العديدين الذين كانوا يراقبون حركاتك منذ وصولك الى الاسكندرية بينما نحن هنا نراقب القناصل الثلاثة الذين سيشتركون معك فى العمل بينما تقوم أنت بمراقبة الخديوى اسماعيل وشريف باشا وذالكما العدوين المعارضين لفكرتنا وهما كل من قنصل جنرال ايطاليا وفرنسا »

فضحك الشاب وقال

« أذن أجبنى أولا . ماذا كانت حركاتى فى الاسكندرية بعد ظهر أمس ؟ »

فأجاب اليهودى بهدوء

« هل لى أن أحدثك ؛ لقد كنت على موعد عند عمود بومبى مع غادة رشيقة هى الدوقة دى فاليريا . ولولم تكن يقظتنا لكان كونت دى سانتا مارينا واذنابه الذين ابصروك من شرفة قنصل جنرال ايطاليا بالاسكندرية يتعقبونك الآن . نعم فلقد صرفناهم عنك بأن خدعنا سانتا مارينا وسخرنا من مكره ودهائه »

فسأل الشاب بتلهف

« هل تعرف تلك الدوقة ؟ »

فأجاب زخريا

« ليس من شأنى أن أحدثك بشىء عنها . غير أنى أحذرك منها . ولقد علم الخديوى وشريف بوصولك . وسانتا مارينا سيكون هنا فى صباح الغد . ومتى وصل مستر شارلس جروسفنر فسيقوم بحراستك وتصبح بنجاة من كيد الكائدين مطمئن الخاطر . نعم فسيذكرك بشخص تحن لرؤياه وتحمل صورته الآن على صدرك »

فتمتم الشاب باسما

« انك لشيطان ماكر ! ولكن حدثني أولا فهل لى أن أثق بعبد الله الترجمان ؟ »

فأجاب الممول

« نعم ثق به عن نفسك فقط. لأنا في الحقيقة قد اشتريناه من الذين نصبوه رقيبا عليك. وخير لك أن لا تدعه يرى ورقة من أوراقك أو اسمع كلمة واحدة عن مهمتك »

هنا قبض الشاب مظروف جيمس لورى بيد منتفضة وقال

« انه يأمرنى بأن أحفظ كل أوراقى عندك . ولكن كيف يكون ذلك وأمر حضورك هنا يلحظه الجميع فى الحال ؟ »

فأجاب لورنزو

«ان عبدالله الترجمان سيدخلنى كل مساء الى حجرته خلسة بطريقة خفية سهلة . وأيضا فمندى مدخل حديقة الباشا . وانى محدثك بأنى مكثت فى القاهرة أكثر من ثلاثين سنة عرفت فيها كل اللغات والعادات . فعليك أن تدرس أوراقك جميعها هذا المساء قبل أن تذهب لمقابلة الدوقة دى فاليريا . ثم اختم ملفك وسلمه لى لاحفظه مع مستنداتى الخاصة فى خزانتى الحديدية .

«أما أنت ففى مقدورك المجىء الينا انى شئت»

فسأله الشاب محاذرا

« تقول بأنى سأرى الدوقة باكر فكيف عرفت ذلك ؟ »

فتبسم زخريا وأجاب

« انى أعرف أشياء كثيرة . أما الآن فسأنصرف حتى لا يرانى قنصل جنرال ايطاليا . ولا تبرح غرفتك حتى أزورك فى المساء »

لم تمر دقيقة على انصراف اليهودى حتى دخل عليه سومز يحمل بطاقة أخرى مسطراً فيها

(أندريا كاريولا قنصل جنرال صاحب الجلالة ملك ايطاليا)

Andrea Careola, Le Consul general de S. M. Le Roi d' Italie

دخل كينيث الى غرفة المقابلة وتقدم الى القنصل بقدم ثابتة وعزم رجل يحمل بين راحتيه حظ سبعة ملايين من البشر : وهو الآن أستاذ مالى لاحد الملوك الذين خلفوا الخلفاء الفاطميين الذين أتوا معهم من المغرب بعظام أجدادهم ورفات آبائهم وحكموا مصر أكثر من عشرة عصور . ثم الحاكم الحكيم (١) ذلك الخليفة المتنبى رسول الدروز فصلاح الدين الايوبى ذلك الرجل الذى ملأ الايمان قلبه فأنقذ الشرق بحميته وصدق ايمانه حتى أسر سان لويس : ثم سليم السفاك (٢) الذى ضرب على يد المماليك بيد من

---

(١) هو الحاكم بأمر الله المشهور

The Wise Hakem, The Frophet King of Druses

(٢) السلطان سليم سلطان العثمانيين والذى سلب الخلافه من مصر

حديد ونفض يدهم من حكم مصر فحمد علي ذلك الرجل الحديدي . كل من هؤلاء لعب دوره على مسرح القاهرة سيدة وادي النيل العتيق (١)

.... وبعد أن أجال القنصل ببصره في جوانب الغرفة وفتل شاربه الذي يشابه شارب مولاه فيكتور عما نويل قال

« لقد اقتربنا من النهاية باصديقي العزيز . وستنتهي مهمتي متى قدمتك في قصري الخاص الى الرجال الذين في طاعتنا أن نأمن جانبهم ونركن اليهم

« فالبارون «روتين الروسي» وكونت «جلوياس» قنصل جنرال النمسا متحدان معي في المحافظة على حياتك ومساعدتك في السراء . وكل منا له مهمة خاصة وكلها اليه جيمس لوري . وجميعنا نحارب مما وتحت لواء واحد «مسيو ليون» القنصل الفرنسي وذلك الكولونل «جرانتون بروس» الذي يمثل مملكتم انجلترا . هذا كل ما في الامر . أما الخديوي فعلى شفا اليأس والقنوط

« ففي كل يوم نباغت بأزمة مفزعة . وفي كل ساعة يأتمر شريف باشا بنوبار لاسقاط وزارته

« فاذا لم تتخذ اجراءآت خاصة في الحال لانقاذ المليوني جنيه التي تخص عملاءنا المصريين ـ بأن يحضر دافيد هارت يعضده

(١) The Father Nilus

جيمس لورى وبنيامين وأولاده تظاهرهم تلك الدائرة المالية الواسعة ـ فكل شيء يصبح في عالم الضياع. فعليك أن تشرع فى عملك من الآن

«ولقد أحضرت لك هذا الترجمان عبد الله فثق به فى كل شيء عدا مهمتك. وسأوافيك بجوادين ومركبة لتكون مع عبد الله تحت إمرتك ليلا ونهارا. أما السائق فسيراقب عبدالله سراً. والسائسان سيراقبان السائق. وعليّ مراقبتهم جميعا

«وبعد ساعة سيصلك صندوق يحوى كل المستندات والأوراق التي أوصى بها جيمس لورى أما عبد الله فسيذهب معى الآن وسأرسل لك المفاتيح مختومة

«أما بخصوص تعليماتك الخاصة فلا ريب أن قد وصلتك من جيمس لورى

«وسيأخذك شيروبيني غدا الى شريف باشا عند الساعة الثانية بعد الظهر؛ وهذا سيوصلك الى اسماعيل أول خديو لمصر

«وانصحك ان لا تفضى بكلمة ما الى شيروبيني أو شريف. ومتى كنت فى حضرة الخديوى فاستجمع قوتك وبلاغتك وهيمن عليه من أول وهلة، فان حاجته الى المال سترغمه على الاذعان لمشيئتك والانصياع لأوامرك

«هاجمه على غرة من كل صوب وخادعه وضيق عليه الخناق

وسد عليه مسالك دهائه ولا تخش سلطانه فهو ان كان سلطان مصر المسكينة المثقلة بالديون والمنحدرة فى طريق الافلاس فأنت سلطان المال والذهب الوهاج

« فاذهب رأسا الى الغاز أوراقه السرية ومشروعاته الخفية، فهو سيجود حتى بحياته العزيزة فى سبيل احباط مساعى انجلترا

«استخلص الحقيقة من فمه وبشره بأن المال أقرب اليه من حبل وريده . فاذا ما أطاعك فقد أنقذ عرشه وقضى على مايعقب سقوطه من الفوضى والمساوىء والانحلال . والآن فكل شيء بين يديك يامستر ملكولم . ونحن القناصل الثلاثة لسنا مستشاريك المسئولين ولكننا نعضدك سراً ونفتح لك قصورنا ونحميك . فخلك الآن أمام مخ اسماعيل الداهية . وعلى تقريرك يتوقف ما اعتزمه لورى وما ينتويه . فقد يأتى الى مصر البائسة يحمل الف مليون سترلنج ذهبا ويثبت ماليتها على أساس مكين»

فسأله الشاب واجفا

« وانجلترا ! ! »

فأجاب القنصل

« يمكنها أن تسير وتنفذ فى مشروعاتها العامة بسهولة أكثر تحت قيادة دافيد هارت المالية وبذا يضمن للعالم سلمه واطمئنانه

« فبيكر وغردون واللجنة المالية المختلطة كل هؤلاء ليسوا

الا صنائع انجلترا. أما دافيدهارت فهو ساعدها الأيسر ويمكنها أن تدخره لوقت الشدة وحين البأس. أما أسطولها الضخم فهو ساعدها الأيمن

« وما عليك الآن الا أن تخرج للتنزه في المركبة بعد أن تتزيا بالزى الشرقى. وعبدالله كفيل بأن يريك كل انحاء القاهرة وكن على حذر من المتطفلين والمنافقين . وسأرسل لك سنيور شيرويني غداً ليأتى بك الى دارى

« والذى يجب أن يعلمه عنك الجميع وعن مهمتك أنك خبير اختصاصى تنقب عن منافع قطنية وسكرية عامة أو أنك مستر انجليزى يمثل أى شركة مساهمة أو محتكرة . وعليك أن تضم شفتيك ولا تنبس بكلمة

« ولن تغرك مظاهر القاهرة الكاذبة . فمصيبة مصر الاجتماعية هى المرأة والخمر والأغانى ومواخير القمار ثم مضارب الفوازى التى هى أسوأ مأوى فى العالم

« ثم احذر الخنجر اليونانى وأيدى النشالين . فكل هذه نسور فى القاهرة تترقب من كان غراً غافلا

« أما نحن جميعا فلكل منا دوره الخاص يقوم بتمثيله فى مأساة سقوط مصر وخرابها (Egypt's Downfall) ولا يوجد من يحفظ كل المأساة غير جيمس لورى ودافيدهارت ذلك الرجل

الصغرى . فاحذر كل رجل أو امرأة أو غلام فى مصر »

بعد أن انصرف قنصل ايطاليا وتناول الشاب طعام الافطار دخل عليه عبد الله يتقدم أربعة من العتالين يحملون صندوقا ضخما أودعوه حجرة كينيث بينما كان يدرس الاوراق التى أخرجها من صدره

. . . . ولما فتح الصندوق وبدأ يطالع ما فيه أخذ يخفق قلبه بشدة وسرعة حيث أدرك تماما بأنه يحوى أسرار المالية المصرية المنحدرة فى منحدر الافلاس السحيق . أجل فقد كانت تلك القائمة السوداء عن مستندات الخديوى اسماعيل وطرق اسرافه مطروحة جميعها أمامه لدراستها مما ينبىء بسقوط اسماعيل العاجل

لم يكن صخب الدائنين المتواصل صادراً الا عن عصابة من دهاة الماليين . فالجمعية العمومية والكريدى ليونيه وبنك الأراضى الواطئة وبنك باريس وبنك فرنسا كلها تدين لها مصر بملايين الفرنكات يضاف الى ذلك طلبات (جوشين وشركاه (١))

---

(١) بعثة Gochen — لعدم موافقة انجلترا على توحيد الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وقدرها (٩١) مليون سترلنج بربح ٧ ٪ ولمدة (٦٥) سنه وفاقا للامر الصادر فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ القاضى بانشاء لجنة يقال لها صندوق الدين فقد أرسلت انجلترا من قبلها المستر جوشين وأرسلت فرنسا المسيو جوبر ففحصا حالة مصر المالية وأصدر الخديوى أمرا بتأييد اقتراحهما وهو الموافقة على دفع أقساط الدين وأرباحه بحسب النظام الذى سن بموافقة صندوق الدين سنة ١٨٧٦

بإندره . فهذه القروض المتزايدة والمضاعفة صارت حملا ثقيلا على صدر مصر الضعيف المريض . وما أدراك بتلك الامتيازات المتتابعة ورهنيات الممتلكات الخاصة والعامة . كل ذلك أصبح غمامة سوداء فاحمة تحلق فى سماء مصر وتنذر بالسقوط فى كل حين

أما حياة مصطفى فهمى باشا التى أتت عليها سنون طويلة وهو كوكيل سرى لاسماعيل فقد كانت ماثلة أمام الشاب جلية واضحة . فلقد كان يدفع بالكرة ذات اليمين وذات الشمال . وقد يرشدك الى ماهية أعماله ومعنى حياته ذلك القصر الفخم والحرملك الفردوسى فى بور تاندسكو وبلندن. . . . وكانت هناك أوراق من أكبر المسجلين فى لندن وقوائم طويلة عن كل منابع الثروة المصرية وموارد ماليتها وسجل ضخم بممتلكات الخديوى الخاصة وضياعه الواسعة ثم يلى ذلك تقديرات دافيد هارت الخاصة لتكون مرشدا عن كيفية خص الأشغال العامة وقناطر النيل وحسابات الخزينة (سجلات المالية) . وحقا فقد كان ذلك القلب المحتقن بالدم المسموم لجسم مصر السياسى المهشم مطروحا بين يدى الشاب يفحصه ويشخص داءه

ولقد خطر للشاب بأن ما يحاوله دافيد هارت من عمل هدنة مؤقتة بين الدائنين الانكليز والاوربيين وما يرجوه من اقناع اسماعيل بأن يضحى بكل ممتلكاته الخاصة ويظهر كنوزه الدفينة

هذا مع حمل شريف ـ بضمانة خاصة ـ على أن يلقي بما يملكه وهو مايربو على السـدس من أخصب الاراضي المصرية في الميزان كضمان لهذه التسوية العادلة. ثم تأمين فرنسا وانجلترا على أموالهما ومصالحهما باجراء تصفية خاصة، كل هذه الاماني أوهام باطلة واحلام ضائعة تشبه في فسادها مشروعات (وارن هاستينج) في الهنـد (١) وسفاسف (جون لو)(٢) التي خاب بهـا اب أوروبا وستجرف في طغيانها صرح الرقي ومعالم النجاح

ثم رزم الشاب مستنداته وتنهد من قلب أسيف كسير وتمتم « انى لي أن اتغلب على هـذه العوائق المتشعبة، فيـاليت شعري عن دافيـد هارت فهلا يدرك أن مهمتنا أعقد من ذنب

---

(١) Warren Haetings « وارن هاستيج » « ١٧٧٨ ـ ١٧٨٥ » كان حاكما على بنغاله من سنة ١٧٧٢ ثم عين في سـنة ١٧٧٨ حاكما عاما للهند فوقفت في طريقه عقبات جعلته يحيد عن طريق العدل منها مجلس ادارة شركة الهند بلندن وكان غاية اعضائه جمع المال فكان يجمع لهم هاستنجز المـال بطرق ليست مشروعة ثم مجلسه الخـاص وكان اغلب اعضائه من مزاحميه واعدائه

(٢) John Law (جون لو) هو رجل ايقوسي قام في عهد لويس الخامس عشر بمشروع لتفريج الازمة المـالية في فرنسا يسمي مشروع (المسسيبي) فتكونت الشركة سنة ١٧١٧ على ان تحمل على عاتقها الدين الاهلي نظير استغلالها مستعمرات فرنسا في حوض المسسيبي، ولكن المشروع فشل فشلا تاما وضاعت على المكتتبين اموالهم الطائلة

الضب وانها خيال أ كثر منها حقيقة ؟

« أجل : فلقد قضي الامر ولن تطحن الطاحون التي حاد عنها التيار »

وطوعا لنداء عبد الله الترجمان نزل مستر ملكولم كرانفورد ليمتع طرفه لاول مرة فى حياته بمناظر القاهرة يتبعه خادمه سومز حاملا حقيبة مستنداته وأوراقه

ولقد أخرجه عبد الله من باب الفندق الخلفى حيث كانت تنتظره عربة مقفلة ، سارت بهم العربة تشق طريقها فى شوارع القاهرة المزدحمة يتقدمها سائسان يحملان صوتين طويلين ويصيحان «رجلك»، شمالك ! « !! Shoumalak ! Reglik !

أما كينيث فانزوى فى عربته هاربا من تلك النظرات التى توجه عادة الى كل غريب ذى حيثية بينما كانت موسيقى الحرس الخديوى الخاص تصدح فى حديقة الازبكية بأنغام تركية وعربية وكانت هناك عربة أحد البشوات تتعقب بخفة وحذق عربة الشاب الانكليزى وفى كرسيها الامامى سيدتان تطلان من نوافذ العربة فتبهران المارة بعيونهما الدعجاء الساحرة من خلف ذلك اليشمك Yashmak الابيض الشفاف ، وفى الكرسى الآخر كان هناك رجل معمم بعمامة خضراء منعكف فى العربة بينما شريف باشا رئيس النظار المنتظر يداعب بين يديه أناملا مرصعة بالجواهر

كانت ترفع النقاب من آن لآخر عن وجه صبوح لا يدانيه فى سماحته وبهجته غير طلعة فينوس (١) فقهقه ذلك البدين البـاش الذى تنبيء عيناه الماكرتان عن مبلغ دهائه بينما كان يحدث فريسته السهلة الانقياد عن مظهره الاجتماعي وقيمة تلك النجمة اللامعة التى تزين ســترته الرسمية القاتمة مما يحدث عن باشا عظيم على الطراز الاسماعيلى « باشا ألامود دى اسماعيل » á lamode d' Ismail Pasha ثم قال

«لقد ظهرت فى أجل صورة ياستريلوجو . وانى آسف لان أترك لك هذين الملاكين برهة ما . ولكن طالما أنهما سيتمشيان معى فلك أن تسلبهما منى ردحا من الزمن

« فاتبسم الشاب باضطراد . وأما أنت ياموريللى الهيفـاء فستكون معك (ليشين) بائعة الزهور فى جراند هوتل لاعانتك على مراقبة ذلك الرفيق

« أما « سير هوراس لينجارد » ومعه تلك النجمة الزاهيـة «لادى اينجارد» فسيكونان جـيرته المتجسسة، وسيعمل سير هوراس بأوامر الكولونل جرانتون

«فعليكما أن تتجاهلا أمرها لان «لادى ليينجارد المزعومة لاتحتاج لاكثر من ليلة مقمرة صافية وشرفة واسعة تهب عليها

---

(١) فينوس الهة الجمال

نسيم السحر حتى تقوم بتمثيل دورها على الوجه الاكمل

« أما أمر اغواء هذا الشاب الغرير الى دائرتكم فاتركه لك يامورللي ، ولقد عزمت على ان أشترك فى تمثيل المأساة بنفسي وأما انت ياسانتا مارينا وصديقتنا الماكرة « اندرى لافارج » فستحتلا شبرد هوتل اليوم

« واني أرجو منكما تقريرا يوميا عن كل شخص يزوره وان تعملا جهدكما على احباط مساعيه لدى الخديوى »

ثم تمطى شريف وتابع حديثه

« وسأجعل منه رجلا نبيلا ومن عسره يسرا ذلك الذى يكتشف لى من هم اولئك الذين يظاهرون الشاب فى حركاته ومقاصده ، فرسائله وبرقياته هذه كلها هى الدلائل التى أريدها ولقد جعلت رقيبا فى كل مكتب تلغرافى فى مصر

« فلو وفقت لان أتصل رأسا بأسياده الرئيسيين الذين عثلهم بعد أن يكون قد باح له اسماعيل بما عنده فهنا لك يمكننا أن نجعل من جماعتنا خديويا جديدا لمصر تقره انجلترا وفرنسا وأما دلسبس مشغوف بنا (١) ومعه ذلك النبيل الابله غردون صديقا اسماعيل فتى أخليا لنا الطريق فهنا لك تنهار وزارة نوبار

---

(١) يشير بذلك الى اخفاق مسيو دى لسبس de Lesseps صاحب مشروع قناة السويس في مشروع قناة بنما

وتجر فى أثرها اسماعيل ، وحينئذ يمكن لاى رجل قوى أن يحكم مصر »

وكانت عربة ملكولم مسرعة وقتئذ صوب حدائق غناء لان عبد الله رأى أن يقود المستر ملكولم كرانفورد الى ضفاف نهر النيل على أن ينحرف بعدئذ الى مدافن الخلفاء فتلال المقطم فالقلعة ثم يندفع الى الموسكى وسوق السكنتو

وبعد أن زار طريق شبرا عزم عبد الله على أن يذهب برفيقه ليريه المفاخر الخارجية لهذه المدينة الواسعة بحدائقها الخاوية على عروشها وشوارعها المتعرجة وقبابها المنتفخة وداخليتها المظلمة ومآذنها المتوازية

اما شريف فقد تبسم فى ذلك الحين وقال لسانتا مارينا « عليك أن تتعقبه فى كل مكان يقصده وتخبرنى مرتين فى كل يوم عما تراه . وأنت تعرف أين نلتقى . اما رفيقاتنا الجميلات فسيجعلن من مشاغلتهن الغرامية مبرراً لوجودهن كل حين معنا هناك »

وباشارة من شريف وقفت المركبة المطاردة ونزل منها واختفى فى بوابة حديقة يحرسها جند مسلحون

وبعد ذلك بساعتين بينما كانت عربة ملكولم مندفعة فى شبرا راجعة الى الفندق سمع ضوضاء عالية ثم ظهر ركب تتقدمه

شرذمة من الجند الراكبة ثم صياح ستة من السياس فاثنى عشر ياورا راكبا ثم كوكبة من صفوة السواري يعدون خببا فى المؤخرة وهؤلاء يتقدمون أحدى عربات البلاط الفاخرة تجرها ستة من صفوة الجياد المطهمة

وكان النبيل الراكب رجلا بدينا ملتحيا بأكتافه انحناء بسيط ذا عينين سوداوين مستديرتين وحاجبين يعلوهما طربوشه الاحمر وساعدين مفتولين ويدين عاريتين تتلألآن بالجواهر ويحمل فى منطقته سيفا مرصعا بالجواهر والماس . وكانت كل يد ترتفع له ما بين القلب والحاجب تحية واجلالا

فأعلن عبد الله باحترام

(صاحب السمو الخديوى اسماعيل)

وكان فى أثر هذه العربة الملوكية الفخمة نحو المشرين عربة مغطاة بالزجاج تحمل سيدات بدينات مبرقعات تكاد تتصدع العربات من ثقلهن . وكان يفسح الطريق لهذا الركب الملوكي ثلة من البوليس الراجل والراكب (السواري)

فصاح سومز فجأة بينما كان يشاهد هذا الركب صامتاً

« لتنزل بى اللعنات ان لم يكن هذا الامر الغريب المدهش يتطلب حذمنا وحذرنا .

« فهناك عربة يجرها جوادان مرت من أمامنا أكثر من

عشرين مرة . فهى تتعقبنا منذ تركنا الفندق ولا تزال فى أثرنا
طول الطريق

« والظاهر أن بها سيدتين ورجلا معمما بعمامة خضراء .
إن هذا الشيء عجاب »

فانتفض كينيث من احلامه منزعجا . وبينما كان يشير سومز
الى العربة ازدحمت العربات قرب « شبردأوتل » و « جراندهوتل »
تمكن ملكولم أن يرى من فى العربة . ولكن حينما ترجل عند باب
الفندق اختفت العربة الثانية فى حديقة الباشا خلف (جراند أوتل)
فتمتم كينيث

« أظن انها نزهة عادية ! ! »

ولما دخل الردهة اعترضته فتاة المانية حسناء تحمل سلة
مملوءة بالزهور الجميلة وقالت

« اشتر ياسيدى الانكليزى من ليشين Leschen فقد يصيبك
الحظ » ـ

فدفع اليها كينيث (ملكولم) بقطعة من الفضة بعد أن تأمل
طويلا فى محاسنها وأعجب خلسة برشاقتها وسمح لها أن تزين
صدره بزهرة عاطرة مدعيا عدم الالتفات لها . فقالت له دون
أن تخفى ابتساماتها الحلوة

« يجب أن لا تبتاع زهورك من غير ليشين فهى هنا فى كل

يوم وفى كل ساعة »

ولمادخل الردهة الكبرى وجدأمام مسكنه كوما من الحقائب والامتعة ووصيفة وخادما ثم ضوضاء خدم الفندق وصخبهم مما ينبيء بقدوم عظيم . فزمجر كينيث

على أية حالة فانى الآن فى أمان . ويجب أن لايجاورنى غير الطيور والاغصان . وعلى أن أكتشف من هم هؤلاء الناس »

ولم يتوان سومز النبيه من أن يعلن بوصول ذلك القادم العظيم « سير هوارس لينجارد » وحاشيته

« انه شاب بدين من محبى السباق والرياضة أتى مصر لهذا الغرض . أما لادى لينجارد فذات جمال فتان »

وعند باب غرفته جاءه صبى يرتدى ثيابا أوروبية وهمس فى أذنه كلمات قليلة ادهشته

« لقد وصلت والدى برقية الآن . وصاحبك سيصل غدا فكن على استعداد لملاقاته فلقد وصلت الباخرة من برنديزى , وطبعا سيراقبونه فلا تحاول لقاءه ولكنه سيعمل بنفسه على مقابلتك . اما أنا فأدعى يعقوب زخريا « Jacob

وقبل أن يجيبه كينيث كان الصبى قد اختفى عن نظره فتمتم

« انها لبلد عجيب . ولكن حمداً للمولى فسيكون شارلس جروسفنر غدا بجانبي وعلى كل حال فهو يحمل لى قلباً أمينا مخلصا »

وهنا بدت له أجرام القاهرة ومساوئها كأكوام من الرمال المنهارة تكاد تميد تحت قدميه وتبتلعه فى جوفها . ولما انفرد بنفسه فى غرفة الطعام وعاوده الاطمئنان قال

« يظهر لى أنى فقدت أثرسا نتاماريتا ومعه تلك المغنية الحسناء وتلك الفتاة الشاحبة الوديعة. ولكن شكرا للسماء فوعدنا غدا مع ذلك الرجل الداهية الذى سيقابلنى بالخديوى اسماعيل وجها لوجه : بعدئذ أبدأ حساباتى وأبحاثى دون أن يكون لفينوس (آلهة الجمال) Venus أو باكوس Bacchus (آله الخمر) سلطان على قلبي »

ثم تراءى له سومز الامين يحرس غرفة نومه وعبد الله الترجمان يجهز مائدة طعامه فقال

« حقا ان الانسان لا يأمن على اسراره وحياته فى هذا البلد حتى ولو كان فى حضرة الخديوى اسماعيل ، فهذا المكان لا يصلح لفحص المستندات »

وبعد ان فرغ من طعامه عزم على أن يستشير لورنز وزخريا فى هذا الامر. ثم كتب رسالة الى محبوبته كاثلين لورى التى يعتبرها سر نجاحه وزهرة حياته بينما كان البلبل يتغنى فى حديقة الباشا المجاورة فيشجيه ويحيى فيه ميت الامل . ثم اتجهت به تأملاته الى ما ظهر له من السجلات عن طرق الاسراف والتبذير وفساد

الادارة وسوء التصرف والتقدير ودناءة الحكام وتلك الاختلاسات الحقيرة فاحتيال شركة القنال الفرنسية الدنيء مما حمل سعيد ومن خلفه نصف تكاليف انشاء قناة السويس نظير استيلائهم على جزء ضئيل وهو عشر الارباح ثم تكاليف الاربعين قصراً ونفقة الثلاث آلاف امرأة من كل طبقة ثم تلك المبالغ الهائلة التي تصرف في ضيافة الامراء وما يعطى للجان اصحاب البنوك والبيوتات المالية وما أنفق على مد الطرق الحديدية المزدوجة بمحازاة النيل وتلك البعوث الاستوائية التي لم تأت بثمرة فصاريف الاوبرا وتكاليفها ومرتبات موظفي البلاط الخديوي فاختلاسات الباشوات والقواد ثم ضياع ذلك الاسطول المصفح ثم زيادة الجيش تلك الزيادة التي لم يكن لها من مبرر سوى حب المجد والفخار الكاذب . ثم اختلاس المتعهدين وجشع الصياغ كل هذا يشير الى انتشار الرذيلة والتبذير . فقال مكتئبا

« اجل . اني لأرى تلك الهوة السحيقة وليس لها من قرار قد ابتلعت ثلثمائة مليون فرنكا نقدا وخمسمائة مليون فرنكا دينا ؛ ولكن خير لي أن أترك أهمية هذه الحقائق الى لورى وهارت وليس على الا أن أفرغ من حساباتي وانتزاع ثقة الخديوي. عندئذ يحق لي أن أنفض يدى من هذا التدهور الاجتماعي بقدر ما أوتيت من قوة وسرعة »

ولقد جفل حينما ولج لورنزو زخريا بابه وهمس

« هل أعددت الاوراق ؟ »

فأجابه كينيث « انى احملها فى صدرى » فقال اليهودى

« اذن متى انصرف عبد الله الى العربة فاخرج معى . اما الدوقة ففى انتظارك فاترك خادمك سومز مسلحا وأوصه باليقظة والحذر وأن لا يترك غرفتك لحظة واحدة »

بعد انصراف عبد الله قال اليهودى

«ان ولدى يعقوب مع عبد الله وبذا لا يمكنه أن يتجسس علينا الآن فاتبعنى صامتا ولا تخف فمعنا تابعان مسلحان »

كانت هناك آلاف من الانوار تضىء حديقة الازبكية . وكان يزحم الشارع على سعته مئات من محبي اللهو والعشاق والنساء على اختلاف ازيائهن ونحلهن والخدم . فانسل زخريا فى ظل حائط الحديقة الشاهقة التى تبعد عن جراند أوتيل (الكونتننتال الآن) ثم فتح بابا صغيرا . ولقد أصاب كينيث الذهول حينما أبصر بالخادمين المسلحين فطمأنه زخريا وأخبره أنهما من رجاله . ثم ذهب به الى مظلة من الاغصان المشتبكة وتركه وحيداً . وهنا سمع كينيث ذلك الصوت العذب الاغن فعرف منه صوت الدوقة دى فاليريا

« لقد افترقنا فى الاسكندرية على أن نجتمع هنا . اما الآن

فلست الا روح السحر جئت لاملى عليك ارادتى فانصت الى

«غداً ستقابل شريف واعلم بانه سيحاول خداعك واصطيادك فكن على حذر . فلا تتكلم عن حقيقة مهمتك الا مع الخديوى وحده . وعليك أن تطلب منه عملا سريعا والحف عليه فى ذلك بل ارغمه لان شريف يفكر الآن فى اسقاط وزارة نوبار وحينئذ لا يكون فى مقدورنا أن نتنبأ بالنتائج . أما فى سهرة قنصل جنرال ايطاليا فكن رزينا حكيما وسأقابلك بنفسى هنـاك

« ولكن قبل هذه السهرة وبعد أن تقابل شريف سأركب معك فى نزهة الى شبرا وستنطلق بنا عربتى حيث لن يكون علينا رقيب

« اما شريف فكان البارحة يتعقبك فى كل انحاء القاهرة . وهناك امرأتان سافلتان ينتظرانك

« والآن فاذهب وسيريك زخريا مسكنه حيث يمكنك أن تشرع فى عملك آمنا مطمئنا »

فتلعثم كينيث «ولكن كيف ذلك ؟ »

فاجابته

« ثق بى فانى اعرف كل شىء . وزخريا هو الوحيد الذى يمكنه يمعونتى أن يرشدك . وسيعلم لورى من الآن بمقابلتك لشريف باكر » .

قالت هذا ومدت اليه يدا مرصعة بالجواهر فلمعت فى ضوء القمر كالنار المستعرة . فسألها كينيث متعجبا

« هل أنت الرئيسة الحقيقية التى أخدمها ؟ »

فاجابته ضاحكة

« لا تسألنى شيئا فلست الا روح السحر . اما الآن فيمكنك أن تقبل يدى وتذهب فى سبيلك. ولكن احذر امرأتين قريبتين منك وأطع زخريا ولا تخبر احداً بسر مهمتك غير الخديوى وجيمس لورى . فاذا مامكر بك الخديوى فقد أضاع نفسه. واذ خنت أنت عهدك مع من وثقوا بك فاذكر بأنك لن تتزوج كاثلين لورى

« أما صاحبك شارلس جروسفنر فسيأتى غداً فلا تحاول أن تجمعنا معا والا فقدتنى الى الأبد . فقد يعن لى أن أقابله فى عالم النعيم والمسرات متى شئت »

ولما حاول أن يمسك بشبح الدوقة الهارب شعر بيد زخريا تمسك ساعده وقال مجداً

« كفى !! ففى استطاعتى الآن أن أذهب بك الى منزلى فى أمان »

وكانت تنتظرها عربة عند البوابة . وبعد عشر دقائق كان مستر ملكولم (كينيث) فى منزل لورنز وزخريا فقال له هذا

« اذهب الآن الى مسكنك فهناك ينتظرك ولدي يعقوب

وعبد الله خادمك. وسيخفر صندوق المستندات خفيران مسلحان أما أنا فذاهب للاستعداد وسيأتي بك ولدى يعقوب الينا فلا تخش بأساً »

بعد ذلك انطلقت المركبة بنحو (جراند أوتل)

كانت ردهة الفندق مكتظة بأناس مختلفي المذاهب والجنسية وانما تجمعهم جامعة اللهو والترف . فمن رجال قد شعشعتهم بنت الحان ومن فتيات لاغرض لهن الا المزاح والغـزل ينتظرن من يقع في حبائلهن الى جماعات قد شملها السرور تنتظر موعد تمثيل الاوبرا ، ومن رفاق غلب عليهم الجذل فشدوا ركابهم زرافات ووحداناً وخرجوا فى العراء يمتعون الطرف بمناظر الليل الرهيب وتنسم نسيم النيل العليل

وعند مادخـل كينيث الردهة أبصر ليشين بأئمة الزهور تضع وردة مصرية فى صدر كونت دى سانتا مارينا . وما وقـع نظر الايطالى على كينيث حتى تقدم اليه باشا ومهللا

« آه يارفيقى العزيز ! ! لقد كنا على وشك الخروج فى نزهة ليلية . لاريب أن الحظ السعيد يخدمك فهـل لك أن تأت معنا الى فندق شبرد حيث قد نزلت هنالك ؟ »

ولـكن كينيث أشار اليـه بامتعاض بأنه يفضل أن يخرج وحيداً لمشاهدة منظر النيل فى نور القمر. وهـكذا تخلص ببرود

من الايطالى وذهب الى غرفته فى الفندق

ولما وصل الى غرفته أعطى أوامره همسا الى سومز ثم أخذ قرابينة ومسدساً وتبع الصبي النحيف الذى يمثل رؤساءه السريين. أما عبد الله فقد تقدمها الى المركبة التى انطلقت بهم فى سكون وطمأنينة

ولما وصلوا الى بناء حديث يحوى كثيراً من حوانيت العمال والصناع وأرباب الاعمال ترجل كينيث طوعا لاشارة الصبى أمام سوق صغير فى مؤخرة البناء يشمل عدة مساكن داخلية وتبع الصبي حتى ولجا آخر مسكن من باب ضيق تحجبه تماما تلك الحوانيت التى تحيط به فى المؤخرة . وحقاً فقد كان مكانا حصيناً منيعاً يستعصى أمره على أعين الرقباء

دخل كينيث فألفى لورنزو زخريا منزويا فى ركن خلف مكتب فى غرفة أنيقة حوت أسباب الراحة والنعيم الحديث وهنا تبسم اليهودى وقال :

« نحن الآن فى منزلنا. ولقد عملت هنا كل التسهيلات لوكلائى العديدين فى هذا الميدان . أما مكتبي الخاص فقد جعلته سراً فى البدروم لان رجالنا العاملين قد دفعتهم فطنتهم الى أن يسكنوا قلاع أعدائهم

« والآن فقد حانت ساعة جهادك الحقيقى · واعلم بأنه

هناك أكثر من اثنى عشر مدخلا لهذا الحصن الصغير الذى آوى اليه . وسأترك لولدى يعقوب أمر ارشادك وسرعان ماسيعرفك أنصارى فى هذا البناء . وبذا يتركون لك مطلق الحرية فى الدخول من أى باب

« والآن يامستر جريفث فها هو آخر كتاب من مستر لورى يوضح لك فيه حدود عملك

« وما عليك الى أن تتمم عملى الذى جاهدت من أجله ثلاثين عاما أو أكثر . فانى مع حدتى وسعة اطلاعى وخبرتى العظيمة فى الشئون المالية لم أوفق بعد لنتيجة حاسمة ولم أثق بحساباتى الدقيقة . فأنت الممثل الظاهري لذلك العمل الذى أملك فيه وحدى كثيراً من الملايين وضعتها بين كفى القدر كما سيخاطر الا ن كل من جيمس لورى ودافيد هارت

« وانت الان عاتق ميزان مشروعنا وعلى حكمتك يتوقف صدق حسابنا . فما عليك الا أن تحاول ماقصرت همتى عن بلوغه . وانى لن أدخر جهدا فى ارشادك فدماغان خير من دماغ واحد»

ولما فض كينيث المستند وأدرك مافيه ووقف على مبلغ قوة لورنزو زخريا المالية الهائلة قال

« ساعمل طبق رغباتك ياسيدى »

ثم فتح الاسرائيلى خزانة صغيرة وأشار

« عليك أن تحفظ هنا كل اوراقـك ومستنداتك اذ ليس لها الا مفتاح واحد »

ولما اودع الشاب أوراقه بالخزانة تبع اليهودى الى غرفـة المائدة المجاورة . وحينما جلسا الى المائدة بادره بالحديث لماراه من فخامة منظر الغرفة وأبهة اثاثها

« حقا فانك لاتتجنب الظهور بمظهر الثراء »

فتنهد زخريا

« ان هذه المظاهر ياعزيزي أس ضياع مايدخره اليهودى وما يجمعه . وانى أزيدك حيرة ودهشة اذا قلت بأنى حكيم أكثر منى عابد للعجل الذهبى

« فيعقوب ولدى هو كل مابقى من عائلتى . ولذا فانى اهتم بالعلم والحكمة أكثر من اهتمامي بالمال . وهناك سر غريب فى عالم الفنون والعرفان . وجميع العلوم البائدة قبرت هنا فى مصر . فمثلى كمثل الدوقة دى فاليريا اسير على غير هدى فى هذه الحياة أتلمس سبيل الرجاء

« فالثلاثون التى قضيتها هنا فى مصر لم أتعلم فيها الا القدر اليسير والعالم فى حاجة الى زيادة العرفان لتخفيف شقائه وويلاته . فنحن الذين يسموننا بالحكماء لسنا الا صبية نتلمس الرشد فى الظلام

« ولـكن ياعزيزى لاتسألنى شيئا عن تلك المرأة العجيبة فانى أقرأ على جبينكماينم عنه قلبك فهل لك ان تثق بها؟

« لامراء فى أن هذا من شأنك وليس من شأنى . ولكن اذكر بأنى لست الاعونا لك لامرشدا. وكل عملى ينحصر فى أن أرسل تقارير مسهبة وأحمل رسالاتك عن مهمتك مع الخديوى دون ان أعلم شيئا عنها . وهناك رجل يجب أن يعرف كل شيء وذلك الرجل هو جيمس لورى. واذا استعصى عليك أمر فاطلب منه ارشادك فهو لن يشكل عليه أمر فى العالم

« وان أخبرك بشيء بخصوص الدوقة قد يقاوم تأثيرها على نفسك . فلك أن تقرر ماترتئيه . فهل سحرتك ؟ نعم افلقد راقبتها من سنين فاذا بها ملاك كل بلاط أوروبى

« أما وقدقلت لك مافيه كفايتك فسيأخذك ولدى يعقوب الى (جراندهوتل) وسيصبح وصيفك الخاص. لأنه متى وصل جروسفنر فستستخدم سومز كراسلة بينك وبين (شبرد هوتل) وايراقب سانتا مارينا وصنائعه . فاعداؤنا يتكلون على مكر هذا الايطالى ودهائه . فعليك أن تتجنبه جهدك ولا تتشاحن معه. وعلاوة على ذلك فلا تتنفس بسرك حتى فى نومك. والآن فاذهب بسلام فسأزورك غداً ؛

بعد عشر دقائق بينما كان كينيث جريفث جالساً فى غرفته

الفخمة سمع صوت امرأة رخيما أثار عواطفه وشجونه. خرج الى الشرفة فرأى سجف النافذة المجاورة تنشق عن جبين فتاة وصاح وقالت « اذا دعوتك للغذاء باكر فأظنك لن تتأخر ياعزيزى »

وهنا ظهرت له موريللى بطلعتها الوضاحة وضغطت على يده بحرارة فقبل دعوتها بلسان متلعثم ثم ترك الشرفة وقد تملكه العجب والحيرة ، وهنا سلمه سومز رسالة صغيرة وقال

« ان احدى جاراتنا تركت لك هذه عقب خروجك »

فض كينيث الرسالة فرأى فيها

« أذكر عهدك بالباخرة ولا تتوان فى أن تزورنى بشبرد هوتل »

أندرى لافارج

فقال فى نفسه

« ان نسبة الفتاتين للدوقة كدليله الافاكة (١) . غير أن الدوقة تحيط بكل الاسرار فهى فى صمتها وأسرارها تشبه أباالهول »

حاول بعد ذلك أن ينام ولكن الأرق لم يفارقه وطال به السهد حتى دقت الثانية عشرة وكأنى بالليل وقد انشطر شطرين فانقضت بانقضاء الشطر الاول جلبة القاهرة ولغطها . وانبعث الشطر الآخر حيث يسود السكون فتستريح الاجسام من نصب

---

(١) Delilah دليله فتاة فلسطينية غررت بشمشوم وأغوته ووضعت عن ذلك رواية تمثيلية باسم شمشوم ودليله

الحياة وعنائها وحين يخيم الظلام فيجلوه نور القمر

ولكن هذا السكون لايخلو من تأوهات تعكر صفوه وتنهدات تخترق جوفه صاعدة صوب السماء حيث تحدث ضوضاء ولغطا

فكم من فقير ذى مسغبة بات ليله طاويا وفلاح مسكين دامى الظهر من تأثير الكرباج قد أرهقته الضرائب وامتصت دمه . وكم من ثكلى تبكى ولدا لها أو زوجها تهشمت عظامه فى سهول الجورا الحبشية فاستنفد الحزن دموع صبرها وتقرحت مآقيها . وكم من عسيف نام ليلته ساهرا باكيا وقد سلبه قساة الحكام ماله ومتاعه . وكم من رضيع بات فى العراء مفترش الثرى تركته أمه نائحا صائعا وذهبت الى عالم الفناء ضحية الطاعون والوباء فى مثل هذا الهزيع من الليل وفى هذا البلد المسكين كان هناك أناس ينعمون بالارفلون فى بحبوحة اللهو والهناء . فقصر عابدين كان يتلألأ سناه ويكاد يتصدع بمن فيه طربا . وقصور شبرا وبولاق والعباسية كانت تموج بمن فيها من غادات وحظيات ووصيفات يمرحن ويلعبن تحيط بهن زمرة من حاشية البلاط والباشوات والأجانب أرباب المصالح والمشروعات الجوفاء الكاذبة

دنا الفجر والمايم . وكانت نسمات الحديقة العاطرة تهب عليه فتحيي منه ميت الرجاء . وروح السحر تروح على جبينه الملتهب

ثم سمع نداء المؤذن الشجى من فوق المآذن الشاهقة تخترق سكون الليل محلقا فى أفق المدينة كصوت الملائكة فتركن اليه النفوس وتهب للصلاة . وكان يصيح (الله أكبر الله أكبر لا آله الا الله) Allah il allah allah akbar

ولقد جفل كينيث وأفاق من تأملاته وصاح حينما سمع نداء عاليا ورأى نورا أحمرا مما ينبىء بمرور عربة أحد الباشوات فى هذا الهزيع من الليل

« لقد أدركت السر . فليس الامر كله الا مؤامرة مقنعة لاظهار حقيقة تلك الفروض الخاصة قبل أن يصل الامر الى مخالب الاسد البريطانى بينما تقف بجانبه فرنسا مكتوفة صامتة قانعة بما نالته فى القتال

« فقنصل ايطاليا يمثل كاهنا أعظما يبارك جثة مصر السياسية الهامدة . فهو يعمل لانقاذ أموال أصحاب البنوك والبيوتات المالية الواسعة تحت قيادة جيمس لورى وارشاده . أما كل من قنصل جنرال روسيا والنمسا فيساعدانه بدافع الغيرة والمنافسة »

غير أن الشاب فى كل تقديراته لم يمكنه أن يعرف ما اذا كانت سياسة جيمس لورى ودافيد هارت تتفق مع مصالح حكومة جلالة الملكة وأغراضها

فذلك الحاكم المسرف محمول بين تكبير المتملقين وتهليل

المنافقين والافاكين فوق مركبة الخراب والافلاس يهلل له باكوس (١) وتحيط به جماعات من كاهنات فينوس (٢) تجرها كوكبة من آكلي لحوم البشر ومندفعة به الى يم الهلاك، وهناك أشباح سوداء تلتف حوله معولة مولولة تطالبه بكل ما أقرضته له من مال حتى آخر مليم Farthing

فالقيطس (٣) « روتشيلد» و « آل بارنج » وحوش المياه المالية العميقة « وجوشين وشركاه » و « روفائيل واخوانه» وأصحاب القروض الهائلة كل هؤلاء نائحات ينتظرن مصرع ذلك الأمير السفيه (المبذر) Prodigal's last feast

هنا زمجر كينيث

« الامر سهل بسيط . فكل مهمتى فى أن أحصل على معلومات حسابية جلية للقائد السرى لجيش المأمون فى لندن . فاذا ما حصلت من الخديوى على خلاصة هذه الحقائق فيمكن

---

(١) باكوس اله الخمر وهو ابن جيبوتر وسيد الآلهة عن اليونان والرومان

(٢) فينوس الهة الجمال كما أنها اعظم الكواكب المضيئة بعد الشمس

(٣) القيطس وحش بحرى عظيم من ذوات الثدى الذكر يرضع أولاده له ثمانية سواعد ويتغذى على أكبر الاسماك فاذا ماجاع فغرفاه فيدخل الماء بما فيه من اسماك فى فمه فيبتلعها دون أن يمضغها ويصاد طمعا فى شحمه الغزير النافع

اتخاذها سلاحا شرعية رسمية ضده . وحينئذ ينكشف أمره للحكومات صاحبة الشأن . هنالك يسارع دهاة الذهب الى التآمر مع حكوماتهم فتولى وزارة جديدة غير وزارة نوبار وتتألف لجنة مالية كبرى. ومتى صار هذا فى حيز الوجود فكل شىء يتبدل ويسقط اسماعيل

«فالفلاح البائس المنتحب تجبى منه تلك الجزية التركية التى تبلغ الاربعة ملايين دولارا سنويا والخمسة عشر مليونا قيمة فوائد الديون وما سيضاف الى ذلك وهو عشرة ملايين اخرى

« والنتيجة أن سيقصى اسماعيل من مصر كما أقصوه عن القنال»

الساعة مطلع الفجر ولما تنقشع تلك الغمامة التى تظل جو مصر السياسى رغما من نور القمر. وهناك فوق تل المقطم القاتم تقف القلعة عابسة حول بلاط صلاح الدين حيث لا يزال يجرى ماء عين يوسف عذبا صافيا . وكان البدر يطل على هذا المكان من القلعة الذى لا يزال يسبح فيه دم المماليك وتنعكس عليه أشعته . أما حول مدافن الخلفاء فابل وجياد وحمير تنتظر بفروغ صبر أن يشق نور الصباح طريقه فى جوف هذا الليل البهيم، وهناك حول لهيب المشاعل الاحمر لا يزال جماعة من المحدثين(١) (من يقولون الحواديت) يقصون على جموع من الكهول المقعدين

Story tellers (1)

والشباب الساذج قصصا شيقة تملك منهم لبهم وتجد هوى فى نفوسهم كعنترة والف ليلة وابى زيد الهلالى سلامه

أما ضوء تلك المصابيح التى تنير المدينة البالغ سكانها اربعمائة الف نسمة فكان يرشد العابر والسالك . وأولئك الخفراء الذين لا وقاية لاجسامهم غير تلك الثياب الرثة الخلقة بينما يقضون ليلتهم الطويلة فى حراسة الاقفال الخشبية (١) لابواب الحوانيت والوكالات والأثريات

أما فى ظل تلك التكاعيب والمظلات النباتية للحرملك فتنام فتيات جميلات جورجيات يخدر أعصابهن ترجيع الطيور وخرير النافورات

وحتى فى هذا الوقت من الليل فقد كانت الشوارع مكتظة بأفاق العالم ،

أما نساء الوجه البحرى والشركسيات المبرقعات ومتشردات باريس ونابولى وبراين وفينا فكن يملأن قاعات الرقص ومواخير القمار والقهوات . أما زينات حديقة الازبكية الهائلة فكانت قائمة على ساق وقدم بينما كانت الاحياء العربية مكتظة بالغوازى والغوايش (٢)

---

(١) المعروفة بالضبة ولا تزال تستعمل في الريف

(٢) الغوايش وهم المعروفون برقصهم في الهند وفي مصر وفي أكثر

أما فى بولاق وجزيرة ترسا (١) وفى شبرا وعلى طول النيل فكانت هناك قصور تحيط بها الحدائق الغناء والبساتين المثمرة ويملأها الجند والحراس

ثم صوت الشادوف Shadoof الحزن فنداء مرا كبية النيل فوق الفلوكات Felluccas الناعسة ثم ذلك الصوت الآلى المضطرد طلبا للبقشيش Bachsheesh وأخيرا ذلك الاسد الصخرى الرابض (ابو الهول) حيث يربض فى ضوء البدر موليا وجهه شطر الشرق ، كل هذا ينتظر فجرا ورديا يضىء ما يحيق بالقاهرة من بؤس وشر وظلمة ««««

وفى ساعات الصبح الهادئة جلس كينيث (مستر ملكولم) يراجع أوراقه فظهرت له كل المعلومات المحزنة عن مصر الحديثة فتمتم فى نفسه غاضبا

«لم تقدم لى هذه الاوراق الا أملا فى تضليل المتجسسين وكل من يحاول الوقوف على سر مهمتى ، اذ ليس بينها ورقة ما رسمية او سجل اصلى للحكومة »

الاقطار الشرقية . والغايش عبارة عن رجل يتزيا بزى المرأة ويرقص في الافراح

(١) Gizireh Tirseh جزيرة ترسا هى واقعة بين انبابه وبولاق وسميت الترسانه باسمها

ثم عمل قائمة بالاوراق وأخذ ينتظر وصول السنيور شيروبيني

خرج بعد ذلك يتجول قليلا فقابله يعقوب زخريا ونبهه الى عدم الرجوع لهذه المخاطرة والخروج وحيدا فى القاهرة وعاد به الي الفندق حيث كانت تنتظره عربة قنصل جنرال ايطاليا ولما ركب العربة الرسمية كان هناك اكثر من خمسين عنقا تطل من نوافذ وشرفات الفندق تحدق بالشاب مستغربة مندهشة هنا فاجأه شيروبيني

« ان نصف القاهرة يلوك اسمك، فغرفك الفاخرة وعظمتك الفريدة استرعت انظار الناس. فاحذر من زيارات النسوة الجسورات ، وحدائق شريف تمتد حتى أسفل نافذتك ولكن رجاؤنا جميعا بأن نتغلب على كل هؤلاء »

وكان وجه الغرابة أن القصر الذى كان يراه من نافذته وتنتهى اليه الحديقة هو قصر شريف فسار فى تعجبه ودهشته بين جماعات من الحرس والخدم والغوازى فطوائف من المشايخ والدراويش والموظفين والافندية والاجانب والضباط وكل هؤلاء يسدون الطريق الى صالة استقبال شريف الخاصة. وعند ظهورهما أسرع اليهما أحد كبار التشريفات وقال باحترام

« ان سعادة الباشا ينتظركما الآن فى غرفته الخاصة »

هنا همس شيروبيني متهكما

« ساعود فى الحال .وظنى أن هذه هى المؤامرة القديمة البالية « مفيش فلوس Mafees filoos ».والآن فأندريا كاريولا قنصل جنرال ايطاليا يحاول الاتفاق مع الرأسماليين فى ايطاليا لانقاذ الخديوى ومساعدة شريف على اسقاط نوبار

« ولكن ايطاليا نفسها مفلسة . ولهذا اتفق الفرنسيون مع نوبار على بيع مصر لانجلترا . أما الالمان الحريصون فلن يخاطروا بفلس واحد هنا . وأنتم أيها الانجليز عندكم كل المال . ويوجد فى لندن بيت وحيد يمكنه أن يمد الخديوى بالمال اذا أذعن لرغبات شريف . وهذا البيت هو بيت «روفائيل وشركاه» أولئكم المقرضون الروسيون . فهم وأصدقاؤهم يمكنهم أن يحصلوا على كل دولار فى أوروبا . ولكن اذا لعب الخديوى لعبة شريفة فلن يأمن جانب شريف الماكر فهو بسمارك مصر وليس نوبار الا كافورها (١) البارد الحاسب

« فالبرنس حسن والبرنس حسين وحتى توفيق ليسوا الا أشباحا ضعيفة.فثق فقط بشريف ذلك الرجل القوي »

دخل مالكولم كرانفورد (كينيث) الى غرفة شريف الخاصة

---

(١) بسمارك وكافور الاول وزير بروسيا والثانى وزير سردينيا الاول منهما عمل على توحيد المانيا بمكره ودهائه وسياسته المعروفة والثانى وحد ايطاليا بصراحته وحضه على الوئام والالتئام والوطنية

فوجدها مفروشة بافخر الاثاث وقد حوت أسباب النعيم . وبعد أن أشعل سيجارته وشرب قهوته انسحب شيرو بيني على أن ينتظره في المركبة . هنا اتكأ شريف ذو العينين النجلاوتين واشعل سيجارته وقال

« الآن ياعزيزي هل جئت معك بتعلياتك النهائيه ؟ فلقد تعودت أن لا أتباحث الا مع الرؤساء المسئولين : وهل معك رسالة خاصة لي من لورد دربي او من أي عظيم آخر وهل أشعرت قنصل جنرال انجلترا ؟ »

وكأن الدوقة دي فاليريا هي التي أوحت الى الشاب بهذه الكلمات فارسلها بهدوء وتؤدة

« عفوا ياصاحب السعادة اذا أخبرتك بأني جئت لاسألك فقط — كما تقضي بذلك أوامري — عن الساعة التي يمكن أن تقابلني فيها بشخص الخديوي اسماعيل ولهذا ترى أن أوامري محدودة جلية »

فنفخ شريف دخان سيجارته من الغيظ وسأل

«ممن ؟ اني أعلم بان سمو الخديوي أرسل كتابا جفريا لاكبر الماليين في العالم ولا يمكنني أن اقدم الى سموه شخصا مجهولا . فعليك أن تأخذ الاشياء في مصر كما هي وتتقابل معنا في منتصف الطريق فهل تود أن نكون صديقين ؟ »

فهم الشاب بادب وانحنى قائلا

« للخديوي وحده أن يسألني ذلك لا أحدا غيره ! »

فاجاب شريف مخادعا

« واذا رددتك اليوم خائبا ؟ »

فقال الشاب بهدوء

« حينئذ أبرق لرؤسائي عن ذلك وافارق مصر وأترك المسئولية تقع على رأسك وحدك ولك فيما بعد أن تجيب الخديوى عن ذلك . اما أنا فلن أقول شيئا »

فهم شريف متظاهرا بعدم الاكتراث وأجاب

« تعال باكر الى مكتبي في وزارة الداخلية الساعه الثانيـة وآت معك بكل مستنداتك الاصلية لاقدمك لشخص الخديوى في قصر عابدين . لأن أوامر سموه هي التى تقضى بان نجعل زيارتك الاولى جلية مثمرة »

ثم ساد سكون طويل وأجاب ملكولم على مهل

«اذا ارسلت سعادتك أحد ضباط البلاط مصحوبا بطلب منك شخصيا ومعه أمر مكتوب من سمو الخديوي اسماعيل يدعوني فيه بالحضور اليه ومعى كل مستنداتى فانى سألبى طلبك. وبغير ذلك فلن آتى اليك الا لاقدم لك احتراماتى الشخصية دون أن تكون المستندات معى . ثم استعد بعدها للرحيل من مصر»

هنا اتقدت عينا الباشا بنار الحنق والغضب وأخذ يذرع

الغرفة جيئة وذهابا ثم تابع الشاب حديثه

- « ومتى فحص سموه أوراق اعتمادى فلك أن تطلع على المستندات معي دون أن يعمل شيئا فيها فأسلمها لرؤسائي الذين أوفدوني اليه تحت تعليمات محدودة . فأنا لن أتباحث الا مع الخديوى وحده »

فاجاب شريف وقد امتقع وجهه بلون قرمزى

«فليكن ماتريد فانتم معشر الانكليز شكسون عنيدون . ولكن أذكرك بانك لن تجوب مصر فى دقائق معدودة ! فقد تجد الوقت ينقض ظهرك بينما نحن نعمر هنا آلافا من السنين فى دعة وطمأنينة »

وهكذا افترقا بينما كان شريف يتدبر أقرب الوسائل واسهلها لاستمالة هذا الشاب لما رآه من عناده وتصلبه . فرأى فى النساء واستريلوجو (سانتاماريتا) أو شجار عرضى مايقرب اليه ما استعصى على حيلته ودهائه

بعد أن زار شريف قصر عابدين عقب انصراف الشاب بمدة دقائق أرسل اليه أمر الخديوى فى طلبه . وكانت تعلو شفتي لونزوزخريا ابتسامة حلوة حينما عاد اليه كينيث بعد نزهة ثلاث ساعات فى ظل الاشجار المورقة فى شبرا تصحبه أجمل امرأة يحجب طلعتها اليشمك

ما وقفت مركبة الدوقه الخالية على بعد ميل من الفندق

قرب حديقة جميلة فى طريق شبرا صعدت اليها امرأة مقنعة طوع اشارة من يعقوب الذى كان راكبا خلف صندوق العربه ولم يكن يعقوب زخريا ليدرك ماهية تلك الحرب الناشبة فى العربة بين كينيث والدوقة دى فاليرياوالتى وضعت أوزارها بانهزام الدوقة

وقبل رجوعهم من طوافهم حول القاهرة قالت الدوقة

«الان فانى سأضع نفسى رهن صحبة آخرين فى حفلة هذ المساء . اما كلانا فيجب أن لا يعرف عنا الجميع الا أننا ممن جرت العادة بتعارفهم عرضا فى مثل هذا المساء »

فى ذلك المساء بعد أن عاد كينيث من السهرة دست اليه الدوقه ورقة تقول فيها

« كن على استعداد لمقابلة تسرك »

ولما وقفت به العربة أمام (كونسرت بنات فينا) بدلا من فندقه ترجل كينيث وتبع الصبي يعقوب صامتا الى غرفة فاخرة . وما جلس الى الطاولة حتى سمع ضحكة عالية رددت صداها أرجاء القهوة . وكانت الضاحكة تلك الغادة النمساوية الساحرة التى ترأس الكونسرت ثم أتت اليه وقالت باشة

« عفواً أيها الجمل الحالم . تعال معى نشرب كأسا من النبيذ »

ثم قادته بدعة الى مائدة يجلس اليها عملاق أشقر حانى الرأس . ولم يكن هذا الرجل غير شارلى جروسفنر . وهذا صاح به باسما

« لاتغضب أيها الرفيق وهون عليك فاهذه الغادة (ستيفانى) الااحدى صديقاتي القديمات المخلصات فى فينا »

الفصل السابع

(اشارات الخطر ـ جون بول الاسود فى شبرد هوتل ـ مع الخديوى ـ كينيث ! ! عكنك أن تبدأ عملك ـ متى تصلنى الاوراق ؟ ـ تعاهد الامير)

قبض كينيث على يد محدثه صامتا لانه كان مضطرا للتحقق من صاحب هذا الصوت الذى يعرفه. فرأى هنالك رجلا قد تقلص شاربه وقص شعر رأسه على المودة الباريسية

وبينما كان الجرسون يقدم زجاجة من الشمبانيا كان الشاب يتأمل زى ذلك الظريف الباريسى. فلقد كانت سترته مشدودة الاكتاف ذات أطراف طويلة متهدلة وسروال منتفخ كالبالون وحذاء دقيق لامع . وهنا تمتم الشاب

« يخال لى أنك قد سحرت ياشارلس »

هنا انسلت تلك الغادة التى ترأس الموسيقى الوترية وتبعتها ستيفانى قائلة

« سانصرف ياشارلس على أن أعود اليك سريعا »

فهمس اليها شارلس جروسفنر

« سأعود اليك وآخذك معي . اما نحن يا كين فالانظار تتطلع الينا هنا »

ثم قاده من يده بعد أن تحققا أن كلا منهما يحمل مسدسه وقال

« لاتنس أني كنت من سكان بلاد (بكره) و (بقشيش) والآن فاني اسكن «شبرد هوتل» وسأجعل كل همي مراقبة ذلك الايطالي سانتا مارينا . كما اني اعرف كثيراً عن تلك الفتاة الباريسية الشاحبة « اندري لافارج » . والآن ياعزيزي فهاك رسائل شقيقتي ميللي وحبيبتك (كاثلين) اماأنافاعلم كل ماحدث لك من لندن الى الباخرة فالاسكندرية فالقاهرة الى آخر سهرة كنت فيها الآن .

« واني اعرف حق المعرفة ذلك العجوز (بروس جرانتون) قنصل جنرال بريطانيا . فقد كنا في الخرطوم نصيد معا وحيد القرن . ولقد قابلته هذا النهار وسألني هل أعرف مستر ملكولم كرانفورد وهل مهمته تتفق مع مصالح بريطانيا هنا؟وربمادعاك اليه ثانية . واني سأحوم حول القاهرة وأجوس خلالها.فسأزور صالات البليارد وحفلات جراند هوتل .وربماسنحت لناالفرص

فنزور القلعة وقبور الخلفاء والاهرام. واما الآن فسأعمل جهدى لمعرفة أولئك الذين يتعقبونك

« واذكر بأنه يجب أن تنسى الكلفة بيننا علنا . ولن أعدم صديقا يدعوك للتغذى أو التنزة معه حتى يمكنى بواسطته الاجتماع بك

«والآن فعد الى القهوة النمساوية وتناول زجاجتين أو ثلاثا من الجعة ودخن سيجارة أو سيجارتين . أما أنا فسأتبعك بعد قليل واجلس بعيداً عنك لاراقب تلك الدائرة التى تحيط بك ثم اتبعك بعد انصرافك الى الفندق

« ولكنى أرجوك أن تحذر موريللى ولاتخشاها فهى موالية بكل انسان . فاذا ما ابتسمت فذلك رغبة منها فى تغيير المناظر . وأما الآخرون فهم أكثر خطراً »

بعد أن تنزها دقائق معدودة سأل الشاب جروسفنر

« وهل تعرف الدوقة دى فاليريا؟»

فاجاب جروسفنر بهدوء

«ولماذا تسألنى ذلك ؟ »

فأجاب الشاب وعليه أمارات التلعثم والارتباك دون أن يلاحظ امتقاع وجه جروسفنر

« انى لاأدرك بأية وسيلة قد اعترضت سبيلى هذه الدوقة

هنا . وهل ستكون عائقا أو مساعدا فى أمر مستقبلى »

فتمتم جروسفنر

« عليك ان تقابلنى بها بأية طريقة . وهل تذهب هى ايضا الى سنيور كاريولى قنصل جنرال ايطاليا ؟ . أجل فانى اعرفهم جميعا وهذه الدوقة صديقة قديمة لى . فاذا كانت تذهب حقا هناك فاجعل القنصل يدعونى معها الى الغذاء »

فصاح كينيث

« هذه أحسن فكرة ! ! فهى أما أن تذهب من حياتى الى الابد أو تصبح ألصق الناس بى »

وكانا قد اقتربا من القهوة حيث كان بها ماير بو على الخمسين شخصا والموسيقى الوترية تثير العواطف ثم سكنت فجأة فقال جروسفنر

« خذ حذرك فانى أريد ان أتصيد ستيفانى . أما أنت فلا تتشاجر مع أحد من هؤلاء الجريكيين أو أى واحد ممن فى القهوة . فالمكان يموج دائما بأبطال التجارة »

جلس الشاب الى مقعده فى القهوة ولم يطل مكثه حتى رأى ستيفانى مسندة رأسها بيديها النحيلتين وتحادث شارلس جروسفنر

وبينما هو يعجب من ذلك الشقاء التى تعيش فيه هذه الفتيات التعيسات مع ماهن عليه من جمال ساحر فتان تبدل ظنه من

جهة جرسفنر ومبلغ علاقتهما معا . فلقد رأى صدر الفتاة يرتفع وينخفض بشدة وكانت أصابعها مشتبكة في صورة تضرع وتوسل. والظاهر أن أمراً خطيراً كان هناك . ثم رأى سانتا ماريتا مستنداً الى أحد الابواب وينظر بغل ومقت الى جروسفنر . بعدئذ قامت ستيفاني وعادت الى مكانها من الاوركسترا وأمسكت الناى منتظرة قرينتها. ولكن سانتا ماريتا تقدم منها الى الحاجز وأشار اليها بحركة كلها خسة وقحة . ولكن كانت نظراته عبثا فلقد ظلت الفتاة تنظر من فوق رأسه الى جروسفنر دون أن تحرك عضوا من وجهها مما صبغ وجه الايطالى بحمرة الغيظ والكمد

ولقد كان هذا نضال القدر . فان كينيث انتابته قشعريرة بسيطة ثم ترك مقعده وخرج من الباب بينما ذهب الايطالى الى الغرفة المجاورة حيث يلعبون (الروليت) وقال في نفسه غاضبا

« سأجعل من مهجة هذا الافاق متى سنحت الفرصة هدفا لخنجرى »

ولما عاد كينيث الى الفندق فاجأه سومز

« أريد أن أحدثك بامر غريب ياسيدى . فجارنا المدعو سير هوراس لينجارد اعترضنى فى طريقى عقب خروجك وألح

على فى ان اعطيه مفتاحا ثانيا لغرفتك وان اعطيه بعض المعلومات عنك ونفحنى بورقة ذات مائة جنيه . وها هى الورقة المالية »

فاجاب كينيث وقد تملكه الوجل

« سأرسلك غداً الى مستر شارلس جروسفنر فى شبرد هوتل وعليك ان تخبره بكل شيء »

في ذلك المساء كانت سيدة تطل من نافذتها ترعى النجوم وترسل بالتنهدات العميقة فى جنح السحر . نعم فلقد كانت ترعى النجوم التى رعاها من قبل فالنستين مترحما وشارلس الخامس ضارعا متوسلا وقالت

« مهما بلغت ظنونه فلن يلقانى طائشة «أوكاميليا» (١). نعم فسيقرأ الحقيقة الناصعة المجردة في وجهى . وخير لى أن أموت تحت قدميه من أن يظن لحظة واحدة انى عملت على خيانته . والآن فالواجب أن يعمل كل من صديقيه السريين منفردا وهكذا سيلقانى جروسفنر كغريب عنى وواجبي أن أحذره. نعم في هذه الليلة »

وفي الصباح حينما ذهب سومز لمقابلة مستر جروسفنر في شبرد هوتل وقص عليه أمر سير هارى لينجارد أجابه هذا

---

(١) اسم لبطلة الرواية المعروفه (لادام أوكاميليا La Dame aux camélias

«سأجعل من الآن مقابلتي معك ومع سيدك في زورقي الخاص عند كوبري بولاق . أما هذا المساء فاتبع سيدك عن كثب الى قهوة فينا وراقب ذلك المدعو سير هاري لينجارد ومن يحيط بسيدك ، وسأكون هناك فلا تحاول مكالمتي . ولكن متى خرجت فيجب على سيدك أن يتبعني . أما أنت فاتبعنا معا عن كثب وراقب من يتعقبنا . ولكن أخبرني مارأيته عن سير هاري لينجارد ؟ »

فأجاب سومز

« أراه دائما مع كونت دى سانتا مارينا . وهذا الأخير فاني أراه مع ستيفاني رئيسة كونسرت القهوة النمساوية أو مع تلك الفتاة الجرمانية ليشين بائعة الزهور

«ولقد زار قنصل جنرال بريطانيا هاتين الفتاتين ولاحظت أنه مكث بغرفتهما أكثر من ساعة بينما خرج « سير هاري » و « سانتا مارينا »

بعد أن انصرف سومز أخذ يفكر جروسفنر في أمر سير لينجارد ولادى لينجارد وأدرك بأنه لابد لوجودهما بجراندهوتل من فائدة سياسية خاصة والا لما تنازل الكولونل بروس جرانتون قنصل جنرال انجلترا الى أن يعيرهما نظرة واحدة

ولقد أصابه الذهول حينما أتى اليه مدير الفندق وسلمه

خطابا أتى به رسول زنجى وأوحى بأن لا يسلم لغير مستر شارلس جروسفنر

وبعد أن انصرف المدير أخذ شارلس جروسفنر يراجع ماضي حياته ثم تنهد وأفلت الكتاب من يده وقال

« طبعا سأذهب اليها عند الافطار . ومن السهل أن أقوم بتمثيل دور أحد الافاقين في الشتاء. غير انى أرى فى الحذر أسلم عاقبة. فهى تعلم كل ما يدور فى القاهرة . واذا كان ريكسهام متشبثا برأيه فأن عقيدته في نساء القارة مجرد خبل وجنون »

ذهب بعد ذلك فكر هذا النبيل الصغير الى احدى ليالى الصيف من أربع سنين مضت حينما هبت زوبعة قلبت احدى زوارق النزهة فى بحيرة ايمان بعيدا من قلعة شيلون . غير أنه لم يكن ليعرف من هى تلك الطفلة الصغيرة التى أنقذها من بين الأمواج وحملها الى شاطىء البحيرة حتى جاءت أمها وقلبها بين عاملى الفرح والوجل وأخذت تقبلها فاقسم جروسفنر لحينه

«اقسم بأنها خير امرأة أرسلها الله لى ! »

غير أنه كانت هناك ظروف بين العائلتين حالت طويلا دون اجتماع هذين الحبيبين فارادة لورد ريكسهام الحديدية لم تتزعزع حتى تملك جروسفنر اليأس وظن أن ليس فى مقدوره تحطيمها أجل . فلم يكن أحد غيره يدرك مبلغ تعلقه بهذه المرأة

التى لم يجسر للآن أن يعلن عنها للملأ .

ثم لمعت عينا الشاب المحترق بنار الحب وقرأ تلك السطور الرقيقة، لأن الدوقة الفاتنة كشفت له لأول مرة عن مكنون فؤادها المعذب وآلام قلبها الخافق . فهنا على ضفاف النيل وفوق تربة مصر السحرية حدثته بالصدق وصارحته بالحقيقة . فكانت سطورها كأنها نار مستعرة . أعاد قراءة الرسالة بينما كانت نفحات النسيم التى تهب على جنة اللوتوس (١) تلفح جبينه

« انى لم أشأ أن أحدثك عن عذابى فى هذه الشهور الطويلة من حين افتراقنا . ولكن قلبي يدفعني على الرغم مني لأن أدعوك وان كان الواجب يحتم عليك بأن تأتي الىّ . ولكن فى الوقت الذى يناديك فيها قلبي أن تعال فان الحكمة تجيب ببرود وقسوة كلا يجب الانتظار والتمهل . فلك أن تثق بالمستقبل فسيأتى يوم تبرأ فيه أيها القلب المعذب من الآلام

« والآن فليس لى أمل فى الحياة الا زواجنا . وأن قلبي ليخفق سرورا لمجرد ذكري هذه الأمنية . فهو يدرك مايصيبه من الهناء والطمأنينة بين ذراعيك المحبوبين !! وأنت تعرف ويجب أن تشعر بأن اللحظات السعيدة فى حياتى هى التى أشعر بأنك

---

(١) يشير بذلك الى أرض مصر لأن اللوتوس زهر أو نبات مصرى

تضمنى فيها بحرارة الى صدرك الحنون

« فأنت عزيزى الأوحد بل أعز الى من نفسى وليس في مقدورك أن تنظر الى أحد سواى »

من هذه الاعترافات الحارة الصادقة من قلب متقد لامرأة ثائرة أدرك الشاب مبلغ تعلقه بها وأنه لها كما هى له الى الأبد وقال

«ما كنت أعلم قط بأن الوقت الذى كنت أحاول فيه إخفاء آلامى وأشواقى أن هذه المرأة تشاطرني اياها »

وحقا فان كلمات هذه المرأة حركت في قلبه المتيم مدامن الحب طغى على كل شعور سواه فتمتم

«أتكون وحيدة ؟ الله يعلم اني كنت وحيدا كذلك؟ والآن فكلانا مخلص للآخر حتى الموت »

ثم تملكه العجب من معرفتها المهمة صديقه كينيث بهذه السرعة . وقبل أن يخرج في نزهة قصيرة الي «فيلارندفو» بعد ذلك بساعتين تحقق ان ليس فى استطاعته أن يستمر زاويا شخصيته الاجتماعية وصمم على ان يسطع ككوكب فى سماء الاجتماع الى جانبها

أما كينيث جريفث فبينما كان فى عزلته يدرس باهتمام ذلك المشروع وتلك التعليمات التى سيسير بموجبها دخل عليه يعقوب

زخريا يتقدم والده الى الغرفة الوحيدة البعيدة عن اعين الرقباء في هذا الطابق وهكذا قال

« ها هى مركبة القنصل البريطانى فى انتظارك يصحبها قواص وترجمان خصوصى فكن على حذر واستعد للطوارىء ولا تتركه يقطع عليك مهمتك اليوم مع شريف باشا وسمو الخديوى

« وذلة واحدة منك تعود بأسوأ النتائج : اما انا فسأكون هنا عند رجوعك وكل ما اخشاه ان تكون هناك مساع لاخراجك من مصر »

وهكذا ركب كينيث طوطا الكتاب وصله من الوكالة البريطانية والقنصل البريطانى يأمرانه فيه بسرعة الحضور

ولما دخل على الكولونل بروس جرانتون قنصل جنرال بريطانيا وجده منزويا خلف مكتب مكدس بالاوراق بينما جدران الغرفة محلاة بالخرائط وبادره بالحديث

« لقد أرسلت لك يامستر ملكولم كرانفورد لاخبرك بأنه طالما أن قدومك الى مصر غير معلوم لى رسميا وأن الاحوال التى تحيط بك فى جراند هوتل تشير الى أن هناك مهمة سرية شخصية ذات اهمية عظمى فأني أرجو بأن لا يكون لديك مشروعات تتعارض مع سياسة حكومة صاحبة الجلالة . وطبعا فانى مسئول هنا عن جميع رعايا بريطانيا

فتمتم كرانفورد

« أني سأصلح هذا الاهمال بأن اترك لك بطاقة فى الغد لانى شخص ذوحيثية خاصة ممتازة. ولكى أزيدك أيضاحا أقول بأنى أخطأت فى زيارتى لك »

فاجاب الكولونل

« انى أعلم حق العلم بأنك مزود بخطابات من ايرل اوف دربى الى أناس هنا . ولكن أذكر يا مستر ملكوم بأن نوبار باشا خول لجردون باشا فى سنة ١٨٧٣ حكم واصلاح السودان ودارفور وخط الاستواء . كما أن الخديوى اعطاه سلطة خاصة ١٨٧٧ بصفته خلفا للسير صمويل بيكر. فبيكر دغردون ونوبار ليسوا فى الحقيقة الا صنائع يخدمون سياسة انجلترا. ومع أن ايرل أوف دربى رجل نبيل الا أنه لا يختص بأية مسئولية رسمية الآن . ولذا فانى سأجعلك تحت مراقبتى

« واذكر بأنك زرت شريف . وشريف هذا يعمل على اسقاط نوبار وبذا يقضى على سياسة بريطانيا وفرنسا المشتركة فى مصر. لانا نحن الحليفتين أصبحنا المالكين الشرعيين للقنال فاحذر أن تسيء الى وطنك فتلجئنى لمعاملتك ببعض من البرود والآن فانى أدعوك غداً للغذاء . »

فاجاب الشاب بهدوء

« أني سأقابل هذه المعاملة الباردة بامتنان . وانى آسف اذا قلت بأن واجبي يحتم عليَّ كموظف مسئول أن لا أجيب عن شيء من اسئلتك . غير انى أوكد لك بأن مهمتي لا تتعارض مع مصالح انجلترا التي يخدمها نوبار وبيكر وغردون »

ثم ترك الشاب القنصل يحرق الأرم ويقول فى نفسه

« ان هذا الشاب لغز من الالغاز فعلى صاحبنا لينجارد آن يرسل لنا كل يوم تقريراً عن الزيارات الخفية الى مسكنه والآن فانى سأرسل الى جروسفنر فربما يعرف من هذا الشاب.

وقبل الغروب كان النبيل تشارلس جروسفنر قد هدأ مخاوف قنصل جنرال بريطانيا ومما قاله

« ان هذا الشاب ليس الا رجل عمل . وقد علمت بأنه يفحص مشروعات خاصة بزراعة القطن وقصب السكر فى مصر لجماعة من الرأسماليين .

« ولكنى ألاحظ بأن المدعو سيرهارى لينجارد وزوجه يتجسسان فى جراند هوتل فهل تعرفهما ؟ »

فبدت آثار التفكير والتغيير فى وجه القنصل حينما أجاب

« ليس لينجارد على ما اعتقد الا يرتغالى خامل ولو أنه يدعو نفسه سير هارى لينجارد . ويغلب على ظنى بأنه وامرأته ليسا الا أفاقين متأنقين فى لباسهما »

بينما كان كينيث جريفث يقص على لور نز وزخريا نتيجة مقابلته مع القنصل البريطانى اطمأن لذلك وأجاب

« سنراقبك من الان ونشدد فى حراستك . أما أنت فتى تقابلت مع شخص الخديوى فستنتهى مساعى الجواسيس ويصبح تلصصهم بلا جدوى . فاذا ما تقابلت باكر مع الخديوى فادفعه الى الاسراع فى العمل . واحذر أن تتورط فى شجار أو خصام مع أحد ساكنى هذا الفندق »

فى الساعة التالية جاءه ضابط مصرى وأعلنه بأنه جاء ليأخذه الى الوزير . وبينما كان ينزل درج السلم اعترضته لادى لينجارد وابتسمت بغنج ودست فى يده باقة صغيرة من زهر البنفسج . وحقا كان هذا أول هجوم من أعدائه المجهولين ولو أنه لم يكن هناك من شاهد هذه القحة المخجلة . ولما ركب العربة أبصر بين ثنايا الباقة وريقة ففضها وقرأ فيها

« يجب أن أكلمك على انفراد . فكن عند كشك موسيقى حديقة الازبكية هذا المساء الساعة التاسعة . وسأقابلك فى زى عربي »

فتمتم كينيث

« لقد كان هذا اليهودى العجوز على حق اذ ربما كانت هذه المقابلة خدعة لادخالى فى شجار يكون فيه اغتيالى . وليس

لاحد غير جروسفنر أن يحل هذا اللغز»

كان يعتقد الشاب بأن مقابلة الخديوى ستكون فى قصر عابدين . غير أنه رأى أن مركبة شريف باشا تشق طريقها الى العباسية . ولما وصل قصر العباسية أدخله شريف فى غرفة وانسحب . فأخذ يطل الشاب من النافذة الى ذلك النيل المظيم حيث لا يزال صوت الكرباج يرن في أرجاء واديه

وهنا دخل عليه اسماعيل فى لباسه الملوكى الفاخر فوجم الشاب ووقف صامتا غير أنه تمالك نفسه حينما فاجأه الخديوى بالكلام وتناول منه أوراق اعتماده

« أنت بلا شك الوكيل المرسل لى بواسطة مصطفى فهمى باشا . اجلس ياسيدى»

وبعد أن فحص المستندات سأله بينما كان يقرأ أسرار الفتى في وجهه

« هل كلمت أحداً هنا عن حقيقة مهمتك ؟ »

فوقف كينيث احتراما وأجاب

« كلا ياصاحب السمو ! »

فقال الخديوى مظهراً عدم الاكتراث

« ان فى صغر سنك ما يجعلك غير أهل لمثل هذا العمل ! »

فاجاب الشاب على مهل

«أذكر يامولاى لو ان الامر بالسن فهنا فى مصر من هم أحق بالملك منك وان أبخسك شأنك فأقول من أبناء العامة أو أوساط الشعب او طبقة الباشوات بل من سلالة جدك الاكبر محمد علي ربيب المجد والشرف . فالعرفان والقدرة والحكمة شيء يامولاي والسن شيء آخر . واني خبرت الحياة على صغر وتجشمت صعابها فقضيت أكثر من اثنى عشر عاما متنقلا فى ارجاء القارة أفحص المشروعات العملية والمالية مابين حكومية وأهلية»

فقال الخديوى وصوب اليه نظره ليستطلع خفايا أفكاره

« اذن قص علىّ ماتقضى به أوامرك وليكن باختصار »

فاجاب الشاب بعد أن أشار عليه الخديوى بالجلوس

« انى مكلف يامولاى بأن أطلع فى الحال على كل الاوراق الاصلية المشتملة على كل التفاصيل الخاصة بمقدار ضياع سموك الخصوصية ومساحة المزرع من القطن وقصب السكر وكل الموارد الممكنة التى لاتشتمل عليها سجلاتك وموارد السودان المالية المنتظرة وكذا دارفور واقليم خط الاستواء المصرى

« وحينئذ أبعث بكل هذه التفاصيل لرؤسائى فى لندن عن مواردك الخاصة التي اذا أضيفت اليها موارد الحكومة الزهيدة أصبح فى حكم المستطاع أن يأتى دافيد هارت وجيمس

لورى وبنيامين وأولاده تظاهرهم جميع البيوتات المالية فى العالم ويعملون جميعا على تسديد القروض التى لم تدفع بعد . ولكى يفتحوا اعتمادا هائلا ماليا فيؤمنوا الدين الاهلى وليرتبوا كل التزامات سموكم الخاصة وليكثروا من طرق الرى ويحسنوها ويحضرون مشروعا به يمكن تسوية كل الديون وتوحيدها بفوائد شريفة معتدله . وهذا مجمل كل مافى مشروعنا

« وهذه الفكرة لو صدرت عن آخرين من الرأسماليين الأجانب (وكثير منهم اصحاب الديون) لوافقت عليها الحكومتان الانجليزية والفرنسية وهذا فيه ضياع كل املاكك وضياعك

« وبتعبير آخر اقول انما جئنا لانقاذك ماليا . فلو وكلت أمر أدارة كل ذلك الى دافيدهارت فان هذا لا يمس حقوقك وسلطتك الشرعية لان الامر لايدخل الا فى دائرة الاصلاح والتحسين ولا يمس الادارة .

« وكل هذا يتوقف على شرط مخصوص . وهو أن تكشف لى وتمكنى مدة ثلاثة شهور من مراجعة سجلات مصادر الثروة الاهلية والخاصة وحينئذ يقبل دافيدهارت لتولى ذلك المركز الذى تتفضلون عليه به والذى لا يقل عن مركز حاكم الهند العام فى مسئوليته ومشقته »

فتمثم اسماعيل

«انكم بهذا تغلون يدى وخير لى أن أترك الفتوح الاستوائية وذلك المشروع الهائل الذى يدبره غردون باشا فى السودان من التسليم بما تطلب»

فأجاب الشاب باهتمام

«ولكن الاقتصاد يدعوا الى ذلك الآن. وبهذه المناسبة أمرت بأن أقول لسموكم بأنه من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٩ لم تثبت ملكيتكم حقيقة للاقاليم الاستوائى

«لان انهزام الجيش المصرى فى سهل غورا جعل الاحباش وسكان دارفورو أهالى السودان يعتقدون بأنه من السهل دائما قهر كل جيش مصرى»

فلمعت عينا اسماعيل بلهيب الغضب وقال محتداً

«هل أخبروك بأن تقول هذا لى! انى أعتبر غردون باشا رجلا عظيما و... رجلا شريفا! وانى دائما اثق به وأركن اليه»

فأجاب الشاب مجداً

«ان جزية (أتاوة) العاج مورد مشكوك فى أمره

«أما تلك الفوائد المخجلة التى تعود من تجارة الرقيق فهى المصدر الحالى الوحيد لدخل السودان

«ويجب أن تذكر يامولاى بأن غردون باشا لم يبن شيئاً يذكر من تلك الامبراطورية الواسعة التى يحلم بها. لان نفوذ

غردون وسلطته على الآخرين لم تبلغ تلك المقدرة التي يمكن للانسان أن يحكم بها نفسه . فالحكومة الانجليزية لم تسند اليه قط أية قيادة انجليزية كبيرة مهما قيل عن كفاءته الشخصية ونبله

«فان نفوذه في الصين حتى هذا الحين ليس الا شبحاً خرافياً . وما زال الفوتاى ولى هانج تشانج قصاب الوانجزفسوشو متولياً رئاسة الوزارة وقيادة الجيش في الصين . وربما كان للجنرالى (ولزلى) وروبرت أن يموتا من أشراف انجلترا أو من المشيرين بينما ذلك المتلالىء غردون لم يبن شيئاً حقيقيا للآن

« ولم يتسن لاي مخلوق للآن أن يغير المسائل العملية العظيمة بواسطة عظمته الخاصة الادبية (تأثير شخصه الادبي) . وربما كان عمر غردون أقل أو أكثر مما تظن . ولكن بواسطة ذلك الموردين الوحيدين في السودان - الرقيق والعاج - فان الزبير باشا الماكر في أمكانه أن يحصد من النيل الاعلى أكثر مما يحصده غردون لسبب بسيط وهو أنه قاس وشره وغير شريف »

ثم توقف الشاب برهة خشية أن يثير غضب الخديوى ثم استأنف حديثه لما رآه من انتباهه

« هذه هي الاستعراضات السرية لمبلغ الف مليون دولار تحت الطلب التي أمثلها هنا . وقد أوصوني بالحاح أن أقول لمولاى بأن السودان لو كان ذا قيمة فانما لفائدة أناس اخرين في المستقبل .

لاسلالتك . وبالنسبة للفكرة الجغرافيـة فربما كان من نصيب انجلترا وحدها وليس من نصيبكم »

فأجاب الخديوى الجافل بمـرارة

« معنى هذا رقابة انجلترا طبعا . وإنى أعرف كيف سابونى القنال الذى هو أثرى النفيس . فقدكان صافى دخله فى السنة الاولى مائتى الف جنيه وفى عشر سنين سيكون مجموع دخله مابين ثلاثة الى اربعة ملايين من الجنيهات »

وهنا نظر للشاب بتهلف وجد وقال

« والان ياسيدى قل لى أين قوتك السحرية التى تدفع عنى ديونى وتوجد لى المال ، خبرنى عن كل ذلك ! »

فأجاب الشاب

« أولا اخلاء السودان تدريجيا وثانيا اقتصاد عظيم فى المصالح العامة ثم تعديل تام لكل تعهدات العرش الخاصة »

فانقلبت العبوسة فى وجه اسماعيل الى غمامة سوداء وقاطعه

« هذا ربما يعنى الاستجداء أو النفى السياسى »

فتابع الشاب حديثه

« أن السر الحقيقى هـو فى اصلاح الرى وزيادة زراعة القطن وقصب السكر واستثمار تلك الضياع الواسعة التى تمتلكها الان سموكم والتى تبلغ أكثر من ثلث أراضى مصر القابلة للزراعة

« وذلك الربح المؤكد الذى تحصلون عليه من زراعة القطن حيث تخرج الارض نحو المائة وخمسين مليونا رطلا من اربعماية الف فدان تزرع الان يمكن ابلاغها فى مدة عشر سنين الى ستماية مليون رطلا اذا زيدت المساحة المنزرعة قطنا الى مليون فدان وانى أمرت بأن الخص القناطر والترع والضياع الواسعة وبما ان لدى سموكم أراضي خاملة لا تثمر فكذالك لدينا اموال طائلة نريد استثمارها . وان فى اقتصاد عشرة اعوام مايكفل بأن يجعل دخل مصر خمسين مليون دولارا وزيادة سنوية تبلغ الثلاثة او الاربعة ملايين

«والسكر ليس بمحصول يمكن الاعتماد عليه بما أن محصول سكر البنجر عم العالم ويعادل الان ثلاثة لاثنين . فمع الاقتصاد الشديد ومساعدة المنتجين الاكيدة وخبرة دافيد هارت يمكن انقاذ سموكم . فزراعة القطن اصبحت آخر امل لكم الان »

فسأله الخديوى بوقار وهدوء لما رآه من بساطة الفكرة

« وما تريد منى عمله ؟ »

وأجاب الشاب

« ارجو اصدار اوامرك الرفيعة لمكتبك الخاص بأن يضع امامى كل المستندات المطلوبة ويكون ذلك فى مكان امين تختاره سموكم ثم تسمح لى بالتفتيش مدة مافى مصر السفلى وهنالك ابحث

بذلك تقريرا الى لندن

« وليست هاته نظرياتى . بل هى اوامرى ياصاحب السمو اجل فهى نظريات اولئك الراسماليين الاوربيين الذين صمموا على نجدتكم . وان الايام السوداء لتنذر كل حين بكارثه مروعة فهاك كل ماتشتمل عليه مهمتى وما تقضى به على اوامرى »

فسأل اسماعيل مفكرا حيث هالته الارقام والطوارىء التى ذكرها الشاب وتذكر ذلك اليوم الذى ينذر بسقوطه

« ومتى يمكنك أن تشرع فى عملك؟ »

فاجاب الشاب

« ومتى يمكنك أن تمدنى دون تحفظ بجميع المستندات التى أطلبها؟ فهاقد جهزت القوائم والجداول بها. واذكر يامولاى بأن كل تمهل يقرب الكارثة التى تقضى على آمالكم فى عمل تسوية مالية عامة . وهذا هو الغرض الكلى لأولئك الرأسماليين الذين يريدون أن يمدوكم بخمسين مليونا من الجنيهات اذا ماعاهدتموهم عهدا صادقا على مايطلبونه من سموكم »

فصاح الخديوى اسماعيل

« انى سآمر بتكوين لجنة سريعة لهذا الغرض . فهناك ولسن مستشارى الكبير وغردون باشا أيضا ولو أنه رجلا لايشيد الامبراطوريات كما تقول ولكنه رجل شريف وهو

الانجليزى الفريد الذى أثق به وأركن لمشورته . ثم واحدا من أولادى وشريف باشا طبعا وأخيرا ناظر المالية وستكون معنا فى الجلسات السرية وسأعطى من الآن الاوامر الصارمة لاحضار المستندات الى هنا فى الغد . وسأبرق اليوم الى غردون لأن يأتى الينا من السودان فى الحال وبذا يكون هنا خمسة أعضاء . أما فى الوقت الحاضر فستكون ضيفى حتى تنعقد اللجنة وسأمكنك من الآن بأن تجرى تفتيشك حتى تسل الاوراق »

فقال كينيث متوسلا قبل ان ينصرف

« أريد المستندات قبل كل شيء يامولاى !! »

انصرف الشاب وهو يردد مايجول بخاطره فيما يتعلق بالمالية المصرية وطرق الاقتصاد من تنظيم دفع الفوائد وزيادة مساحة ما يزرع قطنا اضعافا مضاعفة وتخفيض الجيش الى الحد الذى تسمح به الظروف وكذلك موظفى ذلك البلاط الاجوف واغلاق نصف الحريمات التى لا نفع لها ثم ادارة المالية المصرية على قواعد مضمونة ثابتة . والاستفادة من طمي النيل السنوى المتجدد وتسهيل طرق الرى بطريقة علمية . وقد رأى أن فى ذلك مايجعل تربة النيل تبرا . ثم أخذ يفكر فى تلك السنين الست التى قضاها غوردون فى السودان لاسباب واهية خيالية . فهوان يقوى على حكم ذلك الجم الذى يبلغ نحو المليونين بواسطة شرفه وطيبة قلبه وأمانته

فهو لن يهبط الى قرارهم وهم لن يرتقوا الى درجته . فهناك بون شاسع يحرم الالفة بينهم وسيأتى يوم تهزل فيه تلك الادارة الادنة وبذا يصبح السودان ـ أرض السود ـ أفريقيا المظلمة ثانية . ثم ترى السودان ومصر وليبيا مقراً للاحتلال والملكية البريطانية الدائمة ...

كانت الكواكب تضىء السحر وتكشف الظلمة عن القاهرة تلك المدينة البائسة . وهناك حاكم مستبد أطل من نافذة قصره فى عابدين وتمتم .

« انى لن أجسر على ان اسلمهم الاوراق ! !

« لان شريف يعرف ما فيها . وربما عن له أن يخوننى كى ينجو بنفسه . وربما يجد فى ذلك نوبار طريقة للوصول الى كنوزى الواسعة فتأخذ فرنسا وانجلترا كل شىء . وربما وضعا وقتئذ شريف على العرش . أو أرسلا نوبار لوضع يده على ملايينى فى اوربا فالواجب يقضى على بأن أثق بشريف حتى يجد طريقا للخلاص وبذا ينقذنى وينجو بنفسه . أما الاوراق فلن اسلمها باية حالة »

الفصل الثامن

كان هناك كثير من طبقة الباشوات علأون قصر شريف في تلك المأدبة العظيمة التي دعاهم اليها . وقد مكثوا في هرج حتى ساعة متأخرة من الليل

وكان هناك مجلسا سريا من كبار الفلاحين كانت فيه اللعنات وعبارات السخط تنزل على رأس نوبار ذلك الخائن الذى كان بروجرامه الممقوت « الاصلاح والاقتصاد »

وهنا دمدم أحد السوريين السامين

« وحق الرسول . ان حملة صموئيل بيكر ومد التلغراف الى الخرطوم والطريق الحديدى الى أسيوط وتلك الاحلام الاستوائية ووظيفة جنرال غردون ليست الا حيلة سافلة من نوبار لتسليم مصر لاسياده الانجليز . فكل شيء يسقط في أيديهم بينما نحن هنا ندفع ثمنه »

فصاح آخر غاضبا

« انى أعلم الحقيقة . ان في استخدام اسم غردون الذى ملأت شهرته الآفاق لشراكا لقنص كل ما علكه اصحاب القروض الانكليزية . وحقا انه رجل شريف وفقير أيضا وان في عظم اسمه سبيل للاغواء والتغرير . فنوبار يستخدم المال حيث عكن

ان يعود على أسياده الانجليز بالفائدة في الوقت المناسب وهو يشعر بكارثة مقبلة . وسيحميه طبعا أسياده الانكليز فقبرص وصفقة القنال والمراقبة الماليـة كل هذه نذر تنـذر بسقوط مصر . لانهم أنما يطعمون سمو الخـديوى بأموال مقترضة . ومتى وقعت الواقعة أصبح باشوات مصر وليس لهم من حول أو قوة تحميهم »

فى ذاك الوقت كان أمر لجنة التفتيش السرى للاصلاحات المرغوبة المزمـع قدومها تلوكه ألسنة القاهريين . لان شريف رأى من مصلحته أن يذيع ذلك حتى يجعل مركز كينيث جريفث فى مصر حرجا وغير مجد

وكان شريف يتآمر الآن فى مكتبه مع سـير لينجارد وسانتا مارينا على حياة هذا الشاب وقال

« يجب أن نحبط أعماله وانى ان أبالى بما يصيبه من سوء . انما يجب أن لا تظهر لى يد فى هذه المؤامرة لان وراءه قوة انجليزية كبيرة تحميه . ولانه لو نجح ففى ذلك خرابى . واذا فشل فان سمو الخديوى يعزل نوبار كنعجة هاربة ويدعونى لتولى الوزارة »

فنظر سير هارى لينجار الى سانتا مارينا وقال

« أنه شيطان ماكر ولا سبيل لاغوائه الا بالقمار والخمر والنساء وبذا نجد طريقة للقضاء على حياته ومشروعاته . فنحن سنتعقبه فى خيام الغوازى والمحلات العامة وحتى حـول ممفيس

وسقارة والاهرام حتى نجـد وسيلة لاغتياله أو الدخول معه فى مبارزة تقضى عليه .فأنى لن أعدم طريقة فى التآمر مع مشايخ الاعراب عليه هناك

« أما استيفانى فقد ذهبت حيلى معها لاستغواء هذا الشاب أدراج الرياح. فقدهددتنى بمبارحة القاهرة .فلنتعاهد مع شريف باشا الان . ولكي نبدأ عملنا يجب أن يحصل كلامنا على الف جنيه على الاقل حتى نأمن على أتعابنا . وسأذهب هذا المساء الى فندق شبرد . فاذا ما أرسلت الى ليشين لمقابلتى فى غرفة أندرى لا فارج فسأبدأ الرقص »

بعد دقيقتين كان الشقيان قد افترقا عند سلم جرند هوتل

وكان جروسفنر فى ذاك الحين وصديقه أمام مكتب لورنزو زكريا وهذا يدهشهما بذكائه وقال

«ان هنافى مصر فرص كثيرة للغرق والتسميم وعشرات من أنواع الموت السافلة . ففى مدة عشرين سنة رأيت عشرات من ذوى الحيثية يرسلون الى السودان أو الى أعالى النيل أو داخلية البلاد القاصية وهكذا تنقطع أخبارهم عند ذلك ولا يعلم من أمرهم شيء

« ولذا احرص على صديقك الشاب بينما أعمل على نجدته لان فى تقصيرى عن مساعدته خرابى »

فسأل جروسفنر

« ألا يمكن أن يذهب الى مكان أمين ؟ »

فأجاب اليهودى

« اعلم يا صديقى بأن سياسة اسماعيل توجب عليه مراقبة جراند هوتل . فجواسيسه تملأ الازبكية كرمل الصحراء . وهو يعمل الآن لان يضرب نوبار بشريف وشريف بنوبار وأن يجعل من تنافر مصالح الدول العظمى سبيلا لحفظ سلطانه بينما يسخر من الجميع ولاهم له الا جمع المال

« ولكن هناك رجلا واحدا يعرف الحقيقة الدفينة وهو شريف . فبينما كان الخديوى يسلب ابن سعيد العرش ويقصى عنه عمه حليم وينكر أخاه مصطفى ويدفع بصديق باشا المفتش الى هوة الخلود ثم يضع يده على ثلث أراضى مصر كان شريف الشخص الوحيد الذى ترك بنجاة من مكره ينعم ويمتلىء

« أما راتب صهره فكان معه يعملان على القيام بأود تلكمو الغادات التى تزيد على التسعمائة واللاتى كن يملأن حريمات الجزيرة وشبرا وقصر النزهة وعابدين

« ولما تم بناء الاوبرا وتلك القصور الواسعة للامبراطورة أوجينى واستعداداً لزيارة امبراطورة النمسا والبرنس أوف ويلس باع الخديوى هذين الرجلين كل العقود وهكذا صارت القروض وخصوصا الانكليزية فى خطر

« فصديقك ولو أنه فى مصر ضيف الخديوى فهو ليس بمنجاة من الخطر اذا أراد شريف به سوءاً . ولكن هناك نفوذاً تجاه شريف . نعم فهو يخشى تلك الشيطانة الدوقه دى فاليريا

« فالدوقة لها تأثير على المركيز داسيبس وحتى الخديوى يرتجف أمام بأسها ويحني رأسه اجلالا لسلطانها » . . .

أجابة لدعوة جنرال قنصل انجلترا ذهب كينيث يصحبه جروسفنر الى القنصلية فرأى عكس ما كان ينتظره فلم ير تلك المعاملة الباردة التي هدده القنصل بها . وبعد تبادل عبارات المجاملة قال القنصل

« لقد بدد مخاوفى مستر جروسفنر وأصبحت أدرك أن مهمتك السرية لا تتعارض مع مصالح حكومة جلالة الملكة . وسأسرع حالا فى التكلم بشأنك مع زميلى الفرنسى أشيل ليون « وسندعوك معا الى حفلة عامة . وعند مقابلتك الثانية للخديوى سنظهر له مبلغ اهتمامنا الرسمى بأمرك . وستركب فى عربتي بينما يصحبك قواصى . وسنتخذ كل التدابير التى تجعلك آمنا فى رحلتك النيلية . فاذهب الان تحرسك راية الاسد البريطانى

« أما لجنة الخمسة الخاصة فقد صدر بها أمر الخديوى اليوم بينما أعلن شريف بأنك الغرض الحقيقى من تكوين اللجنة وانك ضيف الخديوى الخاص . فليس هناك سر فى مصر »

بينما كان الخديوى وضيفه الشاب منكبين على درس هذه المهمة المالية كان شريف يؤنب ذنبيه سانتا مارينا وسير هارى لينجارد على فشلهما فى الايقاع بكينيث وقال

« ولكن فشلنا يعزى الى ذلك الخبيث مستر جروسفنروديث لورد ريكسهام فهو الذى يتعهد الشاب ويكلؤه بحمايته. فما عليكما الا أن تقصياه عنه بأية طريقة

« أما صاحبه فأن فى ظلال الاهرام مجالا للفتك به. فكثيراً من معتوهى الانكليز يذهبون الى الاهرام كى ينقشوا اسماءهم على الاهرام تحت اسم برنس أوف ويلس »

أما اسماعيل فقد بدأ حديثه مع الشاب بحماس ووضوح

« لقد أصدرت أوامرى باعداد قصر غردون باشا لقدومه. أما السجلات والمستندات التى تطلبها فسيكون من السهل تقديمها اليك فى ظرف أسبوعين. لأن هناك دائما عوائق ومعارضة من رجالنا المسلمين المحافظين الغيورين. ويمكنك تحت ارشاد شريف باشا أن تزور الزقازيق والتل الكبير (أبو كبير) والمنصورة والاسماعيلية وشبين ودمياط والمحلة ودمنهور ومنوف وهناك أيضا القناطر فان أوامرك تقضى عليك بزيارتها وستجد من الوقت ما يمكنك من زيارة المنيا وأسيوط حيث سأجعل تحت أمرك قطارا مخصوصا. وربما رأى شريف أن يرسل معك

مندوبا من وزارة المالية

« أما أنت فما عليك الا أن تبرق لرؤسائك بأن يضعوا نصف مليون جنيه تحت تصرفي بواسطة مصطفى فهمى باشا في لندن . ويمكنني أن أحصل على المبادلة بواسطه الماليين الايطاليين هنا لأن اللجنة لن تبدأ عملها قبل مضى شهر . وأنا في حاجة ماسة الى المال »

فأجاب الشاب بعزيمة وحزم

« كان بودى ذلك . ولكن وصلتنى البارحة تعليمات من رؤسائى بأن كل مخابرة مالية من الآن تكون مع مستر جيمس لورى بلندن بواسطة مندوبك مصطفى فهمى باشا

« وهم على استعداد لتقديم مايلزمك من المال مهما عظم شأنه متى أصبحت السجلات رهن أمرى وتحت يدى . ولا يمكننى ان أبرح القاهرة مالم أحصل على عهد شريف منك بأن تقدم لى ما أطلبه من الاوراق لأن مهمتى مرتبطة بهذا العهد . وكان هذا الأمر موضع معارضة طويلة بين جيمس لورى وسعادة فهمى باشا في لندن . فالمستندات قبل كل شيء »

أخذ الخديوى يذرع الغرفة ذهابا وايابا وعلى ملامحه امارات الغضب والارتباك ثم قال

« تقول بأنك لم يصلك شيء من لندن . فاذن أنت تخدعنى

أنظر فهاهو تقرير بحركاتك منذ وطئت قدماك أرض مصر. لان وكلائي يبعثون بتقاريرهم عنك أربع مرات في اليوم ، وان جيش جواسيسي يفوق جيشي الحربي عددا لان انجلترا وتركيا أضعفتا كلا من الجيش والاسطول ومع ذلك فلي الرقابة العامة على لاسلاك التليفونية والبرقية والبريد

« والآن فقد أتيت الينا خالي الوفاض وليس معك من مال بينما تسألني عن أسرار مصر الدفينة !! ومن يدر فربما كنت لا تتعدى أحد وكلاء البورصة !! »

هنا أجاب كينيث بحدة ظاهرة

« اذا كنت تشك في أمري فما عليك الا أن تبرق الي مصطفى فهمي باشا في لندن برفضك مفاوضتي وتكرم بأن تعطيني كتابة بذلك . أما عن برقياتي الخاصة فأقول لسموك بأن عندي من الوسائل ما تعجز عن الوصول اليها يد رقابتك »

فأجاب الخديوى

« أجل فأن مجيئك في مركبة قنصل بريطانيا يكشف لنا كثيراً من أمرك فمن الخرطوم الى الاستانة ومن عدن الى لندن كلها طريق واحد فانجلترا هي انجلترا . وأظن بأنك تستعمل جفرى كولونل جرانتون »

ثم صفق بيديه لرئيس التشريفات وقال

« الآن فاذهب وسيصلك أمري عند منتصف الليل سواء بالرفض أو القبول »

خرج الشاب من عند الخديوى وهو يقلب وجوه الرأى ويكدح الفكر عله يصل الى أعماق نوايا الخديوى . ولكنه لم يتمثل له من بين تلك التصورات الا أبا الهول رابضافي مكمنه بين رمال الصحراء ينظر الى الشرق صامتاً تكتنفه الاسرار

كانت الساعة العاشرة ورغما مما وصلت اليه حالة كينيث من الكآبة واليأس فقد كان يتبادل عبارات المجاملة مع جروسفنر ولورنزو زخريا وقنصل جنرال بريطانيا والشيفاليه أشيل قنصل جنرال فرنسا وذلك الامريكي المتأنق الظريف الليفتنانت جنرال ستون باشا وبروغش بك ذلك الاثرى وجماعة ممتازة من الاوربيين والبريطانيين .رجع كينيث الى مسكنه ومعه زخريا وجروسفنر وكانوا ينتظرون أمر الخديوى. وماوافت الساعة الثانية عشر حتى ظهر لهما ياور الخديوى الخاص يحمل كتابا مختوما . كان هذا الكتاب يعطي عهدا بما يطلبه كينيث. غيرأن المستندات والسجلات يقوم بحراستها ضابطان مسئولان وترجع كل يوم الى مكتب سمو الخديوى الخاص . ثم هناك تلميحا ظاهرا الى مبلغ النصف مليون جنيه التي يطلبها الخديوى مقدما

تبسم زخريا لذلك وخاطب جروسفنر مازحا

« ليس هذا المبلغ الا بقشيشا على خدمة عظيمة . انى لأرى ذلك اليوم الفاصل بين الماضى القديم والمستقبل القريب. فمصر عانت كثيرا من حكم الهكسوس والاسرائليين والاتوبيين واليونان والفرس والرومان والعرب ثم الترك فالمماليك . هذه كلها عصور متعاقبة أفقرتها وقضت على زهرة حيويتها. والآن فان كرباج الشركس وأولئكم البكوات حديثى النعمة أدمى ظهر الفلاح فئات من أسياد البلاد الحقيقيين يسحبون على وجوههم مغللين فى الاصفاد كالارقاء ويدفعون الى أقاصى السودان فى حرب مهلكة لاتأتى بغنم غير اجهاد البلد وامتصاص دمه. وآلاف يهلكون صاغرين كالطير المهيضة الجناح تحت رمال الصحراء المحرقة فى صحروة قنال السويس بينما نسوتهم التعيسات يبعن لبن الرضاع فى الاقداح كى يوفوا الضرائب تاركين أطفالهن تتضور جوعا. هذه هى مصر ذلك البلد المسكين التى فقدت سطوتها ورجاءها وامتهنت وطنيتها وكرامتها»

ثم نظر زخريا الى صورة للبرنس توفيق بالحائط وقال والحزن يملأ قلبه .

« وبينما الفلاح البائس يخنع ويرضى مكرها بهذه المصائب فى سكون ودعة تراهم ينعمون على البرنس الصغير بالصليب الاعظم لكوكب الهند ويرسلونه على يد سمو البرنس أوف ويلس

«فالمستقبل ينذر بهبوب عاصفة تقضي على ما بقي في البلاد من رمق وذماء وتهلك مافيها من حرث ونسل . فاما أن يقوم شريف يؤيده عرابي ذلك الجندي الشكس بثورة وأما أن ينتهي الامر بخلع اسماعيل وتوفيق

« فيوم الافراح والاحتفالات قدقربت نهايته .فلن يعود هنالك احتفال بفتح قناة السويس الذي كلف مصر الفقيرة عشرات ملايين ولن تقام أفراح بقران أولاد العرش الثلاثة التي كلفا المالية المصرية أيضا خمسة عشر مليونا .ولا يوم الاحتفال بميلاد اسماعيل أو يوم توليته فهذا اليوم الابيض سيعقبه يوم أسود فاحم . انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً

«فضيافة الامبراطورة أوجيني وزيارة البرنس أوف ويلس وقدوم امبراطور النمسا والبرنس أرثور كلفت مصر مائة مليون . حقاً ليس في العالم ذهب يكفي مطامع اسماعيل ويفي بحاجاته »

«ثم سطر تحويلا بمبلغ ثلثمائة وخمسين الف فرنك مختصة بحريم واحد ولا يخص الخديوي شيئا منها وقال متأوها

واسماعيل رغم مايحيط به لايزال يحتفظ بأربعين قصراً وخمسة حريمات . فهو يدحرج حجر سيسفوس (١) محاولا تنظيم

(١) أحد ملوك كرنيث حيث حكم عليه في طرطاوس أن يجر حجرا هائلا الى أعلى التل ثم يتركه يتدحرج الى أسفل وهو موثقا به بالاغلال

أعماله ووضعها على قواعد مكينة ثابتة

«أما بالنسبة لكينيث فان شريف سيحاول أحباط مسعاه والا فيحاول اغتياله. ولكن يجب أن لا يقع ذلك وحق رب يعقوب

« إن اسرائيل ينام هنا مطمئنا . ولنا أموال هنا يجب صيانتها . وما دامت المدافع البريطانية تحميه فلا خوف عليه .»

ثم أخذ يستعرض في ذاكرته ماضي بني اسرائيل وقال متنهداً

« أن ماقاسته مصر في الماضي هو نفس ماتقاسيه الآن . فليس هناك من تبديل أو تخفيف في طوق اجهادها وايلامها وعسفها . فالسوط والسيف والضرائب هي عدد أذلالها وأضعافها من قديم الزمان لحرث واستثمار كل فدان من الارض وزراعة القطن ومرامي انجلترا ؟ وصبرها وبطشها وعدالتها كل ذلك رهن بقوة المدافع الانجليزية وهي التي ستفصل في الامر . ولكن ربما وقعت حرب الامم حينما تكون انجلترا قد كشفت عن نواياها ومطامعها في أن تشق لها طريقا بين أصقاع انجليزية من البحر الابيض الى موزمبيق . وسيأتي يوم يصبح فيه حكم كل وادي النيل وأراضي البحيرات الاستوائية في أيدي الانجليز . . . . »

لقد راى كينيث من البراهين القاطعة ماجعله يدرك عظم مركزه الاجتماعي وذلك عندما أخذ يهنئه كل من بارون رونن وكونت جلوياس وتلك الدائرة النسائية التي كانت تحيط به وذلك

لمناسبة دعوة الخديوى الشخصية له فى حفلة راقصة فى قصر الجزيرة على شاطئ النيل

ولقد اختلى من بين تلك الدائرة النسوية بالدوقة دى فاليريا وأخذ كل منهما يحاول أن يستطلع خفايا أسرار الآخر . وهنا سألها

« هل تعرفين لورد ريكسهام ؟ »

فاجابته بحذق

« انى أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال يامستر كينيث جريفث . ولكن أذكر بانى عرفتك فعلا بانى أبو الهول الحديث أو روح السحر » .

وهنا تقابلت عيناها وتذكرت بانها لاول مرة ذكرته باسمه الحقيقى وتابعت حديثها

« انى أؤكد لك بانى أعرف لورد ديكسهام وحسبك هذا. كما انى أعرف بانك لن تخون مستر جيمس لورى فى أسراره أو دافيد هارت . ولكن اذكر من الآن بأنك لن تحصل على المستندات من الخديوى . فهو سيماطلك حتى يحصل على النصف مليون جنيه وحتى يصل غردون باشا . لقد مضت ثلاثة أعوام حاولت فيها كل من انجلترا وفرنسا الوصول الى هذه المستندات بدون جدوى . فبعضها يخفيها الخديوى والبعض كان فى حوزة

المرحوم صـديق باشا المفتش والبعض وهو الاكثر فى حوزة شريف ولا يعلم سرها الا الله.

« واذكر بان فى اظهار هـذه المستندات هو كشف لتلك المهزلة الملوكية حيث ذهبت ثلثمائة مليون فرنكا فى سبيل الحريمات ولذا ترى بان مجهوداتك وحساباتك الدقيقة لن تغنى شيئا طالما ان اسرار الاسراف والتبذير لاتزال طى الكتمان وطالما يحتفظ الخديوى بكنوزه السرية وكذلك شريف »

«والخديوى يتمسك بشريف ولو انه مكرها يظهر الطمأنينة ويركن الى نوبار تحت ضغط انجلترا. وليس غردون الارداء يحجب طيه يدا اسماعيل المسرفتين . أما شريف فاما أن يسقط نوبار . أو يذهب فى طغيان الحوادث ضحية مع مولاه اسماعيل وعلى أن يسمو ثانية . فاعمل على تنفيذ مأموريتك بكل جد واهتمام وقاوم كل حيل شريف واحذر ان تغرر بك رشوته واجتنب كل نزاع معـه لانك لو خاصـمته فلن تعيش الى الوقت الذى تريد ان تتزوج فيه بكاثلين لورى »

كان كينيث واقفا وقد علت وجهه صفرة الموت وتملـكته قشعريرة رهيبة بجانبها . ثم عادت له طمأنينته عند لفحة النسيم من مروحتها وتابعت حديثها

« اذكر بانك لم تقل لى شيئا . فادأب في عملك ولا تبرح

القاهرة حتى يصل غردون باشا. فنحن اصدقاءك المستترين نحرسك ونسهر على سلامتك

« وسيرسل غردون معك اتباعه من جنده السودانيين متى ذهبت للتفتيش بالوجه القبلي . لانك كلما توغلت نحو اعالي النيل كلما اطمأننت على نفسك كما لو كنت فى انجلترا . أو قل بالصريح انها ارض انجليزية »

فسألها كينيث كما لو كان فى حلم

« وهل سيحتفظ بالسودان ؟ »

فتأوهت الدوقة بصوت منخفض

« آه اني يمكنني قراءة الرجال لا الكواكب . أما الآن فستأتى الى فى برفيلا شوا » يوما ما وحينئذ أخبرك كيف تكون حكيما وكيف تفحص أوراقك الغامضة المعقدة . فقوائم (جداول) المستندات وحدها المختومة بطابع اسماعيل وتسجيله هى التى تكشف لك سر مهمتك وخفاياها »

وهنا صدحت الموسيقى مؤذنة برقصة « الفالس » فاقترب منهما تشارلس جروسفنر بخطوات المحب المدله الذى يتظاهر بعدم الاكتراث بينما كانت تسر اليه تلك المرأة الفاتنة بآخر وصاياها

« أعمل واجبك . وارقب كل حركات اسماعيل وحبائله .

وكن شجاعا ثابتا . ولكن اذا ما أخفق هذا المشروع العظيم فلن يكون هذا ذنبك . واذا كنت مخلصا لعهدك فستغنم كاثلين لورى حتى ولو أدى تصميمك ومثابرتك الى سقوط اسماعيل من أوج عرشه »

فهمس الشاب « أذن يكون ! »

فتمتمت « اذن يتعين عليه أن يظهر لك كل أسراره . فاذا ماخدعك أو امتنع عن العمل معك فسيكون هناك خديوى آخر لمصر »

ثم تأبطات ساعد حبيبها تشارلس جروسفنر وانسلا متأبطين بين الراقصين . فقال الشاب فى نفسه

« أنه خداع ممتع . فظواهرهما تدل على مقدار ميولهما وحبهما لبعضهما . حقاً ان عواطفهما المستترة صادقة كصدق عواطفى نحو كاثلين »

وهنا عاودته ذكرى أيام لوزان بجمالها وهنائها فدمدم

« ان المحبين دائما عمى القلوب طمس البصائر »

ثم أوغل فى صالة الرقص فرأى ستيفانى تعزف على قيثارتها مذهولة ودمعة تتلألأ على وجنتها . فلقد أبصرت تلك النمساوية المسكينة بقلب كسير ذلك الرجل الذى تحبه حب الجنون يطوق خصر محبوبته الدوقة التى يعبدها . ثم انصرف الشاب الى مسكنه

بينما كان جروسفنر يقصد « شبرد هوتل » تثير قلبه تلك العيون البراقة لمرغريت دي فاليريا

ولم تمض أربعة أيام حتى كان قد علم كينيث الدوقة بكل نبوءات كما علم بان أيام الجمعة والسبت والاحد هى أيام العطلة الرسمية للمسلمين واليهود والنصارى . وان أيام الاعياد الهنيئة قد انصرمت ولم يبق الا التوسلات والضراعة للحصول على المال. وهى الشغل الشاغل للخديوى والبلاد

وأما وكلاء التصفية بلندن فقد علموا بما ينتحله الخديوى من الاعذار وتوسلاته المديدة للحصول على النصف مليون جنيه أما كينيث فقد أدرك مبلغ شماتة شريف بمولاه الخديوى وتلك الابتسامة المرة التى أصبحت لا تفارق شفتيه

ولقد زار كينيث « فيلا » شبرا . ومن الغريب أنه علم بأن شارلس جروسفنر كان فى بعض الايام ضيفا جليلا لهذه الفيلا

لكن كانت رنة ضحكة « كونتس رينى » الصغيرة دائما تبهجه وتدخل السرور الى قلبه بينما كانا يتجولان فى جنة والدتها الفيحاء . وكانت الايام تمر سراعا وسرعان ماوصل « دلسبس » وكانت الجرائد تبالغ وتذيع تفصيل اللجنه الماليـة الجديدة بينما اسماعيل لا يزال قابعا كالعنكبوت فى كنف قصره

ولم يكن لكينيث من مرشد فى هذه الزوابع غير « زخريا »

العجوز حتى مآدب Anglo Franco الأنجلو فرانكو الذى كان فيها صديقه جروسفنر يتجاهل الدوقة . ولقدجاءه زخريا الحكيم فى يوم مـا ونصحه

«هاهى آخر برقيـة لك من لندن فاستمر فى عملك حيث صادقوا على وجهـة نظرك

« ولقد ترجمها اليك من اللغة العربية الجفرية

« فانتظر حتى يصـل « غوردون » وحينئذ صمم على طلب المستندات . ويجب أن لاتبرح القاهرةوستصلك تعليمات أخرى عما قريب . ولذلك سترى بأن شركتكم يظاهرهـا غردون وذلسبس أما أن تكون سببا فى تثبيت اسماعيل على عرشه أو سقوطه. فاذاما كذب وخادع ولم يكن مخلصا لعهوده التى قطعها على نفسه بواسطة فهمى باشا فلن يكون الذنب ذنبك فيما يتعرض له من الاخطار ولكن تكون قد أنقذت ملايين رؤسائك من الضياع »

ولقد كانت طبيعة مهمة كينيث السرية تتملك كل حواسه ومشاعره وهو الآن تحت اسم مختلق «مستر ملكولم كرانفورد» وكانت مهمته هى حمل الخديوى على أن يكشف عن حقيقـة أسرار مصر أو يلقى بتلك الامـوال المخبوءة الى ميزان التسوية ولما كانت مهمة «ماكولم كرانفورد » الآن لاتتعدى ابلاغ

رؤسائه المعلومات اليومية عن اعماله فقد كان منتظراً حتى يصل شارلس غوردون مرتدي السترة «الصفراء »

أن أمـر مصر معلق علي حضور هذا البطل الانكليزى . وكل يوم يمر تنكمش فيه خيوط القدر التي نسجت منها (قسمة) مستقبل مصر وحظها . . . . . Kismet of Egypt

مرت هذه الايام الطويلة ولم تقدم بعد المستندات

و بينما كان الصـديقان يخترقان ذلك الطريق المرصوف فى سبيلهما الى الجيزة حيث كان يقود جروسفنر كينيث الى الاهرام كان كل منهما يحتفظ بأسراره الخاصة . أجل فلقد كان تشارلس جروسفنر ينكر علاقته مع « انجيليا الحسناء » او تلك الساعات الهنيئة من ليالى مصر الشتوية المقمرة حيث كان يفكر بحياته السعيدة المقبلة مع الدوقة مرغريت دى فاليرا». ولقد كانت الدوقة هى لرابطة بين الصديقين كما كانت الحائل بينهما ....

وفى ذلك الوقت العصيب كانت الرسائل ترد من لندن فمن ميللى وكاتلين ورسائل لورد ريكسهام التي تنبيء عن تخوفه من نتيجة الفوضى الضاربة اطنابها فى مصر وتلك الروايات الخليعة التي يمثلها شريف تحت سماء مصر لذر الرماد فى العيون . ولـكن على كل حال فقدا صبح حضور غردون لمصر أمراً محققا

ولم تكن هناك أية شارة تشعر بمركز سير لينجارد وزوجه

المزعومة . ولكن « استيفاني » وبيسي ليتوود كانتا من الصدق الاصدقاء فكشفت لينجارد التي كانت قبلا غريدة « صالة الموسيقى » الى تلك الفتاة النمساوية ستيفاني عن مخاوفها من وقوع مأساة مخيفة وهذه أنبأت شارلس جروسفنر بذلك فأجابها

« انتظري قليلا فسنوقع هؤلاء الانذال في شبا كنا . وربما كنت قريبا في حاجة ماسة الى معونتك . فعلى « بيسى » أن ترهب تلك الفتاة « ليشين » وعلينا أن نقتنص أولئك الأوغاد »

فتوسلت الفتاة النمساوية

« أضرع اليك أن ترسلني سريعا الى بلادي . فذلك الوغد « سانتاماريتا » لن يتأخر عن ازهاق روحي اذا علم بصداقتنا لانه يحمل لك في قلبه ضغنا مريرا . فلقد امكنه بغدره وحيلته أن يقضي على اثنى عشر شخصا في هذا المكان »

فاجابها جروسفنر مبتسما

لاتخشى بأسا ياستيفاني . فالدلو الذى يدلى مرة في البئر سيظل رهن الاستعمال لهذا الغرض زمنا طويلا »

نعم فلقد كان جروسفنر يعد نفسه لتلك الساعة التي يتقابل فيها مع « كونت دى سانتا مارينا » بينما اختص زخريا بحراسة كينيث وحمايته . لان زخريا كان يعتبر أن لاخوف على حياة كينيث من الجهات الرسميه المسئولة . ولكن خوفه كان من دسيسة

سافلة يأتيها أناس غير مسئولين وممقوتين غير أنه كان يعتمد في احباط مثل هذه المحاولات على صداقة بعض المصريين الذين يمقتون سانتا مارينا ويستنكرون مساوئه واعماله · ولذا كان جروسفنر في حلف معهم على هذا الكونت والحسناء «ديفامو ريللى» اللذين أصبحا ضيفين على شريف باشا وصنيعتيه · وكان خوف جروسفنر أن تسقط الصاعقة من سماء ايطاليا لا غيرها ولذلك كان على حذر واستعداد من هذه الناحية

وبينما كان كينيث في طريقه الى قصر الجيزه كان يعلق أهمية عظيمة على مقابلته الثالثة للخديوى اسماعيل في مكتبه الخاص بقصر شبرا . ولما مثل بحضرة الخديوى لم يكن عند الاخير أقل ريب في حصوله عاجلا على النصف مليون جنيه · ورغما من لطف الخديوى وظرفه فقد لمح عن فهمي باشا في لندن وقال بغضب وحدة

أن رءوساءك يمتنعون عن تقديم نصف المليون سترلنج مقدما)

فاجاب الشاب

«لا يمكن حصول فخامتكم على أى مبلغ من المال مالم تصلنى المستندات الحقيقية · فان الاوراق التى وصلتنى لم تكن سوى صحف عريض من الصناديق الفارغة. ولقد أبرقت لرؤسائى بذلك

دعني مرة أكتب لهم بأني تسلمت المستندات المرغوبة موقعـا عليها بخاتمك فيصبح تحت أمرك كنز عظيم من المال »

فأجابه الخديوى

« الآن اذهب . وسأرى شريف باكر»

مضى الشاب مع شريف وبعد الظهر فى صالة البليادر كان معهما راتب باشا وفى نهاية اللعب القى شريف بمضربه (عصاة البليارد) وقال مبتسما للشاب

«لقد نظرت لعبة الثلاث كرات (بلى البليارد) . فـلا يمكن اللعب بغير هذه الثلاث معا . وهم غردون ودلسبس وانا نفسى فثق بي يامستر ملكولم فان ذلك ينيلك ثـلاثة اصوات فى مصر : فتدبر الامر . والا فليس هناك من لعب لانى سأهزمك. فصوتان فى اللجنة لايعادلان شيئا »

فسأله الشاب ببساطة «وماذا تريدة منى ؟ »

فمد شريف رقبته وتمطى وقال باسما

«دعنى اطلع على تعليماتك السرية وسأعطيك حفنة (قبضة) من الـلاآلى . فأنت شاب صـغير ولن يعـرف احـد مابيننا . وسأحضر لك كل المستندات وسأعطيك خمسة فى المائة من كل المال الذي سيقدمه رؤساؤك لسمو الخديوي . ولا أريد منك الا شيئا واحدا. وهو الاباحة لى باسم الرجـل لذى سيشرف فى

النهاية على المالية المصرية »

فصمت الشاب قليلاً وأجاب لأول مرة خدع فيها نفسه الشريفة

« متى جاء غردون وأمكنك أن تتفق معه ومع دلسبس. هنالك يمكنى الاصاخة اليك »

فضحك شريف ضحكة عاليه رنت فى أرجاء الصالة وقال

« غردون ! أن ديننا الاسلامى الحنيف يوجب علينا احترام المجنون وذى الغفلة وذى العاهة والاخذ بناصرهم وغردون هذا مجنون. فلقد تسبب فى نقص مرتبه السنوى من عشرة الاف جنيه الى الفين حينما احتال عليه نوبار ليرضى رجالكم « بيكنسفيلد » وبما أنه يرفض الرشوة (البقشيش) فهو لن يسرق اذا سنحت له الفرصة. فهو ليس على شئ من النقائص ولا يحتفظ (بحريم) فهو رجل غبي بليد أو بالاحرى مجنون لطيف كما أنه فقير أيضا »

فصاح كينيث « أنه بطل »

فاجاب شريف حينما صفق بيديه للشمبانيا

« واديب أبله . والآن فاترك كل شئ لى فيمكننا الانتفاع بغردون بواسطة صداقته المتينة للخديوي . أما دلسبس فمن السهل استمالته فادق الاشياء يحركه وهو لن يرفض أمراً يطلبه الخديوى

« لذلك اذا اتفقت معى » وهنا مال قليـلا وهمس فى أذن الشاب « فانا وانت يمكننا أن نحكم مصر ! ويسقط نوبار . وسأصر على استبقائك هنا . فنحن سنصوت لك و نعمل على اجابة مطالبك واسماعيل دائما متى أبصر المال فشأنه شأن الطفل ولعبته الحديثة وان عملنا سيتوقف على حضور اللجنه الماليه

« ولـكى ابرهن لك على صدق قـولى وقوتى فسيخبرك الخديوى عما قريب بان نركن الى شريف ونثق به . فسأحمله على أن يقول ذلك متى أطلعتنى على الاوراق التى أحضرتها معك من لندن » . . . .

وربما كان هذا الاغراء المهين هو الذى عكر على كينيث ليلته . فقد انتظر حتى الفجر ثم قصد مرغريت دى فالـيريا فى مقامها وقال

« انى اضع شرفى وكرامتى بين يديك »

ثم اخذ يقص عليها تغرير شريف به واغرائه له فاجابته «حسنا ما فعلت . أبرق كل ذلك الى لندن وقل لهم بأن شريف يحاول التحالف معك خاصـة نظير تصويته مع غردون ودلسبس اليك وطلبـه من الخديوى الموافقة على مطالبك . ثم انتظر ما يأمرونك به »

ثم قبل يديها وعاد اليها فى اليوم الثانى ليشكرها على نصيحتها فقالت

« اعرف أنك بطل نبيل. فلقد كان الجـواب على برقيتك (نحن نحارب شريف لانه عدونا الوحيد فـلا تركن اليه والزم الصمت واضغط على الخـديوى فاما المستندات أودعه يصرفك ويرفض مفاوضتك

« انتظر حضور غردون ثم حاول آخر محاولة »

لم يكن يثقل كاهل كينيث حينما كانت العربة تخترق طريقها من الجيزة صوب الاهرام غير تلك المهمة المعقدة المظلمة . وبعد أن انتظروا نحو الساعة حيث يحـلم أبو الهول ذوالوجه الحزين ويلقى ببصره على تلك الرمال المنبسـطة شعر كينيث بلطمة على كتفه فالتفت فاذا به الخادم الذى يجلس بجانب السائق وقال

« دعنى أنتقى لك اعرابك فى الاهرام فلقد أرسلنى زخريا لانه يعرفهم جميعا وسأختار لك اثنين ممن يركن اليهم»

وأخيراً وقف أمام بناء خوفو الشامخ واهـرامى خفـرع ومنقرع فقال له صديقه جروسفنر

لن احاول تسلق الاهرام مرة ثانية وسأنظر هنا لحماية المركبة والمحافظة على ساقتنا »

وحينئذ مد الشاب ساقيه فى المركبة واشعل سيجارة بينما أحاط خمسون من البدو بصديقه المسكين . وكانت ترن فى اذنه صرخات البقشيش بينما كان حارسـه المجهول يبحث له عن

اثنين من البدو

ولما بلغ قنة الاهرام ألقى بنظره على ذلك البناء الشامخ فاذا بقاعدته ثمانمائة قدم ويرتفع في الجو اربعمائة وخمسون قدما فاخذ يتأمل في تلك العظمة الرهيبة الصامتة ثم أجال ببصره فاذا بالرمال الليبية تمتد نحو الغرب مغبرة صفراء

ثم رأى من فوق القمة تلك الدلتا التي تشبه المروحة تنشر بساطها نحو الشمال. وكان نهر النيل بجماله ورهبته يفصل بينها وبين مدينة القاهرة بقلعتها الصخرية تشرف على الجبال الصوانية. أما تلك الجزائر النهرية الممتعة. ورياض القاهرة العاطرة ونخيلها وقبابها ومآذنها. وتلك البحيرات الصافية والقرى المتفرقة والجوامع والكنائس. وأبو الهول بعظمته الرهيبة. وتلك الهياكل المكشوفة الممثلة لذلك السر الصامت واللغز الخالد كل هذه المناظر انكشفت له من أعلى الهرم الاكبر

ثم رأى خرائب ممفيس وهيلو بوليس وخط الاهرام يمتد صوب الجنوب. ثم صاريات السفن النيلية واعجاز النخيل المتحركة في الجو فسبح فكره في غياهب الماضي الى أيام يوسف وعصر موسى والى تذكارات آراس وهاريوكرات وهرميس. ثم ألقى بنظرة أخرى فاذا بأساطير اليونان تكاد تكون مدفونة بين كثبان الرمال وهي التي تنبيء عن أولئك الحكماء الاعلام الذين أدركوا

كنه العالم ووقفوا على دقائق حقائقه قبل أن يبعث عيسى عليه السلام

فمن هذا المكان أشرف قيصر وانتونى ثم نابليون على أم الطبيعة الواضحة الجلية وكنهها المبين. والآن كانت الشمس تميل نحو المغرب فهبط كينيث من هذا العلو الشاهق ثم أغمض جفنيه ليحفظ بذكراته هذه الحقائق الرهيبة والذكرى الخالدة التى تركتها فى نفسه هذه الزيارة الفريدة

بعد نصف ساعة كان يقتاده دليله من منحدر السرداب الداخلى المؤدى الى البئر فى جوف الهرم الاكبر

وكان حارسه السرى فى ذلك الحين بجانبه : فارتكن الى تابوت الملك ثم جلس باحترام فوق الخزانه فى حجرة الملكة. وبالنسبة للظلام وحاجته الى التنفس وقف قليلا عند مدخل الردهة الكبرى المؤدية الى البئر . وفجأه نقص على عقبيه مفزوعا. فلقد ارتمى عليه جرم مفزع مخيف ولم يشعر الا وألم دام فى ساعده الايمن . ففلتت من بين شفتيه صرخة اليمة ثم ترنح وسقط على الارض وأعقب ذلك طلقة نارية دوت فى ارجاء الهرم. ولقد اصطبغت يداه بدمائه وكان يشعر بازدياد الالم فى ساعده. كاد يغيب عن وعيه ويفقد صوابه فحمله حارسه المجهول الذى بشجاعته وقوة سلاحه انقذ حياته بينما كان دليلاه العربيان ينتظر انه عند

مدخل السرداب

صاح به حارسه بالطليانية

« لاتنبس ببنت شفة »

ولما بلغا سفح الهرم بعد ان هبطا أربعين درجة . ارسل حفنة من النقود الفضية فى الفضاء الى الاعراب المحتشدين

فاخذ البدو يمسك كل منهما بتلاليب صاحبه ابتغاء النقود بينما ذلك الحارس أمر جروسفنر بأن يطلق للخيل العنان صوب القاهره . وحينئذ تنبه جروسفنر الى ساعه العمل الرهيبة

وفى اليوم التالى علمت كل القاهرة بان درويشا معتوها هاجم سائحا انجليزيا مجهولا فى الهرم ولكن الدرويش سقط صريعا بطلقة نارية من يد ترجمان كان يصحب السائح

وبينما كان يلتئم جرح كينيث جريفث علم جروسفنر بان كونت دى سانتامارينا متغيبا فى الاسكندرية من عدة ايام . فصاح من غيظه

« أظن ان اشاعه سفره مجرد كذب وتضليل . ان ستيفانى وحدها هي التى فى مقدورها ان تتحرى الحقيقه !!!

الفصل التاسع

(خداع ديفا — حتى ولا صحتك — اعتراف ليشين)

كان كينيث جريفث قابعا فى مسكنه مع لورنزو زخريا وولده بينما كان جروسفنر المائج يتردد على ستيفانى تلك الغادة النمساوية الوديعة

ولقد زمجر جروسفنر

« سأطلب من « بروس جرانتون » أن يدعو كل القناصل جنرالات معاً. فاذهب واخبر الدوقه دى فاليريا عن سلامتك . أما أنا فسأتعقب سانتا مارينا

فاجاب زخريا العجوز « ثم نتقابل فى منزلى للتفاوض معاً نصف الليل »

فاجاب جروسفنر « حسناً . ولكن دع « سومرز » يصحب كينيث »

فاجاب لورنزو زخريا

« لا مراء فى ذلك. وذلك الرجل الباسل الذى قتل الدرويش المعتوه لن يكون بعيداً أيضاً فهو رجل ذو شجاعة مكينة . ولقد استخدمته سابقا فى أحضار ما يساوى نصف مليون

دولار من تبر الذهب من الخرطوم . وسيكون الآن ثعلبا وأسدا معا»

فاجاب جروسفنر بعزم

« لقد عزمت على أقصاء هذا الماكر الجبان كونت دي سانتا مارينا فى الحال من مصر وسأجعل (لورد ريكسهام) يبرق بذلك شخصيا للخديوى لانه يعرفه جيدا ولا يجسر الخديوى على مقاومة رغباته »

ولما انصرف جروسفنر الغاضب أخذ الرجال الثلاثة يتبادلون النظرات ولقد رأى كينيث تحت تلك الكفوف (الجوارب) الناعمة الرقيقة التي تلبسها الدوقة أصابع لورد ريكسهام الحديدية

فهمس يعقوب زخريا

« يمكنني أن أتسرف الحقيقة : فليس هناك من أحد غير «عبدالله» يعرف أين كانت وجهة المركبة . فلم يدخل أو يخرج أحد عقب انصرافك. ولكني رأيت عبد الله ينسل من حديقة شريف الى هنا حينما نزلت من السلم . فقد علم عن رحلتك قبل أن تقوم بها بثلاث ساعات . وهذا الدرويش لم يكن جنونه بأكثر من جنون شريف أو سانتا مارينا . فلقد كان شريف (١) نفسه هو

---

(١) ظهر شريف على مسرح السياسة المصرية كوطني صميم يغار.

قلب القاتل وسانتاماريتا اليد المحركة ولم يكن الدرويش الا مأجور الفوضوى الطليانى . فلقد إئتمر بك مع مشايخ البدو عند

على بلاده وكرامتها جد الغيرة . غير أن الرجل كانت له بعض الاطماع الواسعة يخفيها طى ثياب الوطنية المزركشة . والطبيعة ملأى بالعجائب

ولما كان الخديوى اسماعيل خول للجنة التحقيق (الصادر بتشكيلها الامر العالى رقم ٤ ابريل سنة ١٨٧٨) الاستفسار من أى موظف فى الحكومة عن أى أمر ترى تحقيقه وكان شريف وقتئذ ناظر الحقانية وأعظم الوزراء فقد استدعته اللجنة للمثول أمامها للاجابة عن بعض الاستعلامات . ولكن شريف أبى المثول أمامها وطلب الاجابة كتابة على أسئلة اللجنة . ولكن اللجنة أصرت على استحضاره فاستعفى محافظة على كرامته

ولما أقيل نوبار وخلفه توفيق فى رئاسة النظار سنة ١٨٧٩ كان فى النظارة ناظران أوربيان لهما من الحقوق ما للباقى النظار الوطنيين . فاخذ الخديوى يحتال على اسقاط هذه الوزارة وتنصيب وزارة مصرية محضة تكون مؤاخذة أمام مجلس الاعيان . وفعلا عزل الخديوى النظارة وشكلها برئاسة شريف وكان كل أعضائها من المصريين . وبقى شريف فى هذه الوزارة حتى عزل اسماعيل فى ٢٦ يونيو سنة ٧٩

ولما تولى الخديوى توفيق في ٨ اغسطس سنة ٧٩ أراد اشراك وزارته فى الحكم نمهد الى شريف بتشكيل وزارة لهذا الغرض فقدم شريف مشروعا يقضى بجعل الحكومة نيابية محضة فلم يوافق الخديوى على مشروعه لعقيدته بان البلاد ليس فى مستطاعها أن تهب دفعة واحدة من حكومة استبدادية مطلقة الي حكومه نيابية محضة فاضطر شريف

الاهرام رغما من أنه لم تحصل من مائة سنة أى مهاجمة دنيئة فى الاهرام لان كل ما يحتكرونه هنالك هو صياحهم المتواصل طلبا للبقشيش نظير مساعدة متسلقى الاهرام»

الى الاستقالة فى ١٨ اغسطس سنة ٧٩ وشكلت فى ٢٢ سبتمبر وزارة برياسه رياض باشا

ولما انتقض الجيش تحت قيادة عرابى باشا ثم هدأ ثورانه وانقضت مظاهرة عابدين بعد سقوط نظارة نوبار طلب الخديوى من شريف أن يشكل وزارة جديدة فتردد أولا حتى لا يكون ألعوبة فى يد الحزب العسكرى . ولكن بالحاح الاعيان ورجال الجيش قبل تشكيل الوزارة على شرط امتثال الحزب العسكرى للاوامر وذلك فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١

ولما كان مجلس الشورى يتمسك برأيه فى الميزانيه ورأى معارضة من شريف فقد طلب من الخديوى اقالة شريف فاستقال وشكلت وزارة جديدة برئاسة محمود باشا سامى البارودى فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ كان فيها عرابى باشا وزيرا للحربيه

على أن اذعان الخديوى لرغبة الحزب العسكري لم تكن الا حلا وقتيا يراد به تهدئة الخواطر الهائجة متحينا الفرصة لاختيار من هو اهل لقمع الثورة بالقوة

وفى ٢٦ مايو سنة ٨٢ قدم معتمدا انجلترا وفرنسا مذكرة الى رئيس مجلس النظار طالبا فيها الاستقاله وابعاد عرابي باشا مؤقتا فاستقالت الوزارة وشكلت وزارة اخري برياسة شريف . وفى عهد وزارته هذه صدر قانون ١٤ يونيو سنة ١٨٨٣ بترتيب المحاكم الاهلية وفى ١٢ سبتمبر سنة ٨٣ القانون الصادر بترتيب مجلس الشورى وفى ٢٨ اكتوبر سنة ٨٣

فأجاب لورنزو زخريا مجداً

« أن سانتا مارينا مختبيء في مصر . فهو ان أفلت من شباكنا مرتين فلن يظفر في الثالثة واذا ما وصل غردون باشا فسنخصص عبدالله لاعمال أخرى.ويكون عليه أن يدير أعمالك الصغيرة الشخصية في القاهرة ونحن سنتولى مراقبته »

فتمتم كينيت

« احذر بأن صاحبنا جروسفنر سيتعقب ضالتنا . وهذه آخر حلقة من مهمتي ثم أصبح في مأمن تحت جناح غردون . ولكني أخشى اندفاع جروسفنر وتهوره ولذلك سأتسلح من قمة رأسي الى أخمص قدمي وسأجتهد في فض مهمتي متى وصل غردون فاما المستندات أو الاستعفاء . فلست في حاجة لمسايرة القتلة

القانون المدني الاهلي

وكانت قد شكلت لجنة تحقيق لمحاكمة عرابي ومن معه بعدانهزامه في ثورته وحكم عليهم بالنفي المؤبد الى جزيرة سيلان . ثم اقترح شريف الغاء المراقبة الثنائية فأيدته انجلترا في ذلك

ولما استفحل أمر المهدي في السودان اشارت انجلترا علي الحكومة المصرية باخلاء السودان من خط الاستواء الى وادي حلفا مؤقتا فلم يوافق على ذلك شريف رئيس الوزارة واستقال وتولى بعده نوبار الذي وافق على سلخ السودان.

المعرب

الاوغاد والاندفاع فى مخاصمتهم »

قبل أن يعود جروسفنر من عند الفتاة الموسيقية كانت مرجريت دى فاليريا تصغي مبتسمة الى كينيث جريفيث وسألته بتلهف « أنت لم تجرح »

فاجابها « خدش فى الجلد فقط . ولكن لو كان الدرويش المعتوه أعاد طعنته لكان أصبح ضيف اسماعيل دفينا فى قبر خوفو الملوكى »

فصاحت الدوقه وهى تذرع الغرفة :

« سأزور شخصيا غدا اسماعيل فهو يدين لى بعهود اعترف بها راكعا متوسلا أمام الامبراطورة أوجيني وطالما أن علم الهلال يخفق فى الهواء فستكون حياتك مصونه لا تمس بسوء . وهو سيقسم لى بذلك . وسيعلم شريف والكمد يملأ نفسه بانه فى الامكان أن يكون هنالك رفيقا ثانيا لاسماعيل باشا صديق المفتش فى لحده وانى أعرف اليد الجميلة التي فى مقدورها أن تعمل ذلك

« الان فاتركني لكى تعيش آمنا . من أجل ريكسهام ! من أجل جروسفنر ! من أجل انجلترا ! من أجل مصر ! !

« فذلك المفلس التعس اسماعيل يخادع ويكذب وهو على شفا خرابه ولكن الخوف وحده هو المتسلط على شريف فتاصل فى قلبه التعس المنافق والان فاذهب أيها البطل الصامت . فروح

السحر تحرسك وتسهر على سلامتك » . . .

راقبت الدوقه انصرافه بانعطاف ثم سطرت رسالة صغيرة ونادت رئيس خدمها وأمرته

« الى قصر عابدين مع هذا الخاتم وسلم هذه الرسالة للخديوى واحذر أن تسلمها ليد أخرى غيره فى مصر . . ورئيس التشريفات سيقودك الى حضرته حتى ولو كان فى الحرملك ثم ارجع مسرعا محافظة على حياتك » . . .

كان هناك مؤتمر سرى من القناصل جنرالات الغاضبين ينتظر عودة السيد شارلس جروسفنر بينما كان زخريا و كينيث ينتظران فى مسكن ذلك البنكير العجوز

ولم يسكت جروسفنر النبيل عن التشهير والوعيد الا بعد ماتعهد له « بروس جرانتون » بانه تؤيده جماعة من السياسيين سيتباحث مع الخديوى بهمة فى هذا اللموضوع

وفى اليوم التالى كان ذلك الحاكم الشكس يرتجف غضبا أما كلمات الدوقه دى فاليريا النارية ولقد أعقبها بروس جرانتون متوعدا فقال

« ياصاحب السمو . اذا تكلمت فاعلما أتكلم عن نفسى وعن كل اخوانى القناصل .وانى لاأعرف ولا أريد أن أعرف أية مهمة يتفاوض معك فيها هذا الشاب اذ ربما كان سفير داثنيك النهمين.

لاأريد ان أعرف مأموريته الخاصة. ولكن كل شعرة من رأسه يجب أن تصبح مصونة مقدسة . واني أقسم وأنت أعلم بماهية قسمى بأن هـذه لعبة شريف وأنت تدرك ذلك وان قومندان الاسطول البريطانى لن ينظر الى مدى أبعد من عرشك . فسك اسماعيل بكم (الشيفاليه كاريولى) وقد تولاه الفزع والاضطراب وقال

« أقسم برأس النبي بانى لاأعلم عن هـذه المؤامرة الدنيئة شيئا ! !)

فأجاب كاريولى ببرود

« دعنا من اعتراضاتك ياصاحب السمو . فمصر أصبحت الان مهد القتـلة وأنت تعرف عنها أكثر مما نعلم . فاذا كنت تحافظ على سلامتك الان فحافظ على حياة هذا الشاب محافظتك على لواء محمد (صلى الله عليه وسلم) المقدس »

حقا لقد تكلم صوت المدنية (؟) وأصبح الان يحيط بالشاب أكثر من مائة متجسس يحرسون حياته محافظة على قسم مولاهم اسماعيل

ولكن قبل انصراف « كاريولى » نطق هذه الكلمات التى تركت طنينا يرن في اذنى اسماعيل طول حياته

إن رحيل هـذا الشاب يعنى النكبة والافلاس والسقوط عن العرش والذلة وربما النفى الى البوسفور. فهنا ثلاثة من اصدقائك المخلصين أتوا لينبهوك الى الخطر المحيق بحياتك وبعرشك وبشرفك فهل ستعرض عن نصائحهم وتلطخ قسمك بالدم ؟ »

ومع ماهو عليه اسماعيل من الجـرأة والثبات والجلد فانه وعيد ونصائح كاريولى هزته وادخلت الى قلبه الوجل والفزع

لما عاد جروسفنر الى كينيث وصاحبـه زخريا اليهودى فى نصف الليل كان متبلبل الخاطر مضطرب الاعصاب: ولقد انتظر منه الاثنان طويلا أن يتكلم ولـكنه حافظ على صمته حتى خرج يعقوب زخريا الصغير من الحجرة وهنا بدأ كلامه

« ان عربتى موجـودة وفيها اثنان منزويان فى ركنها . ان المسأله أصبحت خطيرة . وقد ابرقت الى « لورد ريكسهام » وأنت ستعلم الواجب منه كما تستعلم من لندن. وان مهمتى الوحيدة الآن أن أحافظ على حياتك . فان الوقت الخطـر العصيب هو هذه الايام القليلة التى تنقضى قبل وصول غردون باشا

« أما عن سانتا مارينا فهو بلا شك موجود فى القاهـرة . وهو فى مخبأ على مقربة من «سفنكس هوتل» هناك فى مغاور (مجاهل) الموسكى . ان الخوف وحده هو الذى يقيد لسان تلك الفتاة التى يمكنها الاباحة بالحقيقة . ولقد كلفت أحد اصـدقائى

باستغواء تلك الفتاة الشريرة «ليشين» بائعة الزهور . فهي تعرف أكثر مما يجب أن تعرفه فتاة مثلها عن هذه المؤامرة الخطيرة ولن يحل عقدة لسانها الا تلك اليد اللطيفة التي تنفحها بالذهب الوهاج

« وان أقل تهديد يدفعها الى الانزواء آمنة في حرملك شريف . فلقد تمرنت على العمل هناك حتى أتت عليها أيام كانت فيها كوكب الجواسيس المتألق حول ميدان الازبكية

« ومن هذا يتضح أن الشدة لا تغني شيئا مع هذه الفتاة الانيقة الغريرة . »

وبينما كان كينيث يحرر رسالة لمحبوبته كاثلين لوري كان جروسفنر وزخريا منزويين في ركن يتحادثان في أمر هام . فقال جروسفنر

«زخريا ! ان حكمتك وبعد نظرك أنقذا كينيث من أسفل موتة . وأنت الوحيد الذي في مقدورك حمايته وحراسته . فلقد علمت كثيراً مما لا يمكنني الافضاء به اليك

« غير اني مقتنع باخلاصك فلو أصابني أي مكروه فعليك أن تجعله في الحال تحت يد غردون وحمايته

« واذا رأيت أن هناك محاولة أخرى لاغتيال الشاب فلا تتوان في أن تبرق الى لندن في الحال واطلب استرجاع كينيث . فيجب أن لا يذبح هنا في مصر ككلب حقير فسأفديه بحياتي .

«أما لورد ريكسهام فواقف على كل شيء »

فدق اليهودى بيديه وقد اعترته قشعريرة الفزع والاضطراب وقال

« انه شجاع وعنيد ومخلص لشرفه . فلن يبرح هنا حتى يمسك الخديوى بعهده أو يقطعه . فاسماعيل يجب عليه أن يقابل المسألة وجها لوجه ومفصحا عما يضمره

« فالتمويه والمواربة السياسية وحيل شريف وخداعه لن تغنى من الحقيقة شيئا

« وربما كان الشاب ثمنا باهظا لجرأته وعناده ولكنى سأعمل مافى وسعى » . . . .

سأل جروسفنر الشاب بينما كانا يتسامران فى ضوء الكواكب الشاحبة

« هل رأيت الدوقة باكينيث ؟ » فاجابه « نعم وقد أمرتنى أن أعودها باكر الساعة الحادية عشر »

فتمتم جروسفنر « حسنا ! ان القناصل جنرالات عملوا عملا عظيما حاسما وسأعود الدوقة باكر بعد الظهر . أما انت فقد اصبحت حديث القوم الى مابعد الشلالات . وسأجتهد فى تنظيم حفلة الرقص الخديوية . فيجب عليك ان لاتترك حضرة «كوريولى» لحظة واحدة واحذر كل غريب ولا تتنزه وحدك ولو بضع دقائق

فى القاهرة ، وأنى أعلم بان زخريا أبرق الى لندن، أما أنا فقد أعلمت لورد ريكسهام بكل الامر. ولكن هلا أعلمت لورى بشروعك فى الهجوم ؟ »

فاجاب الشاب «كلا ياشارلس ، فلا يمكننى ان أفضى لأحد بمخاوفى الشخصية وأنت تعرف ما أكافح من أجله ، فليس لى ان اترك لورى حينما تدق الساعة الدقيقة الرهيبة التى تتطلب الحزم ومضاء العزيمة والجلد وانكار الذات ؟

« يجب علينا ان نتجلد ونمضى فى مهمتنا مستبسلين وان كان شر الاعداء عدواً تجهله يكيد لك فى الخفاء ، ومع ذلك فلن ابرح القاهـرة

« فمن الخسة ان اسلم بالنكوص والجبن ، وان يتملكنى اليأس فأطرد كما يطرد الجرو الاجرب من خبائه (بيته) ، فلأظهـرن فى الميدان معلنا عن نفسى للمصريين دون خوف أو وجل »

فاجاب جروسفنر

« هذه فكرة حسنة بان لاتظهر جبنك ومخاوفك ، ولكن كل ماأطلبه منك ان تتركنى اصحبك فى غدوك ورواحك، فيجب ان يكون الى جانبك صديق يحرسك ويواسيك في هذا المجتمع المضطرب فهل تعاهـدنى على ذلك ؟»

فاجاب كينيث « أعاهدك ايها الشاب العجوز اذا كان هذ

يرضيك وستكون من الان دليلي وترجماني ، ولكن لى رجاء واحد وهو ان تتركنى اندفع وراء ماأراه صالحا ويروق لى ، ولا يهمنى من هو غريمى في هذا النضال »

لقد كانت مرجريت دي فاليريا تنتظر ضيفها على أحر من الجمر في جنتها الفيحاء . وكان تابعها منتظرا عند باب فيللا كليبر . ولما وصلا الى مظلة عليلة النسيم وجهت اليه سؤالا مباشرا

« هل عندك أخبار من لندن تنبئني عنها؟ أنت لا تريد الكلام أنبئني بعينيك فحسب ! لقد كرست حياتي لحراستك وكل غرضى أن أفسد تلك المؤامره الدنيئة

« فلقد سمعت عن بعض الأسرار

« وان لنا في شرف لورد ريكسهام أكبر ضمان فعليك أن لا تستسلم للتردد وتمسك بطلبك حتى يصل غردون ، فهو ودلسبس وشريف سيعطونك ثلاثة أصوات ، وستؤمر عما قريب بأن تفصح عن كل شيء لغردون

« فاذا ماحاولت آخر محاولة في طلب المستندات ولم يحفظ الخديوى عهده ويجيبك لطلبك فما عليك الا أن تعطى القائمة الى غردون وهو سيطلبها بنفسه من شريف علنا وسط اللجنة وفى حضورك . فاذا لم يقدمها بنصها وحذافيرها فسيطلبها غردون بصفة خاصة من اسماعيل باشا . فغردون هو الوحيد الذى في

طاعته أن يفسد على شريف أعماله الملائى بالنفاق والتذبذب. فاذا مارفض الخديوي فتكون مهمتك قد انتهت . وعليك أن تعود الى اندن فى الحال وتكون قد قربت وقوع الازمة المرغوبة

فاجاب كينيث بتمهل وقد بان له نور الحقيقة

« آن غردون اذا كذب عليه اسماعيل فانما ليرسل الزبير باشا تاجر الرقيق ثانيا كحاكم على السودان . وشريف وشريكه الدنىء الزبير سيعيدان تجارة الرقيق الخسيسة لحقول القطن. والفتيات الارقاء للعمل فى الحرملك أما التاج المشترى بدم البشر فيصبح مغنمهم

« وسيحل الفزع ويسود الارهاب ثانية فى تلك الاصقاع حتى الشلالات الاولى وتضيع على مصر كل المناطق الاستوائية المصرية . وقبل أن تصل لندن — اذا خلع شريف نوبار — فذلك معناه أما الهروب أو التنازل عن العرش أو القوامـة (الولاية . الوصاية)

«وبمعنى آخر سيكون اسماعيل جلاد نفسه العاتى. ولكن هل سيوافقون على خطتى فى لندن ؟ »

كان الشاب يفكر فى معبودته كاثاين ابنة لورى . والظاهر أن الدوقة تعرف كل شيء فتبددت كل شكوكه من نحوها حينما قالت له

« فاذا ماقدمت اخر طلب لاسماعيل بالنسبة للمستندات فقل له بجلاء بأن أول واجب لك أمام اللجنة هو أن تقـدم الى غردون قائمة الاوراق . وانك ستبرح مصر فى نفس اللحظة التى يخبرك فيها شارلس جورج غردون بأن الخديوى خان عهده »

فسألها الشاب المبتهج والدوقه تبتسم

« أيتها الصديقة النصوحه . هل لى أن أسمع هذا كأوامر لى صادرة من لندن ؟

فأجابته « هذه انباء جاءتنى من لورد ريكسهام . وان الضغط على اسماعيل بلغ أشده

« فهناك قوة عظيمة بعضها حكومية تظاهر بنيامين وولده وجيمس لورى ودافيدهارت ـ فالخديوى أما أن يذعن أو لا يذعن فالاوراق المطلوبة موجودة ويجب أن تخرج من مدفنها . وذلك الذى يخون عهده عليه وحده مغبة عمله وغرضنا الان أن نعرف هل فى تقديمنا ثلثمائة مليون طلب خلف لورى ستكون قبل أو بعد سقوط اسماعيل

«والان فكن على قدم الاستعداد وهيا بنا الى دنيا النعيم والملاذ فسنذهب جميعا الى حفـلة رقص الجزيرة فان مظاهـر الاجتماع تحدونا كما تحدو المصريين الى التمتع بمناظر السرور والطرب . ولقد رأيت الخديوى هذا الصباح وانى أعرف شارلس غردون أيضـا

وسأقابله قبل أن تقابله أنت . ولقد عزمت على أن أركب يختي الجديد (استارتا) واتبعه الى حلوان »

ففكر كينيث

« ثانيا ريكسهام ؟ : لماذا لم يكلوا أمر المفاوضة اليك ؟ »

فاجابت بشمم « لانى لست خبيرة بالعمليات الحسابية . فلست الا امرأة

« ولو استطاع غردون أن يحصل على الاوراق فهناك تكون الحاجة ماسة الى تمثيل دورك الحسابى والا فاعليك الاأن تؤوب الى لندن وهناك تطالب جزاءك ويدكاتلين . بعدأن يكون اسماعيل قذف بنفسه عن طيش وجهالة من سامى عرشه »

فسألها كينيث بعطف « وأنت ؟ »

فأجابته متنهدة

« انى لاأعرف ماقدر لى (مكتوبى) فلا تسألني ذلك . فلو كنت ولدت رجلا لسقطت قتيلة فى ميدان الشرف عندسيدان والان فانى أنحذر يقودنى القدر على غيرهدى . ولكنى أحمل معى كل ماتكنه المرأة بين جنبيها من الشغف والغرام

« فلى ابنتي . وما عداها فظلام وسراب . أسير فى بحر خضم لاتدرك شواطئه وليس هناك من نور يهدينى فى سبيلى . أسير فريدة فى هذه الحياة المظلمة واساق على مهل نحو هوة الاخرى الـق

لا قرار لها »

ثم رمت اليه بعض الظهور وفارقته باسمة ضاحكة

« لست الا روح السحر . فاذهب الآن ثم انظر فيما اذا كنت حقيقة سبيل (١) الصادقة ففي هذه الليلة ستصلك الاوامر التي يتوقف عليها نجاح مهمتك »

ولما سار كينيث بعربته أخذ يفكر في شأن هذه المرأة وكلماتها المحزنة وما السبب الذي قضى بأن تعيش هي وجروسفنر بعيدين عن بعضهما . وهل هذا مكتوب عليهما أو أنهما يخدعانه كما هي عادة العشاق . وكان يعرف المكان الذي يسير نحوه جروسفنر بينما كان هو ينطلق نحو (شبردهوتل) لان النبيل الصغير كان متأنقا اليوم في ملبسه على غير عادته وانحدر صوب « فللا كليبر » وقبل أن يفترقا قال جروسفنر

«انظر يا كين فإن ستيفاني فتاة مخلصة طيبة القلب . وسأستخلص هذا المساء الحقيقة كلها من فم ليشين بائعة الزهور تحت شروط خاصة . والآن فان كلينا مدعو هذا المساء في حفلة العشاء في مسكن « ديفامور يللي » ، وكنت أود أن لا نذهب اليها ولكنني أرغب في مراقبة سانتامارنيا ، فعندي من الاسباب مايدفعني الى ذلك ، وكل الرؤساء الرسميين سيكونون حاضرين هناك

---

(١) في القصص البائدة هي المرأة على مقدار عظيم من الالهام والتنبؤ

« فلا يمكن لاحدنا أن يذهب فريدا كما أنه لا يمكننا أن نلعب لعبة الجبان ، ولكنى احذرك بان لا تمس جرعة من النبيذ هناك ، لانه ربما حرضوا أشخاصا على الاشتباك معك فى مخاصمة دامية. فرسميا حياتك مصونة مقدسة لان الخديوى أقسم على ذلك بزوج عائشه (سيدنا محمد) وعظام محمد على ، فلا تبرح فندقك حتى أعود اليك)

أتى اليوم الذى ظرت فيه أعمال الضباط المصريين الصبيانية عند استخراجهم المستندات المطلوبة. فكان يعقوب زكريا ينشر ويطوى ويراجع ويقارن السجلات والمستندات بملل زائد حتى اتي عليه يوم صاح فيه

« لكى نبلغ المستندات الاصلية والحقيقة المرغوبة لا يكفينا عشر سنين . فالرجال لا تمثل الا مهزلة سخيفة »

واقد جرت هناك مظاهرة عدائية بمناسبة الدرويش الذى قتله ترجمان كينيث فى جوف الاهرام والكل يتكلم عن هـذا الضيف الغريب الذى هو ضيف اسماعيـل مما أدى الى اجتماع القناصل الثلاثة وتشاورهم فى الحالة . . . .

أتت الليلة الساهرة الى احيتها « ديفامو ريلـلى » وقد ظهر جروسفنر وكينيث متلألئين فى أحـد لوجات الاوبرا الخديوية ولم تتلألأ صالة الاوبرا بجمهور المـدعوين كما تلألأت ذلك

المساء . فلقد كان يملأها كبار موظفى البلاط الخديوى وكبار الضباط بملابسهم الرسمية ووجهاء القاهرة بلباس السهرة . وكان اسماعيل وكبار انجاله الامراء الثلاثة يضيئون اللوج الملوكى ثم بهجة الجمال الاجنبي ممن يؤمون مصر فى فصل الشتاء

بينما كان يتجلى من خلف الشباك المعدنية ذلك الجمال المصرى التركى الجذاب حيث أميرات السراى وغادات الحرملك فلا ترى منهن الاعبق الطيب وتلألؤ الجواهر وبهجة الزهور ووميض العيون الدعجاء وتنهدات الصدور وانفطارها عند مشاهدة تلك الالآم الكاذبة لمصرع «فيلوت» بينما تجرى المؤامرات الغرامية وتتمخض الصدور عن عواطف غاوية مغررة عند سماع موسيقى (فردى)

ولما انتهى الفصل الاول من الرواية أخذ القوم يتناثرون متمهلين سابحين فى أحلام هنيئة ويتبادلون آيات الغرام

ولقد لاحظ جروسفنر بعينيه البراقتين جمال كونت دى سانتا مارينا فى لباس السهرة حيث كان محط اعجاب الجميع . فهمس جروسفنر فى أذن صاحبه كينيث

« سأتغيب مدة الفصل الثانى وأزور ستيفانى فى القهوة . فالكونت النبيل يظن نفسه آمنا وها هو جالس هنالك ولست مخطئا اذ قلت أن معه بيسى ليتوود » و «سير هوراس اينجارد»

. . . . . كانت كل الانظار متجهة الى لوج الشاب الانكليزى حينما زاره شريف باشا وصهره الجنرال راتب باشا قائد القطعان المنهزمة فى سهول الجورا الحبشية . (يعنى الجيش المصرى)

فكنت لا ترى الا نفوسا توافة وعيونا براقة تكتسح لوج الشاب بمناظيرها . لانه أصبح من المعلوم لكل القاهرة بأن اللجنة الكبيرة ستنعقد فى سراى غردون الصغيرة الفخمة ما بين شبرا والنيل . وكان المفهوم أن هذا الشاب هو نجل البارون روتشيلد متخفيا او أمير من أمراء المال أتى لينثر ماعنده من خزائن الذهب فى صحراء مصر المالية المجدبة

أما فى لوج « بيسى ليتوود » فقد كان كونت دى سانتا ماريا وسير هوراس لينجارد يتبادلان بصراحة عبارات الثقة والاطمئنان . فزمجر الكونت

« انه لن يفلت من يدنا هذه المرة . فاذا ما اخفقت موريللى فيجب ان ننهى مهمتنا فى حفلة الجزيرة الراقصة فغردون سيصل هنا فى الاسبوع القادم . وهذا الشاب يجب ان لا يكون على قيد الحياة متى جاء . وليس لمخلوق ان يعصمه من يدنا حتى ولا اسماعيل . فعليك ان تقابلنى هناك »

امتقع وجه بيسى لهول المؤامرة وقررت فى نفسها أن تزور ستيفان فى تلك الليلة ولكنها تساءلت كيف يمكنها ذلك ؟ .

ولكن كانت عين العناية ترعاها . لانه حينما نزلت الستار قال لها سيرهوراس لينجارد بغير تحفظ

« انى سأرسلك فى العربة. أما أنا وكونت دى سانتاماريتا فسنذهب فى حفلة موريللى ولن نعود الى « سفنكس » هذه الليلة

ولما انتهت الحفلة وانصرف الجميع ذهب الرجلان الى الحديقة ينتظران ديفا موريللى معبودة القاهرة . . وعند رأس الموسكى تركت « بيسى ليتوود » عربتها برهة . وبعد خمس دقائق كانت « ستيفانى » تنادى غلاما الى جانبها وقالت « اذهب لصاحبى الانكليزى الطويل فى شبرد هوتل أو عند صديقه فى الازبكية واعطه هذا . وقل له بأنه يجب عليه أن يأتى الينا الليلة » .

أما جروسفنر فقد عاد مفزوعا متبلبل الخاطر والتقى بصديقه محط حديث المجتمع القاهرى وقال « أسرع يا صاح لنقابل مرشدنا « زكريا » فى الحال فى غرفتك » ثم يستحث السائق بين تلك الجموع المنصرفة الى منازلها . ولقد كانت هناك اثنى عشر مركبة مشغولة بنقل غادات الحرملك وفتيات السراى. فلا ترى الا ذوات القناع الناصع (اليشمك) والمحظيات والوصيفات والندماء والاغوات والخدم وكل هؤلاء يكونون ذلك المنظر الذى تتكون منه حفلة القاهرة الساهرة .

ولم يكد يصل الصديقان الى مسكن كينيث حتى سحب لورنز زخريا كينيث الى غرفة نومه «وقال له » اقرأ هذا فى الحال هـذه « أوامر سريعة من لندن وكل منا وصاته تعليمات خاصة للضغط على الخديوى لابواز جميع المستندات المرغوبة . فلقـد حل الفزع بأصحاب البنوك أما أبواب الحريمات حيث تسكن تلك الغادات الناعمة آكلات لحوم البشر فلا تزال مفتوحة لكل غاد ورائح ومهن الراقصات والغوازى . والبلاط أصبـح يشبه من كل الوجوه تلك الاذكار التى تقام فى طنطا بمناسبة مولد « السيد البدوى»

« وأما الجيش فلم تدفع له مرتباته ورجال البـلاط يتذمرون أما ربان الزوارق البخارية واليخوت فاصبـحوا وليس لديهم ما يلزمهم من الفحم والوقود . كذلك التجار وبائعو الجواهر وبائعو المؤونة فقد عصوا أوامر السراى والحريمات وامتنعوا عن تقديم ما يلزمها

فتى يصل غردون !! فواحسرتا اذا لم يمكنا أن تصـل الى غرضنا فى وسط هذه الفتنة فان اتعاب ثلاثين عاما تذهب أدراج الرياح

فنظر اليه كينيث بدهشة « أنت لاتنتظر الدفع الآن ؟ »
فأجابه باضطراب « كلا . كلا . وأنا لننتظـر نجاحك حتى

فأمن على أموالنا ! »

هنا هجم جروسفنر على الغرفة وكان يحمل وريقة فى يده المرتجفة وسأل مضطربا دون أن يلقى جوابا « أين عبد الله ؟ »

ولما لم يلق جوابا صاح «تقدم يازخريا !! احضر ابنك الى هنا ! وأنت ياكينيث لاتبرح هذه الحجرة حتى أرجع اليك »

تبع السمسار العجوز ذلك الانجليزى المتهيج بعدما وضع سومز لحراسة باب الطابق الرئيسى. لان المعجبين« بمدام لاديفا موريللى» على اختلاف القابهم ونحلهم كانوا ايتراكضون نحو مسكنها الفخم عبر الدهليز (الردهة) وكنت لاتسمع الا ضوضاء الخدم يعدون معدات الحفلة فى جناح من الفندق يتصل بسكن (موريللى)

هنا صاح الانجليزى وريث لورد ريكسهام باليهودى

«هل لى أن أكل الامر لحكمة ابنك يازخريا ؟ »

فاجاب السمسار بسكينة «ان سعة علمه ومبلغ حكمته يفوقان سنه ياسيدى. ولقد أوتمن على الملايين ومع صغر سنه فقد كان فى خباء (خيمة) «راس مانجالا» تحيط به عشرة آلاف مقاتل من الاحباش ، فثق به وانى أقسم لك بحياتى على ذلك»

هنا صاح شارلس بالشاب « خذ غدارتى (بيستول) ففى اللحظة التى يعود فيها عبد الله فاخرج معه فى الحال واحضر عربتى . وهاهى رسالة الى الدوقة دى فاليريا أريد أن تجيبنى عليها

وهى ربما اخرتكما ثلاث ساعات أو أربع عندها فى فيلا كليبر»

«فيجب عليك الانتظار هناك ومعك عبد الله كتابعك ولا تدعه يفارقك لحظة واحدة واذا ماحاول ذلك فقل له بأنك ستجعل من رأسه هدفا لرصاصاتك. وستجد من بريطانيا نصيرا لك وحاميا اذا ماأوديت بحياته. فيجب أن تبقيه هناك حتى اذا ماأعطتك الدوقة رد الرسالة فعد فى الحال وهو معك»

هنا طأطأ الشاب رأسه علامة القبول لما رآه من موافقة والده وأخفى الغداوة فى ثيابه وقال «سأقوم بما أمرتنى به»

فصاح جروسفنر «حسنا! الآن فاذهب به فى اللحظة التى يصل فيها» ثم قال لزخريا العجوز

«أما أنت فنادى الرجال الاربعة المؤتمنين الذين أحضرتهم مع كينيث. وأنت تعلم بأن اثنين منهما أدخلتهما فى الفندق سرا كخادمين لمسكن كينيث»

فأجاب السمسار المنزعج «نعم. نعم. ولكن ماذا يجب عمله معهم أخبرنى أولا !؟»

فأجاب جروسفنر «يجب أن نجعلهم ضمن خدم «موريللى» هذا المساء وعلى أحدهما أن لايفارق مقعدى والآخر يحرس كينيث فحياتنا نحن الاثنين تتوقف عليك الآن فهل فى مقدورك ذلك؟»

فاجاب السمسار «امهلنى خمس دقائق فان رئيس خدم الفندق

كان جاسوسى الأجور مـدة عشر سنوات وهوسيتدبر الامر»
ثم فارقه مسرعا

أما جروسفنر فقد عاد لصاحبه كينيث جريفت فى غرفته وفاجأه « ان ستيفانى ابنة مخلصة طيبة القلب فما أتعسها . فاذكر وعدك ولا تشرب الخمر هـذا المساء فحياتك تتـوقف على ذلك، وقبل أن نذهب الى هناك سأسر اليك بما فيه ضمان حياتك» ثم ترك كينيث يقرأرسالة من معبودته كاثلين تتوسل اليه بان يحدد اليوم الذى سيعود فيه الى انجلترا . واقد عن للشاب أن ينفض عن ظهره هذه المهمة الشاقة ولكن كبرياءه وشممه حالا دون ذلك

أما جروسفنر فقـد عبر الطابق وأرسـل يعقوب زخريا وعبد الله بالرسالة الى الدوقة . ولما مر به اليهودى الشاب همس «لقد تركت رسالة لك مع والدى » ثم أشار له الى غـدارته طى ثيابه وقاد عبد الله الى السلم

وما كادا ينصرفا حتى اندفع لورنزو زخريا الى الغرفة التى تركاها وقال والفزع يملأ نفسه

«أريد أن أنبئك بأن عبد الله انسل الآن من غرفة موريللى

«وطبعا فان يعقوب لم يرض أن يزعجه ولكنا جعلناه فى غرفة موريللى تحت مراقبتنا هو وذلك الترجمان الجـاسوس الذى هو صنيعة شريف . أما رجلانا فهما حاضران لتنفيذ أوامر رئيس

الخدم ـ التي هي أوامرنا ـ متى حان وقت العشاء »

فسأل جروسفنر بجد واهتمام

«هل لك أن تنقذ حياتي وحياة كينيث من أجل لورد ريكسهام ؟ »

فاجاب السمسار مرتعدا «أفديكما بحياتي : ولكن أرشدني عن السبيل الى ذلك»

فمال جروسفنر الى اليهودي وأسر اليه بضع كلمات جعلت ذلك الوكيل السري لاصحاب ملايين الذهب يرتجف فزعا ثم استطرد قوله

«واذكر بأن تكون حريصا في أوامرك وبأن كلانا سيكون مسلحا . واذا كان لابد من مأساة طائشة يراد تمثيلها. فستسمع بان هنالك أكثر من ثلاثة صرعى

«وسيكون شريف حاضرا بنفسه. ولكن وحق السماء اذا أراد مكرا بنا فسيكون أول هدف لانتقامنا . وانه لن يعيش ليسخر منا بعد نزوحنا الى الدار الآخرة

فاجاب السمسار بحدة

«سأعمل على انقاذكما من أجل انجلترا ومن اجل أبيك ومن أجل حياة ولدي ومستقبله . واني يمكنني أن أعتمد على هذين الرجلين . فهما من العنصر الافريقي الذي ينتمي الينا في العقيدة

بعد خمس دقائق كان الرجلان يحرسان عن بعد جروسفنر وكينيث بينما كان يعبران الردهة الى حفلة مدام لاديفا موريللى وعقب اشارة خفيـة من رئيس الخـدم انضما الى بقية الخدم الموكول اليهم أمر ضيوف تلك المغنية المظفرة

اما موريللى فقد كانت تعد عدة زينتها فى غرفتها . وعبثا حاول سانتا ما رينا أن يختلى بها بضع دقائق قبل العشاء . واخيرا قبلت رجاءه وقالت

« يجب أن تتركنى وحيدة الآن . أضرع اليك يا أرنستو أن تفارقنى قليلا فانى أريد الراحة . فهذه الليلة يجب أن أظهر فيها بمظهر أسمى مما استحق . فهى المحور الذي يدور عليه مستقبل حياتى »

فنظر اليها ذلك الايطالى الماكر والى تلك اللآلىء والنجوم التى أهداها لها الخديوى اسماعيـل وتركها آمنة وانصرف وقال فى نفسه

« حقا ان هذه الليلة هى ليلة الليالى عندها . فبواسطة هذه المرأة يمكنى أن أتسلط على اسماعيل وشريف . فهى كنزى الثمين وسريعا ستصبح مليكتى الماسية . ان هناك حظا سعيداً ينتظرها »

أما موريللى فكانت قد استعدت للسهرة وظهرت فى أبهى

حلة . وبعد أن صرفت وصيفتها أخرجت كيسا ذهبيا صغيراً من صدرها وأفرغت ما به على الطاولة فاذا به أربعون حجراً من الماس وكل حجر يزن خمسة قراريط . فصاحت بصوت يختلج بالفرح والفزع

« ان هذه أجرلى لتمثيل مأساة رهيبة . فشكراً لعبد الله يجب أن لا يعلم بذلك سانتا مارينا . فلو علم لسلبنى اياها

«لقد اقسم الخديوى أن يصون حياة الشاب الانكليزى ويحميه ولذا فان شريف يدبر انتقامه فى الظلام . واسماعيل لا يعرف شيئا عن ذلك وكذلك سانتا مارينا . فهل فى مقدورى ان أقوم بتمثيل هذه المأساة المروعة

« لقد أقسم عبد الله بأن السم الزعاف لن يعمل عمله القاتل الا فى الصباح . وسأبرح الفندق فى نهاية السهرة يحيط بى اثنى عشر فارسا

« أما قصر بولاق فانى أجد فيه مرتعا رحبا ولن ترفض ضيافتى . فلقد اعد لى « على بك الطليانى » كوشكا (كوخا) جميلا لضيافتى »

ولقد ارتجفت المراة حينما لبست قفازها ثم وضعت قطعة من صمغ شفاف لا لون له فى علبتها المذهبة وقالت

« اذا ما أرسلت له بكأسى على أن يشرب به فى صحتى فلن

يرفض ذلك . فهو لا يعلم ما يخبئه له القدر فى الكأس . هذه هى الكأس المصرية القديمة التى طالما شرب منها الكثيرون . فالويل لمن يقبل كأس « عزرائيل » . وليس هنا من يستطيع فضيحتى فقد ينفضح أمره وشريف سيظاهرنى ولن تخطر لاحد أية فكرة عن . . ! »

ولما نادتها وصيفتها همت موريللى وذهبت نحو الحفلة كملكة مظفرة ودخلت بين تهليل القوم وترحيبهم «ايفيفا لاديفا موريللى . ايفيفا ! »

وكان هناك جمع من الباشوات والقواد والبكوات وبعض الانكليز وكل الاجانب من حاشية الخديوى اسماعيل وكثير من الافاقين النبلاء

ولقد خلب رقص الراقصة لب شريف بينما كانت تحيط بها اثنتا عشر مغنية غريدة . وكم كان يحملق فى جمال موريللى متعطشا لمحاسنها

وفى وسط المائدة أبصرت ملكة الحفلة المضطربة بارن جروسفنر ذلك العملاق الظريف يحادث ببشاشة احدى المغنيات وجالسا امامه كينيث ذلك الغريب الذى اصبح حديث القاهريين واللغز الذى يتوقون لحله

ولقد اجلس كينيث الى جانب كبيرة الراقصات . وهكذا

أنال رئيس تشريفات الخديوى اسماعيل «الشيفاليه ارماند دوشاتل السنيورا « سيريتو » غرضها

فتلك الفتاة الفرنسية الحسناء التى تزوجها الشيفاليه دوشاتل وأحضرها معه من فرنسا اختفت عقب وصولها بقليل ولا يعرف أحد مكانها الآن غير الشيفاليه وشريف فهما يعرفان انها تطل الآن من احدى نوافذ قصر شريف بالقرب منهما تندب حظها وتتوق لحريتها التى اشتراها شريف بما أغدقه عليها من اللآلىء الكاذبة وصورها من الامانى الخلابة

اختمرت الخمر فى رؤوس الجميع وكلهم فى هرج ومرج جذلون ثملون. أما شريف فكان يتتبع بعينيه ذاكما الانجليزيين اللذين لم يكونا أقل بشاشة ومرحا من الباقين

تقدم الخادم الذى يحرس سراً جروسفنر وملأ الكأس بيد ثابتة. أما السنيورا « سيريتو » فتناولت كأسها ورجت كينيث بدلال الى الاقتداء بها. فتبسم الشاب وهمس « عفواً ياسيدتى فاني مسلم ! » ثم تبادل الصديقان النظرات عبر المائدة بينما يقف الى جانب كل منهما خادمه المسلح الموكل بحراسته سراً. ولما بلغت الحفلة أوجها صاح الجميع «فى الصحة ! فى الصحة. ايفيفا لاديفا ! »

هنا همت « موريللى » تلك المغنية الفريدة الساحرة عند

اشارة من شريف وصاحت بصوت مختلج مضطرب رغما من تظاهرها بالبشاشة والاطمئنان

« من أقدم له كأسي يجب عليه أن يتقبله بالشكر والاحترام »

وهنا سلمت كأسها الى الخادم بعد ان قبلته. فعلت دمدمة التهييج والانفعال حينما رأى القوم الخادم يتخطى شريف غراتب باشا وحتى كل «دون جوان» من كبار بلاط اسماعيل. ثم قدم الكأس بثبات فاتجهت كل الانظار الى الشاب وقد علت وجهه صفرة الموت وتناول الكأس بينما يرمقه الجميع بعين الغيرة والحسد وقال مجدا بالفرنسية الصرفة مما سحر لباب الجميع

« ان نابليون تعلم أن يكون مسلما في أرض اللوتوس المحبوبة. ولقد أقسمت يمينا بان أكون مخلصا لمحمد فلن أحنث في يميني حتى من أجل صحتك ياسيدة الفريدات» جرت بين القوم غمغمة التأثر والغضب ثم انقلبت الى صيحة الاستحسان (برافو) حينما انحنى كينيث بجلال ووقار وقال

« لذا فاني أرسل بالكأس الى صديقي المخلص ، فهو يجيد لغة الحب أكثر مني ، فلقد تسلطت هذه الفريدة على جميع قلوبنا فاعوزنا المنطق، ولذا أرى في صديقي خير مترجم لشعورنا ، ليعبر عن عبارات الحب السامية الى ملكة الغناء والتغريد ، تلك الفريدة التي نفحها الخديوى اسماعيل باثمن لآلئه الملوكية وتوجها بالنجوم

الماسية »

نخيم على الجميع سكوت رهيب حتى أتى الخادم الى السيد تشارلس جروسفنر وقدم له الكأس فأخذه وغافل القوم وأبدل الكأس

تناول جروسفنر الكأس وانتصب واقفا وانحنى الى تلك المرأة المرتمدة بأدب معنوى والكل يعرف القوة التي تظاهر بها لورد ريكسهام، ولذا لم يجرأ أحد أن يقاطع صوته

رفع الكأس عاليا ليراه الجميع ثم شربه بينما جلست موريللى في مقعدها مغمضة الاجفان، وقد تملكتها قشعريرة الفزع والصرع ولم تستطع أن ترفع عينيها لمقابلة نظرات شريف باشا النارية ولكنها مكثت ترتعد من أجل حياتها، ثم رفع جروسفنر صوته ونادى في الجمع مهللا فاجابوه « برافو » فتابع حديثه

« لن يشرب أحد من هذه الكأس السحرية بعد الان ؛ فهى تذكار خالد مقدس لموريللى الحسناء ملكة الغريدات » ثم طوح بالكأس خلفه فتحطمت على الارض الرخامية وسمع لها دوى رهيب

ولما رفع كينيث بصره كان الخادم القائم بخدمة جروسفنر قد اختفى لأن مهمته كانت قد انتهت

وبعد ذلك بساعة كان يضغط جروسفنر على يد موريللى

عند انصرافه. ولقد شعر بان راحتها المرتجفة كالصقيع ، أما شريف فكان قد انصرف ، والراقصات لا زلن يرقصن اجابة لصوت قيثارة (ستيفانى) الشجى

انتهت الحفلة ولما أصبح كينيث وجروسفنر تحت سقف جدارهما ضم كينيث جروسفنر الى صدره بحنان وصاح (شارلس بالله ماذا فعلت ؟)

فاشار زخريا العجوز الى كأس موضوعة على المائدة بينما كان شارلس جروسفنر يقهقه عاليا ثم قال

«أصدقك ياصاح بانى سلبت المغنية الحسناء التى بجوارى كأسها ، وهذا كل ماأقوله لك الان فلقد أصبحنا آمنين ، والان فاذهب ونم فلقد الجأنا شريف الى الاحتماء بأوهى ركن من حصنه وأصبح فى قبضة يدنا ، أما أنا فسأنام هنا حتى يعود عبد الله »

فقال كينيث ببساطة بينما كان جروسفنر يأمر سومز بان يصحب سيده الى غرفته

(ظننت أن بالنبيذ سم ..)

فأجاب جروسفنر

«لقد خطرت لى هذه الفكرة ولذا فقد أرسلت بالنبيذ الى زخريا هنا ليحلله ، اما الرجلان فسيدفع لكل منهما زخريا خمسين دينارا حيث قاما بعملهما خير قيام »

هنا انصرف لورنزو زخريا يحمل أجلى بينة على مؤامرة موريللي السافلة ، وبعد انصرافه بقليل عاد ابنه يعقوب زخريا ومعه عبد الله برد الرسالة من الدوقه دي فاليريا، فأمر جروسفنر عبد الله ان يأخذه الى فندقه ، ولما صرف هذا الرسول المتجسس وكل سومز الخادم ولورنزو زخريا بأمر حراسة كينيث على ان يعود ويأخذها معه في الصباح الي (شبرد هوتل) كضيف عنده حتى يحضر غردون من السودان ، اما مهمة فحص الاوراق المملة فسيأتي اليها هنا كل يوم محروسا حتى تنتهي هذه المهمة التي لا غاية لها ولا مأرب

ولما وصل الى (شبرد هوتل) جلس بالردهة يدخن سيجارته ثم ارتدى معطفه وانسل بين الجمع المار بالميدان قاصدا مقابلة ستيفاني عند إيابها من حفلة موريللي آملا حمل ليشين بائعة الزهور على الاعتراف بالحقيقة

أما موريللي فكانت هذه الليلة اسوأ لياليها . فقد تولاها السهد والارق وصاحت فازعة (ياالهي ، ماذا يعملون بي . انى لن أجسر على ان أخبر سانتامارينا بالحقيقة فشريف ربما قتلني)

ولقد تملكت كينيث الدهشة والحيرة حينما وصلته رسالة فى الصباح بأن جروسفنر سيتغيب لمدة ثلاثة أيام، وكم كان ألمه عظيما عندما تحقق بانه اصبح فريدا تحت حراسة زخريا ، فلا جروسفنر

ولا الدوقـة دى فاليرا ، ولـكن الحقيقة ان جروسفنر كان يعمل العجائب ، فلقد انتشرت اشاعة بان ستيفانى تلك الموسيقية النابهة تركت رئاسة جوقة صالة الموسيقى واختفت، ولقد صاح ذلك الجريكى السافل صاحب القهوة وتلك البؤرة الدنيئة « لقد ذهبت نعم ذهبت مع ذلك الانكليزى ، وحق السماء لو عاد الى هنا فلأجعلن من مهجته هـدفا لخنجر سانتامارينا » كذلك خيم الحزن فى (سفنكس هوتل) فلقد اختفت ايضا « بيسى ليتوود » ومعها كل مجوهراتها ونقودها وتركت سير هوراس وحيدا يعض بناد الندم

ولقد صاح احدهم « ياللشيطان . فان ليشين بائعـة الزهور اختفت كذلك مع ذاك الانكليزى » فصاح سير هوراس لينجارد بكونت دى سانتامارينـا « ابرق الى الاسكندرية لنتحقق اذا كان جروسفنر ارسل بالمراتين الى خارج القطر ، نعم فلقد سخر منا هذا الماكر وافسد علينا تدابيرنا »

ولكن سانتامارينا كان هادئا وقال « سأقابل شريف فى الحال والا فسنطرد من مصر طرد الـكلاب ، والآن فليس لنا الا مفزع واحد ، فالموت هو الذى يحمينا من هذه النكبة » ولكن كان عبثا كل ذلك . فهل امكن سانتامارينا ان يقابل شريف ؟ كلا لأنه راى الابواب موصدة فى وجهه . لان شريف كان مختليا الان

مع موريللي في قصره

ولم تظهر ديفا المنتصرة تلك الليلة كعادتها في الأوبرا . فقد كانت في ذاك المساء راكعة أمام شريف تتضرع اليه وتتوسل وهو يصيح بها

« انتصبي أيتها الماكرة . فقد أفسدت علينا تدابيرنا بسوء صرفك فالويل لك ! ! لقد سلبت مني جواهري وسأقصيك عن مصر معدمة تجرين أذيال الافلاس والخذلان . فانت التي أفلت ذلك الانكليزي الماكر من يدنا . وكذلك صاحبه فهو الآن في الاسكندرية . فلقد هرب مع ستيفاني الموسيقية »

لقد أثر تهديد شريف ووعيده في هذه المرأة فصاحت مرتعدة

« أرسل لي سانتا مارينا . وأقسم بأن الرجل سيقتل أشنع قتلة . واني سأجعل رأسي رهن قسمي » فدمدم شريف «فليكن الامر كذلك والا فلن تبرحي مصر الى الأبد »

وفي ظلمة الليل كانت موريللي راكعة أمام سانتا مارينا معترفة له بأمرها ناحية نادمة

فأجابها بمكر « أنت غبية سافلة . ولكن اذا ساعدتيني فسنجعل من فشلك هذا فوزا مبينا لنا . فاقسمي بأن تكوني لي واعطيني نصف الماسات . وأقسم بأني سأنحر ذلك المعتوه بكلنا

يدى » ثم انصرف يحمل نصف الجواهر وهو يفكر فى مؤامرة دنيئة دامية

الفصل العاشر

(حفلة الخديوى الراقصة فى سراى الجزيرة ـ دوقة مهانة ـ هذا مما يجعلك رجلا فاضلا ـ تحذير ستيفانى ـ ضربة الكونت الطائشة ـ جروسفنر فى سبيل النجاح ـ هذا مما يصون أرواحنا)

لقد انتظر كينيث جريفث عودة جروسفنر بقلق عظيم . وكانت تمر لياليه متمهلة وقد ضوعف عدد حراسه الخصوصيين فى حجرته. أما زخريا المضطرب فكان مشغولا فى استلام الاوراق والمراسلات وفحصها .

وكان هناك كل يوم استعراض عسكرى فى طريق شبرا بينما كان عبدالله اللئيم ينظر بعينيه الغائرتين الى هدوم الشاب الانكليزى ورزانته ويعجب ان شريف الذى لم يفلس مرة واحدة فى تدابيره يخفق فى محاولة بسيطة هينة وهي القضاء على حياة هذا الشاب . ولكنه عاد فتمتم « بكره نشوف »

ثم أخذ يلاحظ بأنه لم يترك وحيداً برهة واحدة فقال فى

نفسه « . لن يسيئون الظن بى » ثم تنهد « طيب كثير . طيب جداً»

لقد جدت حوادث خطيرة فى بحر الايام الثلاثة الاخيرة. فلقد دعا الخديوى الشاب رسميا الى قصر شبرا وأبان له أوجه اعتراضاته لعدم الوفاء بالوعد . وكان جواب الشاب أنه يسىء الظن بكل وعود الخديوى الجوفاء

واسماعيل رغما من طبيعته السهلة اللدنة فقد كان مضطربا تملكه العناد والتصلب وقال الشاب

« لقد أبرق لى فهمى باشا بأن لورى وهارت رفضا ان يدفعا لى نصف المليون سترلنج. بينما القاهرة فى اضطراب وقلق وكل الدوائر المالية تضغط على . وان مجيئك اعما كان لتحمل لى المال. وشريف أخبرنى بأنه جارى تسليمك الاوراق والمستندات بغاية السرعة »

فنظر كينيث الى اسماعيل بعزم وجد وقال

« ان شريف باشا يعلم حق العلم بأنه لم تصلنى أية ورقة للآن : ولم يوقع بخاتم سموكم على أى مستند بعد مما يجعل للمستندات قيمة رسمية يمكن الاخذ بها. وهذا مما يشعر بأنه إما انه لا يوجد هناك من ينفذ بأمانة عهدك الملوكي أو انك لست مخلصا لهذا العهد »

فاضطرمت عينا الخديوى بنار الغضب واجاب محتدما

« لقد أصدرت أوامرى ؛ ! »

فأجاب الشاب بوقار وحزم

« حينئذ ياصاحب السمو فان شريف باشا هو خديوى مصر الحقيقى . فأوامرك لا تطاع . فلقد قال لى متباهيا بأني لن أحصل على المستندات مالم اتفق معه على أمور معلومة . وسأنتظر الان حتى يأتى غردون وحينئذ سأطلب من سموكم ماتقضي به أوامري بواسطته . فشريف لايقدر على مقاومة غردون وستنصت سموكم لرغائبه أيضا »

فهم اسماعيل وأجاب مرتابا

« انه سيتعهد لى بالمال بشروط أخف وأسهل . فنحن للان لم نكشف عن أسرارنا صراحة لمجرد أوامر من كبار الماليين والمقرضين »

فأجاب الشاب بينما كان يرتجف الخديوى من الغضب

« ياصاحب السمو ! ! لقدضقت ذرعا . واذا كذب شريف فيكون كذبه لغردون مباشرة . واذا اخترتم سموكم تأييد شريف فسأبرح مصر فى الحال

« ولقد أبرقت الى لندن بأن مأموريتى فى الظاهر ليست الاشجار دام بينى وبين شريف ولذلك فسأنسحب من مصر .

واذا كان في مقـدور شريف ان يأتي لك بالمـال بسهولة . فلماذا لاتتركه يتفاوض رأسا مع رؤسائي !

« وها فهمي باشا يعرفهم جميعهم . والظاهر انك أصبحت واست في حاجة لي »

هنا ساد سكون طويل . فقد غلب الخـديوى على أمره وأسقط في يده في النهاية ثم تمتم حزينا

« انني اذا فعلت ذلك فستحيق بي الطامـة من حكومتي فرنسا وانجلترا ! وربما كانا في حاجـة لعرشي ـ كما اني لا يمكنني النكوص على عقبي اذا ما أعطيت عهداً لشريف »

فتابع الشاب حديثه

« لانه ربما خـدعك ، ولانك تعـلم بان مليون سـترلنج لاتكفي مدة اسبوعين لحاجة حكومتـك ولاتكفي حاجتـك الخاصة ثلاثة شهور . ولكن اذا سلمت المستندات فاتكفل لسموكم بان اضع تحت يد فهمي باشا مليونـين ونصف سترلنج بضمانة ضياعكم الخاصة وما تمتلكونه سـواء في مصر اوفي اوروبا »

فانقلب الخديوى كاسد مجروح ودمدم

« ماذا تعلم انت من املاكي الخاصة في اوروبا ؟ »

فأكد كينيث « لاشيء يامولاي . ولـكني أعلم علم اليقين بأن رؤسائي يعرفـون مكان كل بنس في اوربا بواسطـة وكلائهم

العديدين

«وهم الرجال الوحيدون الذين فى استطاعتهم أن يقفوا فى وجه الدول الخمس العظيمة بجانبك فينظمون الدفعات المستحقة ويسوون ويزيدون ويرتبون ميزانيتكم وفى الحال يقدمون اليك اموالا طائله . وفى النهاية ينقذون سموكم من ذلك العناء المالى

« سل شريف اذا كان فى مقدوره عمل كل هذا ، فلربما كان على صلة برؤسائى »

فعلت وجه الخديوى صفرة مروعة وأجاب

«تعال غدا الى حفلة الجزيرة . وسأبعث الساعة فى طلب شريف . لانى لا أريد أن يقع بينه وبين غردون ما تخشى عقباه»

فأجاب الشاب مجدا

« سألبى طلب مولاى . ولكن اذكر بأنى سأكون فى حمايتك فلن تصيبنى اهانة أو سيئة »

فأجاب الخديوى « سأعاقب من يجرأ على ذلك بصرامة»

فقال الشاب « ربما جئت متأخرا يامولاى . ولكنى سآتى تحت ضمانتكم الشخصية وفى حماية القانون الدولى . وانى لست خائفا على نفسى بل كل خوفى على سموكم فانجلترا عدوة رهيبة لا يستهان بها

« والآن فانأمامكم غردون »

فاجاب الخديوى بحماس

«ان غردون هو اشرف رجل انجليزى عرفته. ولو انه ليس بالسياسى المحنك ولكنه مدير قدير »

فقال الشاب « ولكن مع كل ذلك فان شريف يتامر على ارجاع غردون من السودان وأن يحمل الزبير ملك تجار الرقيق حاكما على السودان مكانه»

ولما انصرف الشاب من حضرته دمدم الخديوى

«ان شريف على صلة بهم .أجل فانى اعرف انه لا يخجل من فعله هذا!»

ثم تمثل له وجه صديق باشا المفتش وقال

« من أجل هذه المستندات وقع ما كان بين اسماعيل صديق وبين شريف) »

كانت ساعة متأخرة من الليل حينما عاد لورنزوزخريا الشاب وأخبره بان النبيذ التى قدمته له موريللى فى حفلتها الساهرة كان مسموما .. ..

الليلة حفلة الجزيرة الساهرة . فاخذ المدعوون يفدون الى حيث الافراح والمسرات، ولما تقابل جروسفنر بكينيث أخبره بان الفتيات الثلاث فى منتصف طريقهم الى تريستا وهن يبسى ليتوود وستذهب الى لورد ريكسهام . أما ستيفاني فستختبىء

لمدة سنة فى التيرول ومعها ليشين كوصيفتها . ثم أخذ يقص عليه كيف ان شريف هو الذى أرسل عبدالله وليشين الى طنطا لاحضار السم الذى وضع فى كأس موريللى ـ كل هذه الاعترافات انتزعها جروسفنر من ليشين بعدان أمنها على حياتها ومستقبلها بواسطة ستيفانى

وشريف الآن يحاول التخلص من سانتامارينا لأنه يعتبره الحائل بينه وبين موريللى الهيفاء كما أنه العائق فى سبيل اسقاط نوبار

وكأسا واحدا من تلك التى قدمها موريللى لكينيث واكتشف أمرها جروسفنر كافيـة لازهاق روح سانتامارينا وذهابه الى عالم الخلود والنسيان . ولقد اعـترفت لى ليشين بأن سانتا مارينا هو عشيقها وأنه أخـذ مذكرات بكل حركات شريف ومؤامراته فى مصر وارسلها الى صديق يثق به فى ايطاليا لانه أصبح يخشى شريف فلقد دعاه شريف مرارا الى نزهة فى باخرته النيلية (ايزيس) الى اعالى الصعيد وسانتا مارينا يعرف ماهو مقدور له هناك . فلا تزال مأساة المفتش ماثلة أمام عينيه . فشريف يرغب أن يكون ماسكا بتلابيب الخديوي الى النهاية ليسقط وزارة نوبار وحتى اذا مامات الخـديوى فيصبح الوصى الشرعى للخديوى الجديد —وهكذا تغض الطرف كل من فرنسا وانجلترا عن خزائنه وضياعه الواسعة .أما المستندات التى مجرد شبح ملكيتها كلفت صـديق باشا المفتش حياته الذى

هو زعيم الفلاحين . والذى ارتفع من فلاح الى قريب الخديوى اسماعيل من العصب بواسطة زواجه — اذا كانت لهـا قيمة ما فشريف ان يظهرها حتى يأخذ ثمنها مضاعفا . . .

كانت عربات السنيور كاريولا قنصل جنرال ايطاليا الفاخرة فى انتظار كينيث جروسفنر وبعض افراد الجالية البريطانية ممن كانوا على صلات حسنة مع السنيور كاريولا والذين لبوا دعوته بناء على دعوة جروسفنر صديقهم الحميم وبين هؤلاء الكابتن «ارثور الوود» قائد الحامية البريطانية البحرية فى ملطه . انطلقت العربات مندفعة بهم نحو جزيرة الروضة حيث مكان الحفلة الزاهرة . وكان النيل ينساب بين ضفتين مجللتين بالنخيل الباسق وآلاف من الكواكب ترسل عليه اشعتها فتنعكس كأنها بارزة من قراره . وهناك عشرات من الموسيقات المخبوءة بين الاشجار وفى ظل الادغال تصدح بابدع الالحان التركية العربية

ترجل القوم حيث مكان الحفلة المائجة بالالاف المدعوين من مصريين واتراك وأجانب ومن عسكريين وملكيين يتقدمهم كاريولا قنصل ايطاليا حيث كانت وصلته دعوة خاصة بان يحضر مستر ملكولم كرانفورد (كينيث) بشخصه

ولقـد تقطب جبين كاريولا حينما أخـذوا يرتقون الدرج المرمرية وقال

« هل يذعن اسماعيل ، أم ينقض ميثاقه ؟ ولـكن من يدر فربما دفعه الخوف الى التسليم بطلباتك فى النهاية يا كينيث »

تقدم كريولى ومن معه بين جموع مائجة من باشوات وبكوات وحاشية وأفندية ومشايخ ودراويش وسياح وأفاقين وغادات أجنبيات ثم صفين من حرس الخديوى الخاص فى ملابسهم الرسمية يحيطون بشخص اسماعيل . هنا تقدم اليهم (الشيفاليه دوشاتل) الياور الاكبر ليأخذهم الى حضرة الخديوى اسماعيل خليفة سيزوستريس (١)

---

(١) جاء فى كتاب (شرح القانون المدنى فى الالتزامات للاستاذ الدكتور محمد بك صادق فهمى صحيفة ١٢٠ ما يأتى : بعد أن فرغ المصريون من طرد الهكسوس سنة ١٥٨٠ ق . م دخلت مصر فى دور بلغ شأوه فى عهد رمسيس الثانى المشهور عند اليونان بسيزستريس (وهو اشهر فراعنه مصر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ١٣٥٠ــ١٢٠٥ ق . م) وكان للجيش فى عهده أهمية كبرى وللكهنه منزلة عليا . وكان الملك يقطع رجال الجيش والكهنة اقطاعات واسعة من الاراضى محتفظا بملك رقبتها . وفى عهد الاسرة الحادية والعشرين ضعفت سلطة الملك وقوى نفوذ الكهنة وأعلنت ملكية الأراضي في مصر العليا للمعبود امون . اما فى مصر السفلى فبقى الحال على ما كان عليه أيام رمسيس الثانى

وجاء فى الصحيفه ١٢٤ وما يليها من الكتاب المذكور : وفي عهد رمسيس الثانى اتسع نطاق المعاملات وابرمت المعاهدات مع البلاد

ولما قدم كل من كينيث وسنيور كاربولا احتراماتهما الشخص الخديوى أومأ هذا الى القنصل جنرال كاربولا الى جانبه وقال «لقد أمرت شريف بأن يجهز فى الحال جميع المستندات لصاحبك الانجليزى قبل أن يصل غردون. فقل له ذلك وعرفه بأن يبرق عن ذلك سريعاً الى لندن»

مضت ساعتان ولم يترك كينيث رفاقه لحظة واحدة كما أوصاه جروسفنر. ولم تظهر هناك أية بارقة من الاخطار التى كان يخشاها جروسفنر

ولقد افتتحت الحفلة بواسطة الخديوى ومدام كاربولا. ومر ردح من الزمن ولم يعكر صفاء القوم أى حادث

ولكن كان هناك من لا يرتاح لهذا الصفاء والهناء. فان الشيفاليه دوشاتل الياور الاكبر أخذ كونت دى سانتاماريتا وموريللى الهيفاء الى المقاعد الرسمية بجوار السنيور كاربولا وعصبته

امتقع وجه القنصل بحمرة الغضب لهذا التحدى الوقح وعلت وجه جروسفنر صفرة الموت بينما وقف متحفزاً كسابق فى الالعاب الاولمبية. أما كينيث فقد شعر بارتجاف أنامل الدوقة دى فاليريا تحت قفازها حيث كان يتأبط ذراعها

الاجنبية (كاشور وفارس) (ومنها معاهدة ملك الحيتياس المشهورة فى التاريخ وسمح لرعاياها بالدخول فى البلاد للاتجار

لقد كانت الاهانة جلية ظاهـرة . وبينما كان السنيور كاربولا ينظر مندهشا هزت موريللى كتفيها ساخرة وضحكت ضحكة شيطانية فى وجه الدوقة دى فاليرا

ولقد رن فى أذن كينيث صوت التهكم حينما قبض على ذراعه كونت دى سانتامارينا وأسر اليه مبتسما ابتسامة الظفر والتشفى «والآن فقد كشفت أمرك ! لقد رفضت أن تشرب فى صحة موريللى الهيفاء والآن تشرب فى صحة زمرة من الافاقين»

وكان كينيث قـد رفع قبضته ليهوى بها على رأس الكونت حينما سمع صوتا محذراً

«خذ مدام الدوقة الى عربتها فى الحال»

ثم وجه جروسفنر كلامه الى السنيور كاربولا وقال

«كاربولا ! خذ كل جماعتنا فى الحال الى منازلهم . وسأبقى هنا ومعى الكبتن «ارثور الوود»

علت شفاه القوم ابتسامة السخرية حينما رحل السنيور كاربولا ومن معه الى حيث العربات يتقدمهم سنيور شيرو بينى وترجمان وقواص القنصل وباقى الحاشية حيث كانوا يفسحون لهم الطريق ولقد شهقت الدوقة وترقرقت عيناها بالدموع حينما قبل جروسفنر يديها وقال

«وداعا يامرغريت ،، خذى كينيث الى قصرك ولا تفارقيه .

حتى أعود اليكما »

هنا أخذتها البارونة روتين الروسيه من يدها صامتة الى العربة وانطلقوا فى سبيلهم تاركين الحفلة بما فيها من أفراح ومساوىء وكانت رحلة كئيبة مرهقة . وهنا استدار القنصل الايطالى الى الدوقة وكينيث والبارونة روتين وقال

«سأقابل الخديوى شخصيا . ان عمل دوشاتل هـذا اهانة عظيمة مفزعة»

أما جروسفنر فأخذ الكابتن الوود من يده وساقه الى حيث الحفلة واندفع بين القوم غاضبا ثائرا حتى اتى كونت دى سانتا مارينا وصحبته . وهنا تقدم الى هذا الكونت الساخر الباسم ولكمه لكمة دامية طرحته على الارض وقال

« هل فى مقدورك أيها الكونت المزيف الوقح أن تأتينا باهانة أكبر من هذه الاهانة ؟»

فصاح الكونت متلعثما بينما كان يترنح من جرحه

« سأصل هذه الليلة الى مقتل منك جزاء لك»

هنا جذب الكابتن الوود صديقه جروسفنر من ذراعه وقال

«تعال معى ياجروسفنر»

وبعد دقائق معدودة أتى سير هوارس لينجارد صديق سانتا مارينا واتفقا على موعد ومكان البراز قائلا

ستكون المبارزة بينكما فى قاعة الرقص الملوية بفندق الازبكية والموعد الليلة والسلاح السيف »

فأجابه جروسفنر بهدوء « حسنا فعلت فقل له يأتى بطبيبه الخاص وسآتى معي بالدكتور سيمور . أما السنيور شيروبيني فخبير بجميع انواع السلاح »

أتى موعد المبارزة فهمس السنيور شيروبيني فى أذن جروسفنر «لا تنس أن ستريلوجو (سانتا مارينا) شيطان السيف فهو تلميذ (تستافيراتا) وأنت تعرف اسلوبه فى الطعن»

وحينما وقف الخصمان — سانتامارينا وجروسفنر — للمبارزة صاح الكبتن الوود إسير هارى اينجارد

« اذكر انى مسلح . واذا كان هناك من مؤامرة دنيئة فان رأسك تسقط فى الحال»

مضت عدة دقائق لم يسمع فيها غير صليل السيوف . وكان شيروبيني يراقب خفة جروسفنر ودهاء سانتا مارينا وحركاتهما فى الهجوم والدفاع والمخادعة . وهنا صاح الشيفاليه دوشاتل بالكف عن القتال لان سانتا مارينا جرح جروسفنر

فتقدم اليه الدكتور سيمور وطبيب سانتا مارينا ولكنه دفعهم عنه وتقدم الى سانتامارينا فاضطر الشيفاليه دوشاتل متنهدا الى أن يعطى أمره باستئناف المبارزة

ولقد أرخى جروسفنر ساعده متظاهرا بالضعف والوهن فظن سانتا مارينا بأن قد سنحت له الفرصة وتقدم الى جروسفنر مكشوفا وهاجمه. ولكن سرعان ما اشتد ساعد جروسفنر ودفع سيفه في مقتل سانتا مارينا فخر صريعا على الارض وطار سيفه من يده وسرعان مافاضت روحه الى الجحيم

ولما انصرفوا ركب الشيفاليه دوشاتل حماراً الى منزله وتمتم في نفسه

لقد قضى الامر . فشريف أخفق في آخر لعبة له من حيث أراد الفوز. أما موريللي فقد تركت وحيده تتبختر بين آفاق العالم في حلة رقصها»

أما جروسفنر فقد ضمد جرح قلبه بمنديل الدوقة الذي أعطاه سومز لكينيث وقال

«الآن فان هذا المنديل يربطقلبي برباط السعادة والهناء ويوثقه بالدوقة أحكم وثاق»



الفصل الحادى عشر

(مع غردون (١) فى سراى شبرا — مظهر كاذب جذاب — تصميم غردون الاخير — أخ عبدالله — المقابلة السرية — فى القلعه)

مرت أسابيع على هروب موريللى الهفياء والقاهريون بين مستهجن متوعد ومستملح متأسف أجل فلقد فارق الاوبرا كوكب من أسطع كواكبه المنيرة المتلالئة . وكان فى هذه اللحظة كل من جروسفنر وكينيث يطلان من نافذة قصر غردون يقرآن أسرار القاهرة الدفينه بين تموجات ماء النيل الرقراق . أما غردون فكان مع الخديوى اسماعيل فى قصر عابدين يناضلان من أجل المستندات بينما كان شومز الخادم يحرس قصر غردون مع حارسين من السودانيين الاشداء الذين رافقوا غردون من الخرطوم وهنا سأل كينيث جروسفنر عن حالة القاهرة فأجابه باسما

«لاشىء غير تكاثر السياح وذلك المظهر السنوى لشهر رمضان فاخواننا المسلمون يقضون نهارهم صائمين متكاسلين عملا بأوامر رسولهم

كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) (١)

---

(1) As well as the creature comforts just as long a white thread can be told from a black thread.)

ولكنهم يستحلون لأنفسهم في المساء ماتعففوا عن ارتكابه في النهار . مما يجعل كل مساء عندهم كليلة (فالبورجيس) (١)

ولقد نسى القاهرون معالم الحفلة وبهجتها وقاموا يستعدون لافراح العيد الصغير ثم عيد الاضحى الذي يعقبه بسبعين يوما...

وقبل الاندفاع في حديثنا عن خاتمة مأساة القاهـرة نذكر ماخبأه القدر لأناس كانوا يلعبون أدوارا خطيرة في تمثيلها فلقد قتل سانتا مارينا غير مأسوف عليه ولا يعلم غير شريف وموريللى أين قبرت رفاته . أماموريللى فالكل يظن أنها مختبئة في أحـد قصور شريف المنيعة . اما سير هوارس لينجاردهم ورهن السجن في المانيا لمحاولته سرقة مصرف هنالك . أما «بيسى ليتوود» أو كما زعمون «لادى لينجارد» فقد أبحرت على ظهر الباخرة (سافوى) لتبدأ حياة جديدة هنيئة وتمثل الدور الاخـير من حياتها بين الجمهور البريطاني . اما ستيفاني وايشين فهما مختبئتان في انسبروك بالتيرول وينعمان بعيشة راضية بينما الكبتن أرثور الوود رقى وأرسل الى كندا ..

---

(١) فالبورجيس هى ليلة أول مايو حيث تركب الساحرات الالمانيات أيادى المكانس وانثى الماعز ليحتفلوا بسيدهم ابليس في أمكنة القرابين والتضحيات القديمة خصوصا في جبال الهارتز وذلك تذكارا لايام سان فالورجاسيا كاهنة هيندهيم والتى ماتت سنة ٧٧٨

كان هنا اجتماع سرى بين القناصل الخمسة فى ذلك الاسبوع واتفق خمستهم على أن وزارة نوبار باشا صارت او هى من نسج العنكب . وهذا مما يؤذن بدنو العاصفة والكل ينتظر بفروغ صبر نتيجة لجنة مستر ملكولم كرانفورد (كينيث)

وقد استنتج كل من كينيث وجروسفنر بأن دافيد هارت لن يأتى الى مصر وأن بنيامين وولده حضرا مشروعا لتوحيد الديون المديدة بواسطة الدول العظمى

وأصبح القناصل الخمسة وليس هنالك من سبب لمحاربة أحدهما الآخر . وهم ممسكون معا بزمام اسماعيل المنحدر الى وهدة الافلاس . ومنتظرون اللحظة التى يبرقون فيها لدولهم عن أول كبوة لاسماعيل ، ولكن هل فى مقدرة غردون أن يؤثر على الخديوى فيسلم المستندات ويقبل هذه التسوية الاخلية العادلة، ولكن أنى لغردون ان يتهم اسماعيل بالمطل والمراوغة طالما انه يصعب توجيه التهمة الى أمير مفلس متربعا على عرشه المترنح ،

القى جروسفنر بنظرة طويلة الى الاب نيلوس (النبيل) وسأل كينيث

— « الى أى حد وصلت فى مأموريتك الرسمية ؟

— انت تعرف تلك الاعتذارات الباطلة والوعود الخلابة لبلاد بكره · فكل اسبوع نعقد ثلاث جلسات دون نتيجة مثمرة

حاسمة . فناظر المالية والبرنس حسن لايحم كان ساكنا. أما المشايخ الاثني عشر مابين سكرتير وتابع فيقضون الوقت في السمر يدخنون في الصالة . اما شريف فلا يفارق دلسبس لحظة واحدة يخادعه ويداعبه . ولذلك فانت ترى أنّ كل العمل على رأس غردون

كل مساء يدعو اسماعيل غردون لمسامرته ومشاورته في بعض شئون الدولة خداعا منه دون أن يشير الى أمر المستندات واذا مافاتحه غردون في أمرها تبسم اليه الخديوي مداهنا وقال «أريد المال» «مفيش فيلوس»

ـ وكيف معاملة شريف لك ؟

لقد اسدل ستارا كثيفا على الماضي . فهو لا يذكر موريللي الفاتنة ولا يشير بكلمة الى مقتل سانتا مارينا الخسيس . غير انه تنهد مرة وقال (لو وثقت بي كما تثق بغردون باشا فان اصواتنا الثلاثة في اللجنة كافية لتكليل مهمتك بالنجاح فانت ترى ان دلسبس يعضدني كما ان هذه هي رغبة الخديوي أيضا »

وبماذا اجابته ؟

لن اثق بغير عهد الشرف الذي قطعه الخديوي على نفسه ثم اعلمته بان كل الاوراق التي وصلتني وفحصها لورنزو زخريا في فندق الازبكية ليست الا من المهملات التي لاتغني من الحق شيئا

وهناك غردون. اما القاهرة فتتردد في جنباتها صيحات الفاقة والفزع . فالتجار يهولون ويولولون، والشوارع ملأى بالبؤساء والهاربات من بنات الحريم الجائعات حيث يملأن رحبة الازبكية كل مساء، ويقيني بأن شريف لن يتعسف في استعمال سلطته وقلب النظام وسرعان مايرحل الى ايطاليا، سواء بمفرده أو مع اسماعيل

ولقد اشتد الضغط ، وسرعان مايسقط نوبار ويرحل اسماعيل وحقا فان الكل يأخذ على نوبار سياسته الخارجية المرتبكة المعقدة أما شريف فبدهائه أصبح ومعه صادق باشا ـ ذلك الرجل الذي يعرف ثمرة الهروب من هول موقعة سهول الجورا الحبشية ـ أصبحا قائدي الفلاحين وزعيمي الحزب الوطني المصرى وأظن بان اسماعيل قسم كنوزه المخبوءة مابين مصارف المانيا وهولاندا وفرنسا وسويسرا وربما كان يمتلك قصرا على خليج نابولى اللازوردى وهناك هو وشريكه شريف يستأنفان حياتهما بين فينوس (١) ومركورى(٢) وديانا لوسيفارا (٣) فهوراس وقيصر وجوليا مانوميا وبومبي وبيزو ونيرون ذو اليدين المخضبتين بالدماء قد تركوا أثرهم هناك على ضفاف التيبر

(١) الهة الجمال وهي النجمة المعروفة بالزهرة
(٢) آله التجارة ورسول الالهة وهو النجمة المعروفة بعطارد
(٣) هي الهة النور الايطالية القديمة والهة الشمس والمعروفة عند الجريكيين (بأرتيمس)

فى هذه اللحظة دخل عليهما غردون واستأذن من جروسفنر وأخذ كينيث الى مكتبه الخاص وبدأه بالحديث

« لقد دنت ساعة العمل الرهيبة فلنبدأ عملنا بحزم فى الحال فهذه اللجنة المزعومة ليست الا نفاقا وخداعا ومظهرا كاذبا، وانى أرى مصر وقد دالت دولتها وانفرط عقدها من الطرفين

« فلقد وصلت أنباء مفزعة عن السودان ، وعلى مسمع من الجميع حاول الخديوي أن يأخذ منى عهدا بأن أترك الامر يأخذ مجراه الطبيعى ، فاما سكنت العاصفة من نفسها وبقى السودان لمصر وأما ضاع عليها الى الابد

« فلقد كان ينتظر المسلمون من الف ومائتى سنة ظهور المهدى والتاريخ الهجرى اليوم يوافق الثانى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ والآن لما رغبت الى الخديوى فى أن يقيل اسماعيل باشا يعقوب حاكم السودان وجدت بأنه يحتمي بتجارة الرقيق الممقوتة والزبير ملك الرقيق اسير هنا اسميا بينما ابنه ذو حول وقوة فى الخرطوم . وأما ابوه مع ذلك الحاكم المرفوت وشريف باشا فجدون فى تجارة الرقيق ورغبوا الى بان أؤكد للخديوى بأن الباب المخصص له فى الميزانية انما هو عن العاج وهذه طريقة سهلة لاطعام الحريمات بثمن لحوم البشر

« فمحمد احمد من جزيرة عباس بالنيل الابيض أعلن الآن عن نفسه بأنه المهدى المنتظر وأخذ يرفرف فوقه اللواء النبوى (المقدس)

بينما خزانة مصر هنا خاوية والشعب فى غليان واخماد وشريف ونوبار فى نضال مستمر . والآن : فانى أرى مصر الاستوائية تسقط من نفسها

«ولقد طلبت من الخديوى أن يعافينى من هـذه اللجنـة الهزلية الفارغة. وهو لم يقبل حتى اتفق مع شريف ودلسبس على عمل مشروع لتعديل الميزانية وتسويتها . وأما الاثنان الباقيان من اللجنة فهما كالاصنام لا يعملان شيئا . وأنا طيعا لن أرضى بأن أترك مصر السفلى تضيع بينما امضى هنا الوقت فى أمر باطل غير مثمر ولقد عولت على الاستعفاء أو الرجوع الى السودان . فربما كان من الافيد وجودى هناك»

فاجاب الشاب بهدوء

«لا يوجد هناك غير أمر واحد ياسيدى . وهو أن تطلب من دلسبس وشريف البت فى الامر الآن فيطلبان من الخديوى تسليم المستندات فى الحال. وشريف لم يتعود مكالمتك له بمثل هذه الصراحة والعجلة . والامر يتطلب الحزم والشدة

« فاطلب منهما أن يفتحالى باب الارشيف (١) على مصراعيه والا فانك تستعفى من اللجنة مبينا أسباب استعفائك وتتركنى أرجع الى لندن »

---

(١) هو مكان السجلات والمستندات

« وحينئذ يتحتم على فرنسا وانجلترا ان يدبرا قروضا لانهاض مصر واقالتها من عثرتها أو ينتخبا حاكما أقوى يمكنه أن يمسك بزمامها ويهديها الى السبيل السوى »

هنا ظهرت على غردون علامات الجد والشدة وقال

«أنت على حق . فسأعمل مايقضى به على الواجب هنا أو هناك اذ يجب أن أضع حداً لكل ذلك »

فتابع الشاب حديثه

«اطلب من شريف أن يعين مكانا لحادثتكما السرية . وشخصيا فان دلسبس مغرم بذلك الرجل الذي كان سببا فى حظه الوافر فاطلب منه أن ينقذ الخديوى اسماعيل

«ولكن شريف ذلك الرجل الذى يفسد عليك سياستك فى السودان ويصادق اعداءك ويحمى الزبير ملك الرقيق القاسى وشريف ذلك الرجل الذى حاول اغتيالى على يد أناس سفاحين ليقضى على اللجنة حقا أن لديه أمرا خطيرا يريد ان يخفيه»

فسأل غردون « ولماذا يحاول فض اللجنة، »

فاجابه كينيث « لانه يريد أن يستمر هذا الارتباك المالى حتى يسقط نوبار . وحينئذ سيحاول الحصول على قروض لاصلاح الحالة وستجد فرنسا وانجلترا وقتئذ وسيلة للتدخل وهكذا يفقد اسماعيل عرشه المترنح . وبهذا يلحق بنوبار العار ويصبح شريف

ناظر النظار لخديو جديد اخر»

ولما عاد كينيث الى الغرفة التى ينتظره فيها جروسفنر بقصر غردون أتى اليه لورنزو مسرعا مضطربا وقال «عندى اخبار خطيرة!»

فاستفهم كينيث « من لندن »

فأجابه لورنزو زخريا

« كلا ! بل القاهرة فى غليان وثوران فهنالك أخبار مروعة عن حدوث عصيان عسكرى فى القاهرة . فالجنود الذين لم تدفع اليهم مرتباتهم يحاولون احتلالها بقيادة عرابى بك (١)

---

(١) احمد عرابى باشا فيما بعد رأس الثورة العرابية . وبمناسبة ذلك نذكر أدوار حركته

« بينما كانت حركة الاصلاح فى مصر سائره فى سبيل التقدم والنجاح كان روح الاستياء يدب فى الجيش لما عليه نظام الترقى وقصر الوظائف الكبرى والالقاب على الترك والشركس

فارسل بعض الضباط المتزمرين بزعامة عرابى وعلى فهمى (هو المرحوم على باشا فهمى الديب من تلا وتوفى فى سنة ١٩١٢ والذين اذكرهم من سلالته هما نجله عبد العزيز بك فهمي وحفيده فهيم افندى على حسن بوزارة الاوقاف) وعبد العال (هو عبد العال باشا حلمى من القليوبيه) المعروف بأبى حشيش) وراشد (هو راشد باشا حسنى كان سكنه بالصليبه ويعرف باسم ابى شنب فضه) ونجله احسان بك تشريفاتى بالسراى الملكية) وغيرهم من امراء الالايات احتجاجا الى رياض باشا ناظر الحربية ثم تحقيق مسألة الشرق ومن فازوا بغير

ولقد وصلتني مئات البرقيات اليوم . فباريس وفينا وبرلين وفرنكفورت وأمستردام ولندن في خوف ووجل حيث قد نزلت قيمة كوبونات الديون المصرية ثانية. فلقد التقطنا برقيةمن مصطفى فهمي باشا في لندن الى الخديوى وهو يهدد بغلق الوكالة المصرية في بورتلند سكوير » وآخر ماقاله . ليس عندى من مال فاصحاب البنوك يرفضون أن يدفعوا لي أية حوالة اودفعة رسمية

جدارة واستحقاق

وكان الاحتجاج شديدا مما انتهى اليه ثورة عابدين العسكريةالتي هدأت بعزل رفقي باشا وتنصيب محمود سامي باشا البارودى من الحزب العسكرى مكانه . ولكن الخوف بدأ يدخل في قلوب رجال الجيش خصوصا بعد عزل البارودى في ٨ سبتمبر وصدور الامر للالاى الثالث من البيادة بالسفر الى الاسكندرية . قام على اثر ذلك عرابي بمطالب جديدة وهى عزل النظار وزيادة الجيش الى ١٨ الف . ثم اخذ يزداد عرابي ويتحدى الخديوى وانتهى الامر بوجود جو مظلم وازداد مابين الجيش والخديوى توفيق من الخوف والجفاءوزاد وجود الاسطول في الهياج حتى انفرد الاسطول الانكليزى بضرب قلاع الاسكندريه فلم تدم المعركه اكثر من عشر ساعات . وفي فجر ١٣ سبتمبر . سنة ٨٨٢ بدأت موقعة التل الكبيرالتي انقضت بانهزام عرابي ودخول الانكليز القاهره في ١٥ سبتمبر . ثم حكم على زعماء العرابيين بالاعدام ثم ابدل الحكم بالنفى المؤبد الى جزيرة سيلان م؟

المعرب

أوسلفة شخصية. ولذلك إن لم تنقذني سموكم فأني أعود الى مصر ومعي البرنس فؤاد (١) وآتي معي بالبرنس محمد من سان كير

«وحقا فان أصحاب المصارف يأبون أن يدفعوا أي تحويل حكومي (أميري) سواء كان بضمان أو غير ضمان. ولا ينفك كل من قنصلي فرنسا وانجلترا عن التردد يوميا صباحا ومساء على قصر عابدين مظهرين تخوفهم من الحالة

« وكل يوم يعقد اجتماعان من البشوات في وزارة الحقانية للتشاور ودرس الحالة. أما الليفتانت جنرال ستون باشا الامريكي فقد أرسل سرا للمرابطة في القلعة بفصيلة من الحرس النوبي استعدادا للطوارئ. كما أنه وضع تحت إمرته خمسون ضابطا حتى يمكنه أن يجعل مدافع القلعة وقتيا عديمة الجدوى ولحراسة النقط والمواضع التي يمكن أن يحتمي بها الثوار. وفي الحقيقة فان الحامية قد أقصوها عن القلعة ولا يمكن لأحد دخولها أو الخروج منها بدون اذن من مكتب الخديوي»

فتمتم كينيث وقد تملكه اليأس

«هل الازمة على وشك الوقوع (الحلول)؟»

فاجاب اليهودي بفطنة

«كلا لم يحن وقتها بعد. وانما كل هذه مؤامرات من شريف

---

(١) جلالة الملك فؤاد الاول

يمضده فيها راتب باشا حتى يجعلا مركز نوبار باشا حرجا وبقاءه في دست الوزارة مستحيلا

« وهناك زمرة من أنصار شريف يترددون على الخديوى يوميا يناصرهم اسماعيل باشا يعقوب حاكم الخرطوم المرفوت وزعيم عصابة الاتجار بالعاج والرقيق وكذا أصدقاء الزبير من كبار البلاط الخديوى وغرضهم حمل الخديوى على اعطاء شريف كارت بلانش (بطاقة بيضاء) (١) كناظر النظار وتمهدهم بتدبير القروض اللازمة لحاجة اسماعيل الشخصية اذا أسقط وزارة نوبار

« والآن فان مدام الدوقة دى فاليريا صممت على الاشتراك علنا في عملنا . وقد رغبت الىّ أن اعلمك بأنها ستدعو غردون عندها للغداء في فيلا كليبر . وستكون أنت وجروسفنر ومعكما البارونة روتين ومدام كاريولى من ضيوفها فعليكما أن ترقبا الفرصة لانها ستتوسل الى غردون ان ينتزع المستندات من الخديوى . فهي ساحرة الساحرات ولا يوجد شيء لاتعرفه . فهي تتعقب الاوراق التى اختفت باغتيال المفتش . لانها مخبوءة في أعالى النيل ولا أحد يعرف مقرها غير حسن أخ عبد الله الترجمان والذى هو رئيس تراجمة غردون باشا هنا . وحسن هذا

(١) كان يعطيها لويس الرابع عشر لاخصائه وبها يخول لهم عمل كل ما يريدونه دون معارضة من الاهالي والحكام

لا يمكنه ان ينبئ عن مقرها فهو يعرف مدى بطش شريف ولانه كان رئيس التراجمة الذين صاحبوا المفتش على يخت المحمودية الى اعالى النيل حيث ذهب ذلك الفلاح السيئ الحظ ولم يعد له من اثر

« وفي مقدرة الدوقة ايضا ان تؤثر على دلسبس وتجعله ينحني امام ارادتها ، وهذان الرجلان (غردون ودلسبس) يمكنهما ان يرغما شريف على التصويت مهما - اذا امكنها ان تقنع غردون ببراهين دامغة بان شريف والزبير وابنه يعقوب باشا وتجار العاج والرقيق وتلك العصبة السودانية القديمة يحركون جميعهم المهدى للانتقاض على حكومة غردون الاستوائية وجل غرضهم ان يلجئوا غردون الى الاستعفاء او اقالته كرها . وبهذا يعيدون كل اعالى مصر الى يد العصبة القديمة . لانهم لا يعرفون بان قروض الوجه القبلي ستقدم قريبا نظير رقابة اجنبية

واسماعيل يخشى ان يسقط نوبار بهذه السرعة لانه ستقع على رأسه وقتئذ يدا انجلترا وفرنسا الباطشتان . وكل رجائه الان هو الحصول على المال بواسطة شريف وعصبته ولانه لا يجسر على خداع شريف ومناصبته العداء فهو ان عمل ذلك سيواجه وقتئذ اعلان الحقائق المرة عن الاختفاء الغريب للملايين المقترضة والآن فان شريف قد وضع الجواسيس وقام يحرك اذنابه . فرئيس التشريفات دوشاتل يؤم يوميا فيلا كليبر وقد عادت اندرى

لافارج الى الظهور فى فندق الازبكيه ، » دوشاتل واندري لافارج ومعهما بدالله يتاصصون عليك ويراقبون جروسفنر

« اما الايام فتقترب بنا من ثورة وجنون ، فليس هناك من مال لعيد المطر وحتى المتسولين فى الشوارع قد اصبحوا فى يأس شديد. اما الحرعات والسرايات فيملؤها المشاغبون والمتآمرون

« وانى لاشفق على غردون وبودى ان يستقيل ولا يعود الى السودان لأنى ارى خريطة مصر السودانية تنطوى بسرعة البرق وربما ذهب غردون ضحية لمجده المزعوم المنصرم وذبح فى الخرطوم كما تذبح النعاج » .....

مرت الايام سراعا ووقع ما تنبأ به لورنز وزخريا ، فان كينيث لما زار الدوقة بامرمن غردن فى فيلا كليبر أخبرته هذه بأن صاعقة ستنقض على مصر

فالقاهرة الان فى أشد غليانها وثورانها ، فستقام حكومة جديدة واسماعيل ترك وحيدا فى قصره ، ولقد أقصى نوبار كل البرنسات (الامراء) عن كل أمر ذى مسئولية ، وأما البرنس حسن والبرنس حسين فقد تنازلا عن الحكم لاخيهما الابن العريكة البرنس توفيق ، فشريف هو الذى يدبر كل هذه المؤامرات ومعه قريبه راتب باشا وعثمان باشا ناظر الحربية السابق وعصبة تجار الرقيق والعاج ، فهم يدفعون الجيش الى العصيان وعما قريب ستسقط

وزارة نوبار ، أما عرابي بك فهو على قدم الاستمداد لتقويض القلعة من جدرانها بتحريض شريف والقاهرة جميعها تتحفز للثورة

هنا سألها الشاب « واذا نجح غردون اليوم ؟ »

فأجابته « حينئذ ربما حصلت على كل الاوراق المبينة في النصف الاول من القائمة . وشريف سيمينك في ذلك لانه يريد أن يضع كل أثقال الديون الهائلة فوق جدث نوبار السياسي أما الجزء الثاني فلن تراه قط ، فقبل أن تراه تكون قد وقعت الواقعة

« واسماعيل لن يجسر على اظهار الاوراق لأن في اظهارها برهان على ان اسماعيل وشريف حصلا على مائة مليون من الفرنكات في الخمس سنوات الاخيرة

« وهاهو اليوم اسماعيل يحيط به جماعة الفلاحين وأصدقاء البرنس حسن الالمان وبعض الافاقين الاجانب ، ولقد أقال الضباط الامريكيين الشجعان واحدا فواحدا أولئك الذين احتفظوا له بكردفان ودارفور والذين مع قليل من الرجال العسكريين الاجانب المحترمين أداروا كل الحرب في الحبشة ، وربما عنّ له أن يقيل غردون ولكنه يخشى البرنس أوف ويلس

« فمن عهد محمد على ذلك الرجل العجيب وابنه ابراهيم ذي البطش والحول لم توجد يد قوية يمكنها الاحتفاظ بالسودان ، غير أن أولئك الضباط الامريكان البواسل خدموا إسماعيل خدما عظيمة

فشيلي لونج ومن معه من رجاله ذوى الحزم فضوا طلاسم الغيب عند نيانزا ثم أعمال (بروت) في كردفان فغارات (بردى باشا) الموفقة في دارفور ، ولكن كان عمل هؤلاء أصبح جميعه فوق رأس غردون وحده . أما أعمال سير صمويل بيكر فلم يبق عليها الدهر من أثر »..

في اليوم التالي بينما كان كينيث يرتقي درج سلم قصر عابدين أتى اليه حسن الترجمان مسرعا وهمس في اذنه «مستر ملكولم كرانفورد!! لقد اشتعلت الثورة في السودان ، وسيعود غردون باشا الى هناك »

. أعترت كينيث لهذا النبأ قشعريرة مخيفة غير انه عاد فتمالك حواسه وصعد السلم الى حضرة سمو الخديوى اسماعيل ، وهناك وجد معه غردون باشا في انتظاره ، وكانت الطاولة التي أمامهما منثورا عليها كثيرا من الاوراق وهناك خرائط مرسوم فيها بحيرة فكتوريا نيانزا بمائها الازرق. وهنا اخذ ينتظر مايقوله اسماعيل في هذا المقام ، وبعد هنيهة بدأ اسماعيل حديثه لكينيث

« لقد رجوت من غردون باشا أن ينتظر هنا شهرا آخر على شرط ان تصله المستندات التي نطلبها قبل أن يبرح القاهرة الى السودان ، وسأرسلها الى قصره حتى تكون في عهدته واتفحصها أنت هناك ثم يرجعها الى. ومن ثم تبدأ تفتيشك حتى الشلال الاول بما في ذلك الوجه القبلي وجميع المطاحن والمصانع والقناطر ،

فعليك أن تبـدأ عملك حالا وستصلك المسـتندات من النظارة غدا »

وهنا وجه كلامه الى غردون « هل فى هذا ما يرضيك ؟ »

فنظر غردون الى الشاب غامزا وقال « أين القائمة ؟ وهل عندك ماتقوله ؟ »

فأجاب الشاب « ان الواجب يحتم علىّ أن أقول ياسيدى ، بأنه ان لم تصلنى جميع الاوراق الواردة بجانى القائمة وعليها طابع مكتب سمو الخديوى فانه من العبث محاولة أى عمل لأنها تظهر مقدار المبالغ التى تسلمها الخديوى من هنا وهناك والتى تعادل الميزانية الاميرية »

فاستدار غردون الى الخديوى وقال بهدوء « متى تستخرج هذه الاوراق ياصاحب السمو ؟ »

فمد اليه الخديوى يده وتناول القائمة وطالعها بيد مرتعشة ووجه ممتقع وأجاب

« ان من بينها أوراقا خطيرة جدا ، فبعضها مخبوء فى مكان قصى وبعضها في قصرى بحلوان وبعضها فى يد ... »

وهنـا تردد الخديوى لأن عينى غردون كانت تخترق خفايا صدره ، وحقا فان مركز الخديوى أصبح دقيقا الآن

فسأل غردون الخديوى بلهجة العجل « هل سنحصل عليها »

فأجاب اسماعيل « سأعمل جهدى ! »

فاستدار غردون للشاب وقال « أما الان وقد حصلت على وعد شفوى من الخديوى فهيا بنا »

ولكن الخديوى دس القائمة في صدره فمد اليه الشاب يده باحترام وقال

« ياصاحب السمو ان هذه القائمة الاصلية هى في ملكية رؤسائي وسلمت اليهم من فهمى باشا باسمك »

فأجاب الخديوى « أنها مستندى ».

فأجاب الشاب « ولكنها مرتبطة بشرفى وعهدك وعندك مثيلها فى أرتشيفك الخاص

« وحتى شريف باشا فقد حصل على نسخة منها من سموكم »

هنا تقابلت عينا اسماعيل بعيني غردون الحادتين ودس للشاب القائمة فى يده بدون أن ينبس ببنت شفة، ثم أدار ظهره للشاب وقال لغردون دون اكتراث

«ستحضر غدا اجتماع مجلس السري عند الظهر، فاذكر ذلك»

وفى المساء بينما كان كينيث يتباحث مع لورنز وزخريا كان اسماعيل باشا يتمشى مع شريف وهنا قال شريف « سنسخر منهم فى النهاية . »

فأجاب اسماعيل « اترك الامر لحكمتك ياشريف، غير أنى

لن احدث تغييرا ماقبل سفر غردون الى الخرطوم ، وحينئذ أسقط نوبار تنفيذا لرغبتك ويصير فى مقدورك أن تسخر من هؤلاء الصيارفة الانكليز ، ولكن المال ياشريف المال .. »

فاجاب شريف بدهائه المعهود « دع هذا الامر لتدبيرى يا مولاى . فسنحصل على مصدر مالى عظيم من السودان فى المستقبل ! فالجغرافيا لن تأت لك بالمال ولكن شريف . شريف وحده هو الذى فى مقدوره أن يأتى به اليك » . . . .

وقبل مطلع الفجر استيقظ غردون من نومه وارتدى ثيابه العسكرية وسار نحو القلعة يتقدم اثنى عشر جنديا من جنوده المخلصين مخترقا شارع الموسكى وسوق الكانتو ومارا بالحريمات فالمساجد المفتوحة لصلاة الفجر فالاسواق والاربات التى يخفر ضبب (الاقفال الخشبية) حوانيتها مئات من الخفراء الوطنيين فقبور المماليك حتى وصل الى بوابة العرب من القلعة ثم أعطى كلمة المرور ودخل القلعة حيث كان قد سبقه اليها شريف ومعه ذلك الرجل المتباهى بمشروع القناة المركيز فرديناند دلسبس

وبدأ نور الفجر يهزم جيش الظلام وسمع المؤذن يصيح بصوته المطرب الشجى يردد صداه جنبات الليل الرهيب !

« الصلاة يامؤمنون الصلاه ، ! الصلاة خير من النوم،،»

Arouse ye faithful and pray !
Pray is better than sleep.

هنا تقدم وغردون خاشعا حيث ذلك الموضع الذى قفذ منه أحد المماليك الاشداء بجواره من شاهق بناء القلعة وحيث لا يزال بلاط صلاح الدين يشرف على بئر عين يوسف . ثم بدت له القلعة ورهبتها حيث جرت دماء المماليك كالانهار الفائضة فى أول يوم من مارس سنة ١٨١١ بينما كان محمد على ينظر اليهم بين عاملى الجذل والوجل يدخن شيبوكه

وصل الى ساحة القلعة حيث كان فى انتظار قدومه الجنرال شارلس . ب . ستون وبردى باشا وماسون بك ومن معهم من الضباط الامريكيين الباقين

هنا تنهد ستون باشا وقال لغردون

«ان الخرطوم التى هى جوهرة الخديوى الثمينة يتوقف أمرها عليك وحدك أيها الجنرال . والآن فان هذه القلعة القديمة التى تشرف على القاهرة وكل إلى أمر حمايتها مع بعض من السود الغير مدربين وقليل من الضباط . وهناك صاعقة ستنقض فى سماء مصر من النيل الابيض حتى البحر ، ونحن ما علينا الا أن نقوم بواجبنا . وانت لست وحيدا فى منطقتك الاستوائيه المتقدة بلهيب الثورة أكثر منى هنا . ولكن ما الحيلة ، فلم يتسن لواحد ممن حكم مصر أن يبنى امبراطورية عظيمة خصيبة من شاهق هذه القلعة العابسة . ومن ذا يكون اعظم من صلاح الدين واحكم

من نابليون واشجع من محمد علی ، و حتی سلفی الجنرال (موط) يظاهره السلطان فسليمان باشا (جنرال سيف) لم يمكنهما ذلك فنحن جميعا اخفقنا وكذلك سير صمويل بيكر واخشى ان تكون انت ايضا كذلك . فما هو العيب (السبب)؟»

هنا مد جنرال غردون بصره بعيدا وجال به فی ارجاء القاهرة واجاب بحيرة

«هناك، هناك السبب فی المائة حريم حيث تسكنها الغوازي الساقطات والشراميط الملعونات (العاهرات) . وكل ما اخشاه ان لا يكون هناك أمل لمصر فی النجاة »

ولما اجتمع شريف بغردون فی لجنة الخمسة امكنه بدهائه ونعومته الشركسية ان يأخذ منه عهدا صريحا بتعضيده فی اسقاط نوبار دون ان يعطی هو عهدا اكيدا بتسليم المستندات

الجزء الثالث

الفصل الثانى عشر

(رحلة التفتيش — فى النيل — سقوط نوبار باشا — مخالب أبى الهول — مشروعات راتب باشا)



جاءت أيام شهر ابريل الهنيئة تحمل معها للاشجار ثمارها وأوراقها والاغصان زهورها وورودها فزهت حدائق بولاق وشبرا والجزيرة وكساها الربيع ببساط سندسى. أما فى سراى غردون فكان لورنزوزخريا وولده يعقوب منهمكان فى بحث المستندات التي قدمت بأمر الخديوى الى مسترملكولم كرانفورد

أما عن جمعية الخمسة فكانت تعقد جلساتها بانتظام ثلاث مرات فى الاسبوع فكانت أصوات كل من غردون ودلسبس وشريف فى صف الشاب مما يجعل كل رأى لناظر المالية والبرنس حسن عديم الجدوى.

والآن قد مر على كينيث زهاء الشهر وهو فى عزلته منهمك فى مراجعة المستندات يحيط به حرس من جند غردون ليلا ونهارا

أما محبي اللهو والمرح فقد بدأوا يهجرون القاهرة. وكان طريق شبرا قد قلت حركته فلم تشهد زهور الربيع فى فيللا كليبر

تلك العظمة المعهودة لهذا الشارع فى فصل الشتاء حيث يتوافد السياح وكذا الدوقة دي فاليريا ومعها مدام كاريولى والبارونه روتين وكذا الكونتس الصغيرة كانوا فى رحلة طويلة الى عالى الصعيد فوق يخت الدوقة (المسمى استارتا) لزيارة هيا كل الماضى ومعهن شارلس جروسفنر حيث ترك صديقه فى حراسة غردون وحمايته

وكان عيد الفطر قد انتهى . واحتفل الاحتفال المعتاد بوفاء النيل (العقبة اوجبر البحر) وشيعت الكسوة النبوية (١) باحتفالها المعهود حيث يركب شيخ الاسلام ويطأ الناس المتحمسين بحوافر جواده . اما وزارة نوبار فكانت باقية على قيد الحياة بينما كان غردون فى شغل شاغل بامر ارسال المؤونة والذخيرة الى اسيوط واسوان لتخزينها فى الخرطوم استعدادا للطوارىء . وكان وصل اسماعيل بعض المال من لندن كمقدمة (عربون) على مشروع جيمس لورى ودافيد هارت فصار ينتظر من آن لآخر امر شريف لاسقاط نظارة نوبار

اما شريف فكان كل ليلة مع الزبير ويقول له

« متى اصبح غردون فى طريقه الى السودان فسنسقط

---

(١) جاء عنها فى قاموس القرن العشرين الانكليزى مايأتى : هو احتفال دينى فى القاهرة وقت احياء المولد حيث يركب فيها شيخ فوق حصانه ويدوس به أجسام الدراويش

نوبار ثم نغير حكم السودان وسأعقد معه اتفاقا بشأن العاج لمدة ثلاث سنوات متى صرت ناظر النظار ، ثم يستبز من الزبير وشيعته بعض اكياس الذهب لسد حاجات الخديوى

وكان نوبار يسير بوزارته وحيدا وسط هذه المعمعة ولا يدري عن المؤامرة شيئاً وينتظر سرا اسطولا فرنسيا فى القنال ودوي المدافع الانكليزية فى الاسكندرية . وهكذا كان يراقب العدوان السريان الأحوال عن كثب وينتظران هبوب العاصفة لاشهار السلاح

أما توفيق باشا فكان لين العريكة يخادع عرابى بك ومن معه من الضباط الوطنيين ويدعوهم الى تهدئة الجيش بالوعود ، وهكذا فان كل الدائرة المتألقة التى تحيط باسماعيل ترقص طربا لتوقيع شريف على قيثارة دهائه وأغراضه

وكانت هناك اشاعات التفاؤل والسلام والكل ينتظر (بكره بكره ؟ !) Boukra

أما وقد انتهى كينيث من مراجعة المستندات فقد وكل الجنرال راتب باشا بمرافقته على يخت المحمودية للتفتيش فى الصعيد حتى اسيوط وجرجا ثم يعود للتفتيش بالوجه البحرى

والآن فقد عزم غردون على السفر الى السودان لان الحالة هناك تستدعي سرعة حضوره. ذهب وحيدا وليس معه من مال

أو عتاد أو رجال مدربين ، والان فان الجنرال جيسى الايطالى ذبح سليمان ابن الزبير أحد المهيجين والذين شقوا عصا الطاعة على الحكومة

تقدم الزبير ملك الرقيق العظيم فى لباسه العربى الى غردون باشا وحياه باحترام وقال بينما كان شريف يقوم بوظيفة المترجم «لقد وهبتنى حياتى ، أما جيسى فقد نحر ولدى سليمان

« فانت رجل عظيم ، وأنى اركن الى كلمة الشرف منك اكثر من عهد كتابى من الخديوى

« لقد عشت آمنا هنا فى القاهرة تحمينى كلمة الشرف منك(١)»

---

(١) فى عام سنة ١٨٧٣ زين الزبير للخديوى اسماعيل أمر فتح بلاد دارفور (وكانت مملكة مستقلة) فعضدته الحكومة المصرية فى طلبه وتلاقى الزبير بجيش سلطان دارفور البالغ ٢٠ الف مقاتل فهزمه وانتهى بفتح دارفور فكافأته الحكومة المصرية على ذلك بأن عهدت اليه أمر ادارة الجهات الجنوبية منها ومنحته رتبة باشا . ثم أخذ يشكو من ثقل الضرائب وطلب الاذن له بالمثول بين يدى الخديوى لشرح مطالبه فأذن له ونصب ابنه سليمان مكانه ولكن الحكومة لم تجب طلباته وأبقته فى القاهرة خشية من دفعه السودان الى الثورة متى رجع

ولخروج ابنه ومن هم على شاكلته من الجلابين على الحكومة لكساد تجارتهم فقد حاربهم مسيو (جيسى) وقاتلهم قتالا شديدا انتهى بقتل سليمان الزبير . ولقد وجد معه مسيو جيسى رسائل من والده الزبير تدل على أنه كان المحرض على العصيان

ثم انسل يجر ساقه المجروح ....

وكان هناك مؤتمر خاص في قصر عابدين. ولقد داخل غردون الشك من توسلات الخديوي له بأن يترك حوادث السودان تأخذ مجراها الطبيعي وتقوم بحاجة نفسها . غير ان غردون ذلك الرجل الشكس أبى الا ان يقوم بواجبه واتفق مع الخديوي على ان يقوم بادارتها ثلاث سنين أخرى اذا مد بالذخيرة والرجال وعلى شرط أن كل الارتباطات الخاصة بتجارة العاج تكون وقفا على السودان وبعد أنقضاء المؤتمر كان شريف وراتب والزبير في قصر شريف يأتمرون بغردون . وفي هذا المساء كانت قد وصلت البرقيات من لندن وانتورب باعطاء آخر ثمن يمكن به توريد العاج . وبذا وقع غردون على العقود الخاصة بذلك وسافر سرا الى الخرطوم، ابرق غردون الى كينيث دجروسفنر في اسيوط (حيث كان يقوم الاول برحلة التفتيش) بانتظاره عند جرجا ، ولقد اظهر جروسفنر لكينيث مخاوفه من سفر غردون الى الخرطوم وتنبأ بان الموت ينتظره هناك ولا يمكن لاية قوة أن تثني غردون عن عزمه على السفر لان يد القدر هي التي تدفعه الى مورد حتفه

وكان الزبير في مبدأ أمره زعيم تجار الرقيق وقد بنى لنفسه في (شكا) قصرا فخما ونظم جيشا مسلحا لاقتناص الرقيق وبعد كفاح طويل مع الحكومة المصرية عفا عنه الخديوي ونصبه مديرا لبحر الغزال

المعرب

وكانت حيلة شريف قد جازت على غردون حيث حمله على أن يتعهد لتجار لندن وانتورب (انفرس) بأن يورد لهم سنويا مليون رطلا من العاج بثمن الرطل ثلاث ريالات نظير تقديمهم لمولاه الخديوى نصف مليون سترلنج ، وشريف يعلم حق العلم بأن غردون لن يوفق للوفاء بعهده وبهذا تنهار حكومته السودانية من الاساس ، وكانت الاخبار قد وصلتهم بأن شريف أصبح الان ناظر النظار ، ولما ودعهم غردون فى طريقه الى الخرطوم سأله كينيث وقد بللت مآقيه الدموع

«وماذا عن مستقبلك أيها الجنرال ؟»

فاجاب غردون وقد مد له يده مصافحا ومواسيا

«كما يشاء الله ، فماذا تنتظر من جندى اعزب وليس له من حدب ، أنه لايفكر أين تقبر عظامه

«ولم يتسن لأى ملك أو عظيم ان يختار مستقبله ومايخبئه له القدر، فالحكيم والفاتح والمنجم لايعرفون عن الغيب أكثر مما يعرفه الرضيع الأبله ، فمستقبلنا جميعنا بين يدى الله»

. . . كانت الاخبار تترى بتبدل الاحوال فى حكومة القاهرة وأخيرا وصلت كينيث برقية فى جرجا بان يحضر حالا الى القاهرة لمقابلة الجنرال راتب باشا رأسا

ولما تمثل الشاب فى حضرة راتب باشا قال له هذا

« انت تعرف ان شريف باشا أصبح ناظر النظار

«والان فهو يبر بعهده لغردون : فهذا الرجل، رستم افندى سلمنى اليوم الاثنى عشر سجلا السرية عن ايصالات الخديوى اسماعيل من عهد ارتقائه العرش، وستذهب معه بواسطة السنيور كاربولى قنصل جنرال ايطاليا ومعك اثنان من المترجمين وقواص القنصل يوميا الى قصرى وسيذهب اليوم رستم افندى ومعه حسن ترجمان غردون باشا الى قصر حلوان على يخت المحمودية ليحضر السجلات المحتفظ بها»

الفصل الثالث عشر

(على شفا الهاوية — رسالة الخديوى — مرة أخرى فى قصر عابدين — دموع الخديوى — فى قلعة طرة الفدعة — خدع عبدالله — سباق اليخت استارتا — برقية الحاكم)

مر أسبوعان كانا ادق الايام فى حياة كينيث وأخطرها وكانت درجة حمى هياج الافكار فى ارتفاع وقد شملت كل القاهريين وجميع البلاد.

فكنت ترى الفنادق والقهاوى والاندية العامة ملأى بالوطنيين المتحفزين للثورة يتداولون ويتشاورون والاجانب فى وجل

واضطراب لانه وصلت الاخبار بان اسطولا أجنبيا ضخما فى ميناء الاسكندرية وهناك طرادان تركيان يرفرف فوقهما العلم العثمانى حيث يتوسطه الهلال يطوفان أمام قلعة الحاكم

فالتجار وأصحاب البنوك يسرعون هنا وهناك فى اضطراب ووجل ، أما مسرات الازبكية ومحاسن حى شبرا فقد انقضت بانقضاء الشتاء فصل السياح

وكان هذا هو السكون العرضى الذى يسبق العاصفة، ذلك الهدوء المصطنع الذى يتقدم كل انقلاب خطير ، وكان كينيث منهمكا فى عمله الممل الشاق يعاونه الجنرال راتب باشا فى كشف الاسرار عن اسراف اسماعيل باشا فى مدة ست عشر سنة قضاها فى حكمه وكان كل من قنصلى جنرال فرنسا وانجلترا يترددان على سراى عابدين ويطلبان طلبات عاجلة مجحفة مهددين متوعدين. أما قناصل روسيا والنمسا وايطاليا فكانوا يعملون على احباط مساعى الاولين بينما كانت الثورة والعصيان على وشك الوقوع. وكوكب شريف اخذ يسطع فى سماء مصر فينير رباها بضوئه النارى الاحمر المتوهج . أما غردون ذلك الرجل المقضى عليه بالشقاء والدمار فلم تصل اية رسالة منه الآن . وكانت مدينة القاهرة الهائجة منقسمة الى ثلاث شيع حزب الخديوى اسماعيل وحزب البرنس توفيق ذلك الخديوى المنتظر

أما نوبار فقد ترك وحيدا ولكنه كان على اتصال دائم بأسياده الانكليز والفرنسيس ويرسل كل يوم بالاخبار الى الاستانة

وقد أعلنت الجرائد الاجنبية بان « سير ايفلين بارنج (١) في طريقه الى الاسكندرية .....

بينما كان كينيث منكبا على فحص المستندات كانت الدوقة دي فالريا وجماعتها يراقبون الاموال التي يرسلها شريف الى ستامبول ومعه عصبة من تجار الرقيق. هنا همس زخريا في أذن الدوقة

« انها رشوة ذهبية للسلطان . وهذا كل ما في الامر فلقد أبرق لي وكلاء لورد ريكسهام بأن هذا الذهب الذي كان يذهب اخيرا الى الخديوي من يد شريف الماكر يذهب الآن رأسا إلى السلطان . فما معنى هذا ؟ »

فاجابته الدوقة « يعني أن هناك كوكبا سيسقط عما قريب : فلقد فقد اسماعيل كل سلطة له على شريف وهكذا اقتربت الخاتمة . اما رستم افندي وحسن الترجمان اللذان ذهبا فوق ظهر المحمودية الى سلوان لاحضار المستندات فقد انقطعت أخبارهما وفي ذات يوم أتى شريف باشا الى كينيث وقال له

---

(١) اللورد كرومر فيما بعد وهو واضع كتاب عباس الثاني Abbass II

« ستصلك باقي المستندات بعد يومين على الاكثر. فاجتهد في اتمام تقريرك متى وصلتك وسلم منه نسخة مختومة بخاتمك الى المركز دلبسبس وارسل نسخة اخرى الى رؤسائك واطلب منهم أن يقدموا للخديوى مليون سترلنج على الاقل بضمان ضياعه الواسعة وهكذا تنتهى مأموريتك وتنقضى لجنة الخمسة »

قضى كينيث بقية الايام فى صحبة راتب باشا منتظرا المستندات بلا جدوى . وكان الباشا يفسح له مجال اللهو والسرور طمعا فى خداعه والاحتيال عليه ، وفى ذات يوم أخذه وذهب به الى خان الخليلى حيث شاهدا تلك الكنوز المعروضة فى الاقبية والحوانيت الحقيرة ، ولما رأى راتب أن الشاب قد بهرته الجواهر والاحجار الكريمة وعجائب الشرق المعروضة فى الخان عزم على الاستفادة من هذه الرحلة ، ولما وصلا باب الحريم بقصره ورأى الشاب عظمة الشرق وتفنن الشرقيين فى زخرفة قصورهم فلتت من بين شفتيه صيحة الدهشة والعجب . فتبسم راتب وقال

« أن معشر الغربيين جميعهم معتوهون . فان زوجاتكن المتبرجات المتلألئات يسطعن فى أفق المجتمع لارضاء الاخرين بينما نسوتنا لايتبرجن الا لازواجهن وحدهم »

ثم قاده الى حجرة هى أشبه بالمعرض حوت من اصناف الجواهر ونفائس الهند والصين والعجم وتركيا مما يبهر الابصار

ويفوق ماشاهده فى خان الخليلى • وأى راتب الفرصة سانحة ففتح احد الصناديق للشاب وقال له مغريا

«خذ هذا ؟؟ فهو لك لو عملت معى وشريف أسبوعا واحدا أخبرنى عن أسماء أنصارك السريين • وسأقودك بنفسى الى الاسكندرية فى عربتى الخاصة • وبذا يمكنك أن ترحل هذا الكنز الثمين فى أمان على احدى البواخر الى خارج القطر المصرى وسأقدم اليك تحويل على بنك دى فرانس بمائة الف جنيه »

فاجابه الشاب وقد تملكه الغضب

« اضرع اليك بأن تذهب بى الى فيلا كليبر • فلست جاسوسا أو خائنا وانما ضيف الخديوى اسماعيل »

فاجاب راتب « انك غبي أبله • ولا تعرف اين توجد منفعتك »

وكان الشاب قد ادرك ماحذره منه كاريولى قنصل ايطاليا فوضع يده على مسدسه وقال

« عد بى الى فيلا كليبر والا جعلت من رأسك هدفا للمسدسى فأين آداب الضيافة العربية منك »

لما عاد كينيث الى فيلا كليبر قابلته الدوقة وقد أفزعها منظره وأمرته بأن يركب عربتها ويذهب الى قصر عابدين فى الحال • ولما واجه اسماعيل فى مكتبه الخاص نظر اليه هذا متحسرا وقال

« لقد ارسلت فى طلبك ... لاخبرك بان... تترك مصر فى الحال !!

« فلقد أتيت الى هنا بناء على طلبى الملوكى وفى حمايتى المقدسة كمليك محترم . فالمحمودية راسية عند الجيزة

« وأما رستم افندى فقد مات . فلقد انتابته الكوليرا الفجائية وهكذا ضاعت الاوراق ولذا ترى بان مهمتك قد انتهت من نفسها . ولقد ارسلت فى طلبك لاخبرك بان تبرق لرؤسائك باستدعائك إذ ليس فى استطاعتى حمايتك بعد الآن »

فاجابه الشاب متعلثما « ولكن اذكر يامولاى هذه الشهور الطويلة وعملها الشاق ثم اذكر أمر مستقبلك الملوكي ومستقبل عرشك؟؟ »

فاجاب اسماعيل وقد تملكه الياس والاسى

« لقد أصبحت فى عجز عن الوفاء بعهدى سواء كملك أو كواحد من العامة . فلقد جاهدت طويلا هذه الاسابيع الاخيرة وبلغ من ضغط فرنسا وانجلترا أن طلبامنى التنازل عن العرش وقد رفضت ذلك بتاتا فهددونى بالعزل . وشريف نفسه أصبح على مايظهر بلا حول أوقوة . ولقد طلبت المعونة من لندن بواسطتك لاهدىء روع انجلترا وفرنسا — فليس هناك من منجد أو نصير . وقد بدأت الاستانة حركتها فاذهب حيث لايزال القليل من

الوقت . فليس هناك من امل لك فى رؤية باقى المستندات فقد تكون سرقت أو أتلفت

« اما وكلائى السريون فلم تدفع لهم مرتباتهم وأصبحت لا أركن اليهم . وأعدائى يوسلون الذهب الى القسطنطينية بينما جيشي عبارة عن جموع تتضور جوعا ليس عندى من بحرية احتمى بها . ولقد هجرنى أولادى وشريف يعمل سرا مع أعدائى ولن يمضى أسبوع حتى أكون منفيا أو طريدا أو سجينا فى احدى المدمرات العثمانية الى قلاع البوسفور

« فآه سيدان ! ! سيدان ! ! فكلمات نابليون الاخيرة : لو كنت أنت أيضا فى سيدان !! ان حكاية الكوليرا وضياع الاوراق هى بدأ الخاتمة »

ثم أخذ يتنهد الخديوى تنهدات عميقة والدمع ينهمر من مآقيه وقال بحسرة

« ان أغنى حاكم فى أوروبا لم يكن عنده ماعندى من الحظ والجاه . ولكن ركونى لنوبار (١) أضاع على صفقة القنال فلقد

---

(١) كان نوبار من أنجب رجال عصره رباه قريبه بغوص باشا (من مستشارى محمد على) تربية سياسيه فكان يحسن معظم لغات اوروبا ويلم بكل الاحوال الاوروبيه : ومع كونه أرمنيا مسيحيا فقد استطاع ان يخدم ثلاثة من ولاة مصر مدة عشرين سنه وكان حائزا على رضاهم

كانت فوائدها كافية لتسديد جميع ديوني. ولكن حب المجد والمدنية الكاذبة دفع بي الى الهاويه السحيقة. وعما قريب ستضع انجلترا يديها على ضياعي الخاصة الواسعة وهذه نهاية مليك استسلم ابطانة من المغررين والانذال

« فمن سنتين مضتا كان فى مقدوري (يظاهرني الحزب الوطنى) أن أجند جيشا عرمرما يمكنني به أن احصل على تسوية عادلة شريفة . ولكن الآن فالاغراب سيختارون من يخلفني لقد أضعت أكواما عظيمة من الذهب لارضاء استامبول. وهاهي الان قد هجرتني

« ولكن اسمي سيحيا ويبقى خالدا . فلقد أخرجت للعالم أعظم طريق مائي صناعي ثم نبذت العرش نبذ النواة »

الى أن غضب عليه اسماعيل باشا. وله اصلاحات كثيرة خاتمتها تأسيس المحاكم المختلطه بعد أن قضى سبع سنين فى كفاح من اجلها مع الدول الغربية . ولقد تشكلت وزارة مؤاخذه برئاسته عقب سقوط وزارة شريف سنة ٧٨ كان من بين اعضائها وزيران من الاجانب بعد أن كان لهما مراقبان محدودا الشئون : وهو الذى تولى الوزاره عقب سقوط وزارة شريف ووافق على سلخ السودان حسب مشورة انجلترا وكذلك تولى الوزاره فى سنة ٩٤ عقب سقوط وزارة رياض وفى سنة ٩٥ اصيب بكسر فى رجله اطال غيبته عن مصر فى باريس ثم اعتزل الاعمال ومات فى باريز يوم ١٤ يناير سنة ٨٩٩ المعرب

ثم حجب عينيه براحتيه وكفكف دموعه وقال

« لقد باعني الجواسيس والخونة ذات اليمين وذات الشمال . ولم يخلص لي واحد منهم فلقد كان أحد باشواتي من رتبة فريق يتجسس على أعمالي للسلطان . وجنرال ستون عنده في القلعة مايؤيد ذلك . وكنت على وشك أن أقطع رأس ذلك الخائن ولكن وصلتني الاوامر من السلطان بأن أرسله للاستانة سالما . وهكذا فان انجلترا ترقص طربا على قيثارة تركيا العمياء . ثم حرب الحبشة فلقد دفعت اليها دفعا . وكانت روسيا تساعد سرا الاحباش وأعطتهم المعلومات التامة عن جميع خططي الحربية سلفا . أما نوبار فكان يمثل هنا سكرتيرا مخلصا للورد بيكنسفيلد ولكن سيأتي من يثأر لي . فسيأتي يوم تلقي فيه روسيا بما عندها من ملايين القوزاق على انجلترا في الهند . وهكذا يصبح هذا الطريق المائي الى الهند عديم الفائدة . لان انجلترا لن تجد عندها من الرجال ماتدفع به ملايين الميسكوف الجرارة . أما اسطولها فلن يفيدها شيئا طالما أن مدافعه لن تبلغ مدى الشاطيء ولن يصل الى جيش روسيا البري العرمرم

« أما صديقي المخلص غردون فقد ذهب الى السودان وستكون صداقتي له شؤما ووبالا عليه . فسيطر دونه من السودان . وعما قريب سترى فوق هذا العرش شبحا آخر أوجده

القدر وكونته الظروف ثم يدعونه (وريث الفراعنة)

ثم قدم للشاب خاتما ماسيا وقال

« خذهذا كتذكار مني!!والآن فوداعا ليفعل القدر مايريد »

« اذهب ولا تسألني شيئا فلن تجمعنا الايام بعد وهذا اليوم اخر العهد بيننا وكل رجائي أن تبرق لرؤسائك لاستدعائك توا فان يدي قاصرة عن حمايتك الان . واليوم فانّ شريف هو المستبد بأمر الحكومة.وأما أنا فانتظر اخر لطمة حتى أهوى الى الحضيض. فاذكر كلماتي . فستثأرلي روسيا ـ في السنين القابله »...

خرج كينيث فوجد القوم في هرج ومرج يتحدثون بتصدع ذلك العرش المكين ـ وهكذا آن أن تنزل الستار حيث تمثل المأساة التي تنتهي بخراب اسماعيل وسقوطه

في ذلك المساء ترك كينيث وجروسفنر والدوقة والبارون روتين القاهرة عن طريق النيل مستسلمين للاقدار حتى بلغوا كفر الزيات في طريقهم الى الاسكندريه ومنها الى القارة الاوروبية.ذهبوا وتركوا وراءهم بلدا تتمخض عن الثورة ويكاد يتصدع بناؤها من هول ماخبأه لها القدر . ولم يصبح الاصباح حتى راجت الاشاعات بانه سيجلس على عرش مصر خديوى هو البرنس توفيق سادس خديوى لعرش الفراعنة (١)

---

(١) توفيق باشا (١٨٧٩ ـ ١٨٨١) تولى أريكة الخديوية والمصاعب

وقبل أن يركبوا البحر وصلت برقيـة الى السيد شارلس جروسفنر بمرض والده لورد ريكسهام وهكذا خيم ظل الموت علي قصر ال ريكسهام

....

تحف مصر من كل حدب . فالخزانة خاوية والجيش مختل النظام والكل ساخط حانق سواء فيه الوطني والاجنبي ولم يكن لتوفيق باشـا من الدهاء والحزم مايجعله خير مكافح لـكل هـذه الكوارث الا أنه مع ذلك كان مخلصا لبـلاده ومحبا لها يميل الي مافيـه راحتها وانتشالها فعمل لذلك جهده

ولقد اعترضته أربعة أمور قبل ان يشرع فى سبيل اصلاحاته منها تحديد مقدار نفوذ الخديوى · ثم تقرير العلاقة بينه وبين الاستانه ثم تعيين مـدى الاشراف الذى يكون للاوربيين على شؤون مصر ، والرابع الفصل فى المسائل الماليه وتسويتها

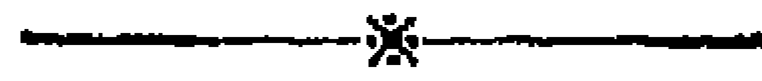
ولقد خلف نوبار في رئاسة الوزارة فى ابريل سنة ١٨٧٩ أيام حكم أبيه اسماعيل ثم أقيل فى يونية قبل سقوط أبيه وترأس الوزارة شريف مكانه

وفى عهده اشتد طغيان رؤساء الجيش من الترك والشركس فاشتد ساعد الحركة المعارضة من جانب الضباط المصريين المهضومي الحقوق واشتد النزاع حينما أصدر عثمان رفقي باشا الشركسى الاصل ناظر الحربية قانون القرعة القاضي بمنع الترقى من تحت السلاح

فابتدأت الحركه العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) مما أدى الى تدخـل انجلترا واحتلالها مصر واشتد المرض على توفيق فى يناير سنة ١٨٩٢ وتوفي يوم ٧ منه الساعه السابعه مساء وكان قد تم الاتفاق بين اللورد

الفصل الرابع عشر

(قصة حسن — مأدبة على ظهر المحموديه — لا نزال هناك بعضا من الوقت ـ فندق روسى فى شيلون ـ هبه جيمس لورى صوت من الماضى ـ برقية كاريولى ـ عودة لورد ريكسهام)



كان الوقت عصراً حينما دعت الدوقة دى فاليرا كينيث وجروسفنر وزخريا الى جانبها لسماع قصة حسن أخ عبد الله الترجمان حيث أصبح الان بأمن من بطش اسماعيل وشريف وحولهما تظله الراية الايطالية فوق ظهر الباخرة (فيتوريو عمانويل)

ولكن جروسفنر ذلك الرجل الفضولى والذي كرس حياته لخدمة الاخرين رغب اليهم ان يسمعوا وجهة نظره أولا فى المسألة المصرية الداخلية والخارجية وقال

« طالما أن هناك أملا في الحياة فالحوادث تتجدد باضطراد وانتظام . وهذا هو السر في سقوط وزارة نوبار الادارية الاصلاحية ووقوع اسماعيل فى قبضة شريف الحديدية

كرومر ومصطفى فهمي باشا رئيس النظار وقتئذ وتجران باشا ناظر الخارجية والسير الون بالمر على تنصيب أكبر أنجاله البرنس عباس حلمى خديويا لمصر بحكم فرمان (١٨٩٣) فاستدعي من فينا لذلك

المعرب

« فالسجلات والدفاتر التي سلبناها من قصر حلوان تظهر لنا بجلاء أين ذهبت تلك الملايين المقترضة والممتصة من دم الفلاح التعس . وانتم تعرفون كيف قتل (رستم افندى) على ظهر المحمودية ولا ذنب له الا أنه كسلفه المفتش يعرف اين السجلات التي تحوى اسرار اسراف الحكومة الاسماعلية الشريفية

« اما حسن هذا فقد نجا بأعجوبة واليه يرجع الفضل فى الوقوف على السجلات السوداء الدفينة والتي يمكن أن نعرف منها أين توجد كنوز اسماعيل وشريف في اوروبا

« اما عن شريف فالواجب يقضي عليه أن يساعد على عمل التسوية الدولية للسنة القابلة. والا فانسجون البوسفور القاتمة ستكون آخر ملجأ له ولمولاه اسماعيل . وعن دلسبس فانه قد ولى وجهه شطر بنا (١) فليست مصر الآن الا صدفة فارغة.

---

(١) كان دلسبس سفيرا لفرنسا بمصر فى عهد محمد على ثم نال اذنا من سعيد سنة ١٨٥٤ بحفر قناة السويس وأمضى الاتفاق فى سنة ١٨٥٦ ورغما من ذلك الفخار العظيم الذى أناله اياه المصريون فقد قابل جميلهم بالغطرسة وأساء اليهم أكبر اساءة لا ينساها التاريخ · أجل فلقد مكن الانكليز من مهاجمة العرابيين من جهة القناة بعد ان صرف عرابي عن عزمه على ردم القناة حتى لا تمر السفن الانكليزيه منها وأقنعه بانه يمنع (بحق حياد القناة) مرور أية سفينة حربيه. ولكنه عاد فسمح للانكليز بذلك مما انتهى بنكبة الاحتلال ؟ المعرب

وعلى اسماعيل أن يبسط الحقيقة على علاتها لانه لن يقدر على الاستمرار فى ايجاد التوازن بين نوبار وشريف

« وربما تجنب وتر القوس بعمله اتفاقات سرية مع انجلترا والا فتصبح الطرادة التركية التى تحمله الى ستامبول مأواه المتنقل كما كانت سفينته النيلية (المحمودية) مصرع للمغضوب عليهم

« فيجب أن يعلم كلنا ذلك . وليعلم لورد ريكسهام أن أعماله مدة عشرة سنوات لم تكن عبثا وان السر فى نجاحه هو لتلك المرأة (وهنا نظر للدوقة بعطف) التى ستصبح زوجة شارلس جروسفنر ابنه الوحيد »

هنا ساد سكون رهيب ثم بدأ حسن الترجمان حديثه المؤثر بصوت متهدج محزن

« قبل أن أبرح القاهرة على ظهر المحمودية أرسل لى شريف باشا أخى عبد الله خاصة لاتشرف بالمثول بين يديه فى قصر الازبكية . ولقد كان أخى عبد الله على مقربة منى حينما أمرنى شريف بأن أراقب رستم افندي فى رحلته الى حلوان حتى لا يرسل برسالة أو برقية لاى انسان

« وكان معنا على ظهر المحمودية ربانان اختارهما راتب باشا ورئيس أغوات حريم شريف باشا . وقال لى شريف اذا اكتشفت بأنه على اتصال باى مخلوق فسيكون هذا السبب الاوحد فى

تكوين مستقبلك الباهر السعيد . فاذا ما وثق بك وافضى اليك بأسراره فاذكرها جميعا للباش أغا . لان رستم افندى رجل سورى وهو صنيعة نوبار واسياده الانجليز. فاذا ما أغفلت مهمتك فان رأسك ورأس أخيك عبد الله سيقطعان وتطرح أجسامكما فى النيل كما تطرح الجيفة النتنة. ثم القى الى بكيس كبير مملوء بالذهب وهكذا انصرفت من حضرته والفزع يملأ قلبى . ركبنا السفينة فى المساء من الجيزة ونزلنا فى حلوان وهناك مكثنا معتقلين فى قصر حلوان نحو الاسبوع تحت حراسة عشرين من الجند النوبيين

« وكان الرجال الثلاثة الربانان والباش أغا لا يفارقون رستم افندى . أما أنا فقد تركت وحيداً أنم وأنام مطمئنا ولكنى أيقنت بان هناك قصة يجب أن أقصها مرغما

« مرت الايام ورستم افندى بمعونتى ينقب عن الاوراق المقصودة فهى ما بين دفين فى أعماق الاقبية وخلف الدواليب وبين ثنيات الوسادات والاغطية والمفروشات . وكانت هناك مرايا متحركة تحجب خلفها بعض الدفاتر والسجلات . وبينما كان رستم افندى يستخرج سجلا فسجلا كان رئيس الاغوات ومعه الربانان يدرجونها فى قائمة من نسختين ويختمون السجلات بخاتم شريف

« وفى اليومين الاخيرين كانت هناك مشاده بين رستم افندى

والباش أغا والربانين بخصوص عدم العثور على أحـد السجلات الهامة . وكثيراً ما قبض الباش أغا عن سيفه مهدداً متوعـداً ؛ وفى الليلة الثامنة قبل مطلع الفجر استيقظ جماعتنا عـلى صوت رسول من القاهرة وأسرعنا الى ظهر المحمودية حيث كانت على استعداد للسفر . ركبنا المحمودية فاذا بالجند المسلحين قد أحاطوا بنا. ولما كان الليل شديد الحلك فقد عـثرت عند مطلع السفينة فشعرت بيد أمسكت بساعدى فاذا بهاهي يد رستم افندى ودس الى كتابا صغيرا فاخفيته فى صدرى . ثم تركنى الضباط وحيـدا فى احدى الغرف ونزلوا برستم افندى الى أسفل الباخرة ومعهم الصندوق الذى يحوى المستندات فأردفت باب غرفتى من الداخل ثم فككت احدى الوسادات بخنجرى وخبأت الدفتر فى طياتها

« أذن الفجر فتوضأت وقت للصـلاة ثم جلست أدخن الشبك بينما كان رستم افندى جالساً بالقرب من مؤخر السفينه يحيط به الربانان والباش أغا يشربون النبيذ. وكانت وجهة المحمودية بنى سويف. استمروا فى معاقرتهم بنت الحان حتى كان العـصر فأتى رستم افندى ونظر الى نظرة معنوية . وكانت تتجـلى فى نظراته آيات الفزع كالظبى المجهد المتعب وقد ضيقت عليه الوعول مسالكه . فناداه الباش أغا بحماقة . فأدار ظهره وتبع الاغا مرتجفا ثم ساد سكون رهيب . ثم سمعت فجأة صيحة مفزعة فنظرت من

ثنايا النافذة فاذا بالرسول والربانين يوثقون رستم افندى وقد نشب الباشا أغا اظافره فى رقبته ثم دوى الجو بصفير الباخرة مما جعل صرخة رستم افندى كأنها لم تكن

« قبعت فى غرفتى وحيداً انتظر دورى وما يخبئه لى القدر وفى المساء رست بنا الباخرة عند بنى سويف ومن هناك صرف الرسول ثم دعانى الباش أغا والرعب يملأ جوانبي بينما كان عبق الكافور والعنبر منتشراً فى جوانب غرفة الاغا. كانت نوافذ الغرفة مفتحة وليس هناك اثر لرستم افندى . فدمدم الباش أغا مصطفى

« ! ! ان رستم افندى قد مات فجأة بتأثير الكوليرا فاذهب الى شريف باشا واخبره بذلك وهاهى ملابسه كشهادة على ذلك وعليك ان تشيع بانك كنت معه حينما فاضت روحه ولم يفض لك بشىء . فاذهب وافعل ما أمرتك به »

« فارقت السفينة واطلقت ساقاى للريح وممى الربانان حيث كانت تتمثل لى جثة رستم افندى مهشمة وقد طرحت طعمة للاسماك . كتمت خبر هذه المأساة حتى وصلت وادى طره حيث كان فى انتظارنا كوكبة من الفرسان . فتقدم رئيسها واستلم منا الصندوق ظنا منه انها ملابس رستم افندى ولكنها فى الحقيقة السجلات التى تحوى اسرار المالية المصرية المتدهورة لان شريف

بمكره رأى أن يخدع مولاه الخديوى وهناك دفن الصندوق في مكان قصى بالقرب من قلعة طره

« لم أشأ أن أذهب الى شريف باشا بل أخبرت أخى عبد الله بالحادثة الملقنة لينقلها الى شريف بنفسه وجئت الى فيلا كليبر لاقص على الدوقة ما رأيت وما سمعت

« والآن فانى أصبحت فى حماها وحماكم وصممت على أن لا أرى القاهرة ومساوئها مرة أخرى

« ولقد أخبرت الدوقة عن أعمال شريف باشا مع غردون باشا في السنوات الست الاخيرة . فكان يسرق برقياته ومستنداته وأوراقه ويتجسس عليه . فالزبير وشريف وراتب وعثمان وحتى البرنس توفيق أقسم جميعهم بان غردون سيخدع فى كل محاولاته وتدابيره » ثم تمتم « ولكن عبد الله ؟ »

فاجابته الدوقة « لا تخشاه ؟ ! فسيجعله شريف دائما بجانبه »

لم يكن هؤلاء المسافرون ليعلموا بان عند مالفظ لورد ريكسهام روحه كان شريف قد أرسل بجاسوسته « اندرى لافارج » فى استدعاء عبد الله الترجمان لحضرته . لان هناك أحد جواسيس شريف ممن رأى أخيه حسن فى صحبة هؤلاء المسافرين هاربين من ميناء الاسكندرية

ولما صار أمام شريف قال لهما وقد تملكه اليأس والغضب

« انى لن أصدق واحـدا منكما » ثم هجم اثنى عشر عمـلاقا مسلحين ولم تسمع الا صيحة مفزعة اضطربت لها ارجاء قصره أما شريف فانسل مبتسما فى ظل الاغصان المورقة ينير طريقه ضوء البـدر الشاحب . وفى اليوم التالى عثر أحـد الفلاحين فى احدى الترع على جثتين طافيتين على وجه الماء فارتعد لما سمعه من حكايات البرنسيس (أسما) وأعمالها

وهكذا لم يسمع العالم بامر عبدالله الترجمان واندرى لافارج المصورة بعد ذلك وقبرت ذكراهما الى الابد

وصلت الباخرة التي تقل كينيث وجماعته الى برنديزى وركبوا القطار الى الحدود السويسرية وهناك علموا بان لورد ريكسهام فاضت روحه قبل وصولهم بساعات معدودة فى هوتل دي روسى وفى ظلال قلعة شيلون الخالدة . وكان مستر شارلس جروسفنر قد سبقهما الى شيلون بايام حيث أمكنه ان يسمع وصية والده قبل وفاته . وعند (أنكونا) طلبت الدوقـة كينيث الى حضر تسلمه تلغرافين وصلا من جروسفنر . وهنا سألها كينيث

« خبريني هل أخذا اذنا من الخديوى اسماعيل بالرحيل ! »

فتبسمت الدوقة « لا يمكنني ان أحيطك علمـا بكل أدوار هذه المأساة الغريبة

« وكان بودى أن لا أبرح القاهرة حتى أتحقق من سلامة

غردون باشا : فهناك طراد انجليزى فى مصوع . أما الخديوى فقد أحاط علما بكل المؤامرات المرذولة فى القسطنطينية ولكن لم يمكنه ان يقف على السر فى ارسال شريف الذهب الى هناك

«فلقد كانت رسائل الخديوى وبرقياته تسرق من شهور ويقف على أسرارها أعداؤه ولم يكن ليعلم اذا كانت (بتدبير من صديقه شريف أو عدوه نوبار) تلك المحاولات لوضع ابنه توفيق على العرش . ولم يكن ليدرى هل سيطلبون منه التنازل عن العرش أو سيحاولون اسقاطه او نفيه أو سجنه

«فلقد بلغ ضغط قنصلى فرنسا وانجلترا أشده واصبح لا يجسر على أن يلقى بنفسه فى أحضان قناصل جنرالات ايطاليا والنمسا والآن فان رجاءه الاخير هو أن يبرم اتفاقا مع انجلترا

«وهكذا أصبح القدر الهائل يروعه وينيخ عليه بكلكله وبدت أشباح الفزع ترقص أمام عينيه رقصة الارهاق . ولما طلبنى لحضرته كانت جل رغبتى فى أن أعرف هل شريف يخادعه وكم حاول شريف ان يكون حاضرا وقت مقابلتنا

« وعلى الرغم منى فقد اشفقت على اسماعيل فى النهاية فلقد قرأ فى عينى بأني اعرف اخراه القاعة ولم اجسر على اخباره بالحقائق وهى اننا اخرنا امر سقوطه لمدة ثلاثة اسابيع حتى يمكننا انقاذ غردون » « وربما عاد غردون الى السودان كحاكم له

ولكن لا بد وان يكون هناك خديوى آخر

« لقد حاول اسماعيل ان يرشينى حتى اخبره بما عزم عليه السلطان . فلقد علم بانى كنت على اتصال بسير ايفلين بارنج والسفير البريطانى فى استامبول

« غير انى لم اقبل هديته . ونصحته على ان يبرم اتفاقات سرية مع انجلترا وان يبرح مصر الى الابد وان يشترى من السلطان امنه والسماح له بأن يعيش فى اوروبا فى دعة وطمأنينة . واخبرته بان يعمل ذلك بواسطة السفير البريطانى وان يظهر له سجلاته ومستنداته السرية وبهذا يمكنه ان ينظم ويصفى اعماله ويضمن حياته طول عمره حتى ولو كان على ضفاف البسفور

«غير ان اسماعيل نظر الى باب الغرفة المجاورة وقال «لا اجسر فلقد مات الرجل الذى يعرف اين المستندات المدونة . وكان جواب شريف جافا وغامضا وليس عندى من صديق ينفذ اوامرى وربما سرقها شريف او اخر وصولها وهكذا سيستولى عليها اعدائى او ربما احتفظ بها شريف او اتلفها جميعها

« وليس فى مقدرتى مخاصمته الان ولا يوجد جندي واحد يمكنه ان يدافع عنى فلقد سلبنى شريف كل شيء واصبحت الحكومة فى قبضته . فلو عملت على مخاصمته فسيتفق مع انجلترا حتى ينجو بنفسه ويتركنى بين يدى الخراب . ثم اخذ ينتحب

وقال بحراره « انها لعنة هام من قـديم الزمان فلا يزال اثرهـا يحلق فى سماء افريقيـا البائسة . فليس هناك من العاب اخـرى ياتيها الملوك فى عرصاتها

« فبعد خمسين سنة سيصبح اسم افريقيـا تذكارا جغرافيا فقط فستمسك كل فرنسا وانجلترا بشمال افريقيـا . اما ايطاليا والبلجيك والبورتغال والمانيافستلتهم مايبقى من الشرق الى الغرب

«اماالانجليز فسيحصلون على قلب افريقياوستمتد فتوحاتهم من نيانزا حتى البحر وبذا يصبح كل وادى النيل فى قبضتهـم والان فهم يتسلطون على قناةالسويس بواسطةاسطولهم وهكذا يحيطون بخليج عدن والمحيط الهنـدى ويستحكرون استعماله واستخدامه

« وهم سينسفون الشلالات وينشئون فى الخرطوم مستودعا حربيا عظيما . وسيرسل قلب افريقيـا بخيراته وكنوزه فى ذلك الطريق المائى الانجليزى لان المال واعمال الحفر وقوة الديناميت ستجعل من النيل قناة انجليزية داخلية . وبذا افقرت المستعمرات الاستوائية بيت محمد على وجعلت الصداقة الاجنبية من مصر رقا لانجلترا »

ثم تنهد الخديوى وقال غاضبا

« ولكن ستثأر لى روسيا فى الزمن القابل متى تم خطهـا

الحديدى فى آسيا وعبر سيبيريا . فستثب روسيا يوما ما على القسطنطينية وستحرك الاحباش للقيام فى وجه الانجليز فى أعالى مصر . وهكذا تصبح تركيا فى خبركان وتصير ستامبول مستودعا للذخيرة الروسية . وهذا ما سيحمل الخزانة الانكليزية ملايين عديدة فى قتالها مع روسيا وتصبح قبضتها على ناصية السودان كقبضة الاسد الهالك . فالدهر سيثأر لى وأنا اتكل على بطشه الرهيب وانتقامه الهائل »

ولما رأى الامتناع عن الافصاح له بشئ من الحقيقة المؤلمة نفحني بحفنة من الجواهر وقال

« مدام الدوقة ! خذى هذه منى كتذكار من أمير سئ الحظ عن ايامنا الهنيئة فى الاسماعيلية

« فحينما افتتحت ذلك الطريق المائى العظيم للعالم لم أكن افكر فى ان سيصير فيما بعد هدية مشئومة لانجلترا وفرنسا

« وأنى اردت الاصلاح ما استطعت ولكن الخونة من بطانتى غرروا بى وافسحوا لى مجال الخيال والتبذير فضاعت آمالى وآمال أمتى »

(ولما خرجت من حضرة الخديوى تلقانى شريف باشا وسأل (ماذا قال لك الخديوى ؟)

« فحركت رأسى باشمئزاز واجبته . « يمكنك أن تسأله ! »

«والآن فان فهمى باشا قد برح لندن هاربا وقبل أن يصل استعفاء غردون سيكون تنصيب توفيق باشا خديويا لمصر قد أعلن ويصدر به فرمان السلطان . أما القناصل الخمسة فهم على استعداد لهذا الانقلاب . وهناك اسطول أجنبي ضخم مرابط عند الاسكندرية . هذا كل شئ وهذا مايعلمه الجميع سوى الخديوى

«وستأتى على مصر أيام اشد سوادا . فالاسطول بسواحل الاسكندرية ينتظر الفرصة بينما تجتمع تلك القطعان من همج الدراويش لاجتياح السودان . أما شريف فسك سرا بناصية توفيق الضعيف . ثم تلك المؤامرات التى تنخر فى عضد الجيش بينما يقف ذلك الجندى الباسل عرابى باشا مرابطا فى القلعة وعدوا للجميع

« واما يد توفيق الملساء فلن تحتفظ طويلا بصولجان الخديوية » ...

لم يخيم طويلا ظل الموت فى قصر لورد ريكسهام . لان السيد شارلس جروسفنر أصبح الآن « لورد ريكسهام » خلفا لوالده وتزوج معبودته الدوقة دى فاليريا . أما جيمس لورى فقد كافأ كيث أحسن جزاء فقد زوجه من ابنته كاثلين لوري وجعله يقاسمه امواله وضياعه

· مرت الايام سراعا واجتمع كينيث مرة بالدوقة وسألها « نسيت أن اسألك . ماهو مستقبل مصر؟»

فاجابته « لن يكون هناك أمير بعد الآن من بيت مصر؟ فتاريخها العجيب يرجع الى اربعة عشر الف سنة من حكم متاح ورع وسوس وسيب واوزيريس وسيتى وهو رحب

« فمن سماء هذه الالهة الخرافية يتلألأ نجم مينا من ستة آلاف سنة تقريبا قبل بعثة المسيح (صلى الله عليه وسلم)

« أما هيا كل الاهرام واساطيراشور فيرجع تاريخها الى عهد انبثاق فجر الفنون والعرفان . وكل مسألة فى الحياة ومشكلة للانسان كان يحفظها الكهنة فى عقولهم ويكتمونها عن الناس حتى جاء الهسكوس (الرعاة) وحكموا مصر

ثم بدأت سلسلة الفاتحين من عرب وفينقيين فهوراس فرمسيس الاكبر وسيزوستريس ثم الاشوريين فقامبيس فالاسكندر الاكبر الذى مات فى زهوة طيش شبابه فالبطالسة فالرومان فاباطرة الشرق فملوك الاقباط الضعفاء فعمرو الشركس فالصليبيين فجنود فرنسا تحت قيادة بونابرت فمحمد على فسلالته

« فيد انجلترا القوية هى الامل الاخير فى تنظيم احوال مصر اداريا واما تلقين ونشر تعاليم الدين الاسلامى تدريجيا فهو الدواء الاخلاقى الوحيد

« لان فى مصر كما فى البلدان الاخرى لا يمكن قيادة العامة بغير هاتين الوسيلتين الدين (الكنيسة) والسياسة

« اما اسماعيل فينتظر بوجل ما يخبئه له القدر . ولقد ترك نفسه فى قبضة الدول الخمس العظمى تقرر مصيره . فعند اشارة واحدة سيتقايأ ما ابتلعه من خير ويسقط من شاهق عرشه »

بينما كانا فى حديثهما انفتح الباب على مصراعيه واندفع لورد ريكسهام (جرسفنر) يحمل برقية فى يده من السنيور كاريولى تنبيء بخلع اسماعيل وتنصيب ابنه البرنس توفيق خديويا لمصر . وان غردون وصل الى مصوع وركب مدفعية انكليزية وقدم استعفاءه من حكومة السودان (١)

---

(١) لم يكن غردون ليعلم أن القدر سيدعوه ثانية الى السودان ليلاقى حتفه امام اسوار سراى الخرطوم الملطخة بالدماء . وأن دمه سيكون ثمنا لشركة السودان فيصبح السودان اسميا (ذى انجلو اجبشيان سودان) وعمليا (ذى انجلو سودان) . ونشأة غردون باشا هى أنه لما استقال السير صمويل بيكر فى سنة ١٨٧٣ الذى كان حاكما عاما على المقاطعات الاستوائية قام باعباء الحكم بعده الكولونيل غردون وكان رجلا جلودا مثابرا شديد المراس فقضى على طائفة الجلابين

وفى حكم اسماعيل طلب الخديوى (بارشاد ولى عهد انجلترا) من الحكومة البريطانية أن تمنحه تنصيب غردون مديرا لمقاطعه خط الاستواء فى يناير سنة ٨٧٤ فاهتم بامر السودان وقسمه الى قسمين وبسط نفوذ الحكومة المصرية فى ارجائه وأسس النقط العسكرية لضبط

ولم يطل حكم توفيق . وبعد قليل من حكمه كانت مدافع الانكليز يسمع هزيمها فى الاسكندرية والقاهرة مؤذنة بسقوطه (توفيق) بينما كان ابوه اسماعيل قابعا فى قصره على خليج نابولى الجميل . اما شريف فكان منزويا فى حريته يرتجف من الفزع. ولكن غردون بينما كان فى طريقه الى لندن لم يكن ليعلم بان القضاء القاسي سيدعوه ثانية الى الخرطوم ليلاقى حتفه هناك

السفن التي تنقل الرقيق. واعتزل غردون الخدمه من الحكومة المصرية ثم عاد اليها فى سنة ١٨٧٧ بعد أن اشترط على الخديوى أن يجعله حاكما عاما على جميع الاقطار السودانية

ثم بقي ينظم السودان ويديره ويكافح تجارة الرقيق حتي استقال فى اوائل حكم توفيق

ولما اشارت انجلترا على الحكومة المصرية باخلاء السودان فوض نوبار لغردون لماله من النفوذ والمحبة عند اهل السودان الأمر باخلائه ولكن ازدياد نفوذ المهدى قضى على أماني هذا القائد فقد اقتحم الدراويش الخرطوم فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ونحروا غردون

وبعد وفاة المهدى فى يونيو سنة ١٨٨٥ خلفه عبد الله التعايشى ولكنه بعد حروب عديدة كانت سجالا بينه وبين الحكومة المصرية انهزمت الدراويش فى واقعة ام درمان (٢ سبتمبر سنة ٩٨) على يد السير هربرت كتشنر (اللورد كتشنر) وقتل بعدها التعايشي فانقضت دولة الدراويش ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

وعلى اثر ذلك عملت اتفاقية ادارة السودان فى (٦ رمضان سنة ١٣١٦ هـ ـ ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وهاك نصها

اتفاقية السودان

حيث أن بعض اقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي — وحيث قد اصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة — وحيث انه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بان تشترك في وضع النظام الاداري والقانوني الآنف ذكره وفي اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل — وحيث انه تراءى من جملة وجوه أصوبية الحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما . فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بمالهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على مايأتي وهو :

مادة ١ — تطلق لفظة (سودان) في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي : أولا . الاراضي التي لم تحتلها قط الجنود المصرية

منذ سنة ١٨٨٢ وثانيا : الاراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتيا وافتتحتها جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد . وثالثا الاراضى التى قد افتتحتها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الان فصاعدا

مادة ٢ ـ يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع انحاء السودان المصرى ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصرى فقط

مادة ٣ ـ تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بامر عالى خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل الا بامر عالى خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية

مادة ٤ ـ القوانين وكافة الاوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت الى اخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع انحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أى قانون أو أيه لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة وعلى

الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى معتمد الحكومة البريطانية في القاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوى

مادة ٥ ـ لا يسرى على السودان أو على أى جزء منه القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعدا الا مايصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السابق بيانها

مادة ٦ المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من اية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة او دول

مادة ٧ ـ لا تدفع رسوم الواردات على البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية الا انه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتيه الى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانى ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ـ ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب مايقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

مادة ٨ ـ فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة الحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بأى وجه من الوجوه

مادة ٩ ـ يعتبر السودان بأجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

مادة ١٠ ـ لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم باقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

مادة ١١ ـ ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشورا بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

ماده ١٢ ـ قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة الروحية أو تشغيلها

تحريرا بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاءات ـ كرومر بطرس غالى

انتهت

اعمال المعرب وجميعها تحت الطبع

١ ــ الغاية والواسطة بقلم ارثر شوبنهور الفيلسوف الالماني الكبير

٢ ــ حنا والنور

(نشرتا تباعا بجريدة الافكار سنة ١٩١٥)

٣ ــ مصرع المضيله (Mort d'Arthur)

٤ ــ الاعزاء . تمثيلية مقتبسة من رواية (Idols) القصصيه بقلم W. J. Locke

٥ ــ ويسكس أو (ثوب الكهنوت) تمثيلية مقتبسة من رواية (The Tangled Skein) الكاتبة الشهيرة Bronness O. Crezy




Bibliotheca Alexandrina
0379580